رواية

أَدْرَكَهَا النِّسيانُ

د.سناء شعلان
(بنت نعيمة)

أَدْرَكَهَا النسيانُ

رواية

أَدْرَكَهَا النّسيانُ

"حكاية امرأة أنقذها النسيانُ من التذكّر"

د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

الطّبعة الثانية
٢٠٢١

Book Title Oblivion Saved Her	عنوان الكتاب **أَدْرَكَهَا النّسيانُ**
Second Edition 2021	الطبعة الثانية ٢٠٢١
Author:Sanaa Shalan Dr.	المؤلف :د. سناء شعلان (بنت نعيمة)
Book type:Novel	نوع الكتاب :رواية
Number of pages322	عدد الصفحات٣٢٢
Filing number (7084 /12 /2021)	رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ر.أ: (٧٠٨٤/ ١٢/ ٢٠٢١)
ISBN 978-9957-545-50-5 Sanaa Kamel Shalan	الرقم المعياري الدولي (ISBN) 978-9957-545-50-5 سناء كامل شعلان
Descriptors Arabic stories // Arabic literature // Modern era	الواصفات القصص العربيّة // الأدب العربي// العصر الحديث
All rights reserved to the author Dr.Sanaa Shalan	جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة د. سناء شعلان (بنت نعيمة)
Author's address:Dr. Sanaa Shalan Jordan, Amman, Post code: 11942 P.O. Box 1351 Mobile, WhatsApp and Viber: 00962795336609 selenapollo@hotmai.com Facebook: Sanaa Shalan	عنوان المؤلف:د. سناء شعلان الأردن- عمان- الرمز البريديّ: ١١٩٤٢ ص. ب١٣١٨٦ خلوي+ واتس+ فايبر ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩ selenapollo@hotmail.com Facebook: Sanaa Shalan
Publisher Al tnoor Kulttuurinkeskus ry Väinölänkatu 19B38 33500 Tampere Finland Hassan Abbas.Dakhel 00358456606168 altnoor62@gmail.com	بيانات الناشر مركز التّنور الثقافي فنلندا- تامبرة ٣٣٥٠٠ عباس داخل حسن ٠٠٣٥٨٤٥٦٦٠٦١٦٨ altnoor62@gmail.com
Cover design Asma Jaradat - Asma Office for Design and Directing	تصميم الغلاف أسمى جرادات- مكتب أسمى للتصميم والإخراج

- **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنيّة أو أي جهة حكومية أخرى.**
- **تم إعداد بيانات الفهرسة والتّصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية**
- **جمع حقوق الملكيّة الأدبيّة محفوظة للمؤلّفة د. سناء شعلان (بنت نعيمة)، ويُحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على أسطوانات ضوئيّة إلاّ بموافقة خطيّة منها.**

The author bears the full legal responsibility for the contents of this publication. This publication does not reflect the views of the National Library Department or any other government department.
The primary indexing and classification data was prepared by the Department of National Library.
All rights reserved to the author Sanaa Shalan. No Part of this book may be reprinted, photocopied, translated or entered into a computer or translated into a disk without the permission of the author.

من ملحمة "مزامير العشّاق في دنيا الأشواق":

"مَنْ عشقْ حُجّة على مَنْ لم يعشقْ، ومَنْ تألّمْ حُجّة على مَنْ لم يتألّمْ"

"عندما تحترق الأوطان يصبح العشق محرّماً"

"إنّه الميتم في كلّ مكان"

إهداء

إلى الأديب عبّاس داخل حسن المصلوب تحت سماء القطب كنجمة الفينيقيين؛ إنسان دافئ في زمن الصّقيع الأكبر، ورجل أسطوريّ يعيش في مساحة المستحيل، وفي انتظار ما بعده انتظار، ويخلص للتّذكّر رغم مواجعه، ويرسم دفئاً على الصّمت البارد، ويستطيع أن يبتسم ذات حزن ووجع، وأن يخفي الشّمس في عينيه.

إنّني أراكَ

النّسيان الأوّل
الضّحّاك سليم

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"أشهدُ أنّني قد عشتُ لأنّني عشقتُ"
"ما أزال أتعرّف عليّ. كم هذا شاقٌّ ومعقّد!"
"لستُ متأكدة إلّا منكَ"
"ما أجمل ما لم يأتِ بعد؛ وحده ما لم يجرحني حتى الآن"
"ليست أمّهاتنا من تلدنا، بل العشق هو مَنْ يلدنا بحقّ"
"الثّقة هي الإيمان المطلق بالحبّ"
"كلّ شيء يصبح مقدّساً في أرض الحبّ حتى الصّغائر والزّلات!"

سبعة وستون عاماً لم تسرق من شبابه ونشاطه وابتسامته إلّا القليل غير المأسوف عليه من ذلك كلّه، في حين أعطته هناء وخبرة وتجربة وألمعيّة تفوق هذه السّنين الطّويلة المزحومة بالعمل والإنجاز والتّطواف في دنيا الله وأزمان الانتظار وسهوب الكتابة.

لقد جرّب في هذه الحياة كلّ ما اشتهى ولم يشتهِ، وأصبح شعاره في الحياة "أشهدُ أنّني قد عشتُ"، وبات يردّده بانتفاج وتيه كلّما انتشى فخراً وفرحاً وسُكراً، وهو يجلس مع أصدقائه الأربعة المخلصين الذين لم يصادق غيرهم في حياته التي تعجّ بملذّات الحياة وشهواتها ونجاحاتها إلّا لذّة النّساء اللّواتي كان حظّه منهنّ منقوصاً عكراً خشناً مقطّعاً للرّوح والبدن والحلم والمنجز؛ فالنّساء الثّلاث الحمراوات اللّواتي تزوّج بهنّ في حياته بعد تطوافه في أقاصي عوالم الثّلج لم يهبنه إلّا الألم والخذلان والفقد والرّحيل والكثير من الخسائر الماديّة والرّوحيّة؛ وهنّ يقاسمنه -مرغماً بأحكام قضائيّة مستعجلة- أنصاف ما يملك أو ما يزيد على النّصف أو الثّلثين مرّة تلو الأخرى، دون

أن يهبن له ابناً أو ابنه أو أنيساً في رحلة حياته التي لم يسمعْ فيها فماً رطباً رقيقاً مقدوداً من صلبه وروحه يناجيه بحرارة بكلمة بابا.

لكنّه الآن يملك كلّ ما حلم بأن يملكه خلا النّساء وعشقهنّ المشتهى؛ فعنده الثّروة الماليّة والصّحة والوسامة والرّضا والشّعور بالأمن والسّلام مع النّفس، كما عنده مجده الأدبيّ العريضّ، بعد أن غدا من أشهر كتّاب وطنه الثّلجيّ البارد المرفّه الذي التصق به بإخلاص، وتعلّق به بعد أنْ لفظه وطنه الوحش منذ أن كان قطعة لحم حمراء يتيمة ملفوفة بغطاء قديم قذر، ليدفع به في دروب الضّياع والتّيه فقيراً يتيماً معدماً مضطهداً بعد أن طرده الميتم الذي كان مسجوناً فيه طوال طفولته المبكّرة، إلى أن التقطه أحد أبناء عمومة أبيه الذي يعيش في هذا البلد منذ زمن، بعد أن سمع بقصّته من الأقارب في إحدى زياراته النّادرة لأهله في بلده النّائي عن روحه وذكرياته وأحلامه ومستقبله، فعرف منهم اتّفاقاً أنّه يعيش جوّاباً في الشّوارع كقط أجرب بعد أن فقد والديه اللّذين لقيا حتفهما اختناقاً بالمدفأة النّفطيّة في إحدى اللّيالي الثّلجيّة المتجمّدة، ونجا هو من الموت في تلك اللّيلة المفجعة؛ لأنّه كان ليلتها حبيس سرير في الرّقابة الحثيثة في قسم الأطفال في مستشفى الجيش في بلدتهم العتيقة؛ بسبب نزلة برد شديدة هبطتْ على صدره الغضّ الذي تنفّس أنفاس الحياة منذ أيام قليلة فقط.

بعدها عاش في الميتم الذي تلقّفه على كره عندما زهد الأعمام والعمّات به، ووضعوا أياديهم العادية على ميراثه الهزيل، ورفض الجيران أن يتخذوه ابناً لأحدهم، فانقصفتْ براءة طفولته وفرحة روحه وهو يتعذّب في ذلك الميتم الحكوميّ البائس حيث عاش مشدوداً بلا رحمة إلى وتر القلق والخوف

والحرمان والتّنكيل، وعندما علا صوته مطالباً بالقليل من الرّحمة أصبح هدف المشرفات في الميتم اللّواتي صببن عليه لؤم غضبهنّ دون رحمة.

وفي ليلة باردة مظلمة مثل أرواحهنّ المعتمة دفعن به إلى قارعة الطّريق ليتخلّصن منه، وكي يضمنَّ أنّه لن يعود إلى ميتمهنّ العفن؛ زعمتْ مديرة الميتم العانس ومساعدتها الشّمطاء العاقر أنّه سرق المال من خزانة الميتم، وفرّ خارجه، وبذلك غدا لصّاً في نظر الجميع، وأمسى طريد شرطة الأحداث التي تبحث عنه في كلّ مكان لتزجّ به في سجنها المدفن.

لقد عاش في الشّارع حياة الكلاب والقطط والجرذان والكائنات الظّلاميّة المجهولة، وتشاجر مع هوام البشر والحيوانات لينتزع اللّقمة من المزابل وحاويات القمامة، إلى أن بسم الحظّ له -على كره منه- بعد طول اكفهرار في وجهه، وهبط ابن عمّ أبيه في حياته، كأنّه ملاك كريم قادم من السّماء، فلمّه من الشّوارع، ومدّ له يده الكبيرة الدّافئة المنعّمة السّمينة التي فيها أكثر من خاتم من الذّهب الأبيض المطعّم بالماس، وعرض عليه أن يأخذه معه بعيداً حيث بحيرات الجليد، والسّناجب السّعيدة، والبيوت الخشبيّة الدّافئة، ورحلات الاستكشاف الممتعة، وقطعان غزلان الرّنّة وجماعات الدّببة القطبيّة، ورائحة المواقد الخشبيّة، ورائحة اللافندر، فوافق عندها على الذّهاب معه دون أيّ لحظة تردّد أو ريبة بعد أن قام بحلّ مشكلته مع شرطة الأحداث، وتعهّد بكفالته بدل سجنه على أن يتحمّل المسؤوليّة القانونيّة إن عاد إلى السّرقة من جديد، ودفع الغرامات المترتّبة على اتّهامه بالسّرقة، ودفع للميتم الأموال القليلة التي زعمت مديرته بهتاناً أنّ الصّغير اليتيم قد سرقها منه.

وأخيراً أصبح حرّاً طليقاً بعدما تبّناه ابن عمّ أبيه عن طيب خاطر، ليكون ابناً ثانياً له مع ابنه الوحيد جورج سليم، فكفله، وربّاه، وعلّمه، وأحسن تعليمه، وأمطره بحبّه ورعايته، وأنفق عليه بسخاء ومحبّة إلى أن تخرّج في الجامعة في المستوى الجامعيّ الأوّل بدرجة امتياز مع مرتبة الشّرف، وبعد ذلك بوقت قصير منحه مبلغاً ماليّاً كبيراً ليبدأ حياته به؛ إذ خشي أن يتركه معدماً من جديد، ويتيماً مرّة أخرى بعد أن دبّ الكبر في أوصاله، وهاجمته أمراض الشّيخوخة، وبدأ الموت يرقص حوله رقصته الأزليّة المروّعة.

وقد أحسن الضّحّاك استغلال هذه الهبة الماليّة النّادرة، فرصد جزءاً كبيراً منها لاستيفاء دراسته العليا ليحصّل الدكتوراه في الأدب المقارن والتّراث الشّعبيّ في أرقى جامعات موطنه الثّلجيّ، واشترى بالجزء الثّاني منها بيتاً صغيراً بالقرب من الحيّ الثّقافيّ القديم في المدينة، أمّا الجزء الثّالث والأخير من هذه الهبة، فقد أصدر به روايته الأولى على نفقته الخاصّة بعد أن رفضت الكثير من دور النّشر أن تنشر الرّواية على نفقتها؛ لأنّه كان عندئذ ما يزال روائيّاً شابّاً مبتدئاً لم يسمع أحد باسمه أو بقلمه.

عندما نشر روايته الأولى طار نجمه بها، وغدا روائيّاً شهيراً تتسابق بيوت النّشر الاسكندنافيّة والبلقانيّة والأوروبيّة على النّشر له، فبات روائيّاً شهيراً يكتب بأكثر من لغة من لغات بلاد الصّقيع، إلّا أنّه يهب جهده الأكاديميّ وعظيم وقته واهتمامه وفكره للدّراسات المقارنة بين الآداب الغربيّة المعاصرة والآداب الشّرقية الحديثة والتّراثيّة، وينفق ما يُمطر عليه من كثير المال من مردود أبحاثه وكتبه ورواياته ومحاضراته على السّفر، وعلى استبدال بيت ببيت أكبر مرّة تلو أخرى، ويغذّي مكتبته الشّخصيّة -التي اكترى لها مبنى قديماً عريقاً في الحيّ الثقافيّ الشّهير في قلب اسكندنافية- بنهر لا ينضب

من الكتب والمخطوطات والمصادر والمراجع والمصوّرات والأقـراص المدمجـة والأفلام المصوّرة، لتكون في يوم ما هديته الخالـدة للبشـريّة، وبطاقـة دخولـه إلى عالم الخلود؛ إذ وَقَفَها لتكون بعد موته مكتبة عامّة تديرها الدّولـة لتكـون مقصداً لكلّ ما خطّ قلمه، أو خطّـت أقـلام البشـريّة مـن كتـب وإبـداعات باللّغات جميعها التي صُنّفت المكتبة وفقها، ووصلت يداه إليها؛ فتكـون دائـرة معارف بشريّة كاملة بقدر ما استطاع أن يملـك مـن مـال ينفقـه علـى شـراء الكتب أو استهدائها، ونقلها من أيّ مكان في المعمورة إلى مكتبته الـتي تشـغل المبنى الكبير الذي أطلق عليه اسم "مكتبة الضّحّاك سليم".

لقد تخلّى في هذا البلد عن كلّ شيء كان يربطه بوطنه الـذي سـرق أبويـه منه عندما خنقهما بغدر، وتركه يتيماً وحيداً معوزاً مدفوعاً عن الأبواب بعـد أن سرق أعمامه وعمّاته كامـل إرثـه الصّـغير، وتركـوه يعـضّ علـى الجـوع والعوز والقهر والحرمان واليتم، إلّا أنّـه لم يتخـلّ عـن هـوايتي طهـو الطّعـام الشّرقيّ وجمع الدّفوف والآلات الموسـيقيّة الشّـرقيّة والتّحـف الشّـرقيّة الـتي يعلّقهـا علـى جـدران غرفـة المعيشـة، وفي الرّدّهـات، ويـزّين بهـا الرّفـوف، ويطرح الكثير منها في زوايـا البيـت إلى جانـب النّمـارق المشـغولة بالقصـب الذّهبيّ اللامع، وفوق السّجّاد الشّرقيّ اليدويّ الصّنع، في حين يعلّـق براويـز لوحات الخطّ العربيّ في الجدّران الرّئسيّة من البيت في مقابـل المرايـا الطّوليّـة ليرى الخطّ العربيّ المـبروز مـرّة مـن الـيمين إلى اليسـار، ومـرّة أخـرى يـرى انعكاسه في المرآة من اليسار إلى اليمين.

ومن سقف غرف البيت وردهاته تتدلّى الثّريّـات الكريسـتاليّة البرّاقـة الـتي تنعكس أضواؤها وبريقها على الجدران والأرضيّات، وتتغوّل على حمّالاتهـا النّحاسيّة ذات الحفائر الشّرقيّة القديمة، وتطغى ببريقها المتلألئ عليها، فتمنـع

الرّائي من أن يرى منها سوى نورهـا الفيّـاض الغـامر للوجـوه والأرضـيّات والجدران وفضاءات المكان.

فيبدو بيته -الذي يروق لـبـاربرا ولأصـدقائه جميعـاً ولطلبتـه ولكـلّ مـن يزوره- مزيجاً من الشّرق الـذي يمقتـه والغـرب الـذي هـرب إليـه؛ فـداخل الكـوخ الخشـبيّ الأنيـق الغربـيّ الصّـنع والتّصـميم والبيئـة والتّقسـيمات والتّخطيط والهيئة هنـاك الشّـرق بـروائح بهاراتـه ونمارقـه وآلاتـه الموسـيقيّة وخطوطه وسجاده وتفاصيله الخاصّة الدّقيقـة، مثـل المكحلـة النّحاسـيّة ذات عنق الفراشة المخرّمّة، وعدّة الحلاقة النّحاسيّة ذات فرشـاة الشّـعر الطّبيعـيّ، وعلبة طاولة النّرد، وبعض قطع الأرابيسك.

كما رفض الضّحّاك بإصرار كامل أن يتخلّى عن اسمه الذي اختارتـه لـه تلك الفتاة الحمراء النّاريّة الفاتنة التي تصغره بسنوات قليلـة حيـث قابلـها في ميتم الشّؤم الذي قضـى فيـه معظـم طفولتـه الكسـيرة الكئيبـة؛ فكانـت لـه الأسرة والوطن والفرح إلى أن طُرد منه، فأصبح سجيناً خارجه، وظلّت هـي سجينة داخله، وظلّ عجزه عن تهريبها منـه غصّـة في قلبـه بعـد أن أعطاهـا وعداً مخلصاً بـأن لا يتركهـا، وأن يهرّبهـا مـن سـجنها البغـيض في الميـتم في أقرب وقت.

لقد حاول كثيراً أن يهرّبها من الميتم، لكنّه فشل في ذلك مرّة بعد الأخـرى بعد أن علمتْ مديرته العانس بخطّته تلك، فسـجنتها لشـهور طويلـة في قبـو صغير مظلم في الطّابق الأرضيّ، إلى أن هدّوا عزيمتها ورغبتها في الهرب بعـد أن حلقت شعرها الأحمر الجميل الطّويل عقاباً لها على محاولتها للـهرب مـن المكان، وتراجع هو عن محاولاته المضنية لتهريبها من هنـاك عنـدما أدرك كـم

الشّارع ضيّق ومخيف على الرّغم من اتّساعه الظّاهريّ؛ فأشفق عليها من أن ينهشها النّاهشون الذين يعيشون في عتمته.

لا يعرف ما هو اسمها الحقيقيّ الذي وهبه الأهل المجهولون لها عندما وُلدت لهم، ولعلّهم لعجلتهم في التّخلّص منها لم يهبوها أيّ اسم كان؛ فقد كانت لقيطة مجهولة النّسب والتّاريخ والأهل، وحمرتها اللّذيذة الحارّة، وعيناها الخضراوان الحشائشيتان تزيدانها غربة ويتماً ووحدة؛ فهي تبدو هجينة آسرة بين أخلاط عرقيّة متعدّدة الجمال والجاذبيّة والأصول، أمّا رائحتها العبقة التي تشبه رائحة زهور البنفسج المزروعة في أصص شرفة مديرة الميتم، فهي رائحة لا بشر في الكون يملك رائحة عبقة مثلها، وهي تزيدها غربة عن المكان المزكوم برائحة العفن والصّديد والرّطوبة.

المشرفات في الميتم قد نسين أن يعطينها اسماً بعد أن اعتدن على أن يصرخن عليها باسم الحمراء الملعونة؛ بسبب غيرتهنّ الدّفينة من حماسها المهول للكلام والحركة والضّحك،ومن جمالها الأحمر الجميل الذي ينثال عليها من شعرها الأحمر الطّويل النّاعم ونقاء حمرة بشرتها، وسحر خضرة عينيها، وظللن يلقّبنها بهذا اللّقب حتى بعد أن اختار لها اسم بهاء الذي استعاره من اسم بطلة من أبطال أفلام الرّسوم الكرتونيّة المتحرّكة؛ إذ راق له هذا الاسم؛ لأنّ هذه البطلة الكرتونيّة كانت قويّة وشجاعة ونبيلة، وتنتصر للضّعفاء، وتنتقم من المجرمين، وترفض الاستسلام لأيّ عدوّ أو شرير يريد أن ينال منها، وذات شعر أحمر جميل فتّان، ولم ينتبه عندها أنّ اسم بهاء الذي اختاره له يناسب جمالها وبريقها وجاذبيتها؛ لأنّه يومئ صراحة إلى صفاتها الشّكليّة والرّوحيّة.

وكم كانت حبيبته الصّغيرة تفرح عندما يغنّي لها أغنية المسلسل الكرتـوّني "بهاء البهاء سيّدة النّساء"، فتشدو معه بصوتها الورديّ النّاعم الجرس والعبـق، فتشيع حمرتها الشّهية في وجهها، وتزيدها سحراً فوق سحر.

لقد احتاج سنيناً طويلة من الـتّعلّم والحيـاة في اسـكندنافية حتـى ينتبـه إلى هذه العلاقة القدريّة بين الاسم الذي اختاره لها وبين شدّة ملائمته لهـا؛ فهـي بهاء يغمر روحه وروح كل مَنْ يعرفها بدهشـة الإعجـاب بجمالهـا وبصـوتها المبحوح العميق الرّنين وابتسامتها العريضة اللّغز التي تبتلع أحـزان الـدّنيا في جرعة واحدة من جرعات قهقهاتها المعهـودة الـتي تحتـال بهـا علـى الـدّموع والانتحاب والانكسار عندما يغلبها الفقد أو الحزن أو الهزيمة، عندها تهـرب إلى ضحكاتها البحريّة التي تغرق أيّ حزن في سحيق لججهـا، وتذييـه بعظـيم تفاؤلها الأسطوريّ وقدرتها العجيبة على الكـذب والتّحايـل وادعـاء الفـرح والنّجاح والانتصار والرّضا، فتهزّ الحياة فيه، وتدعوه ليغنّي لهـا علـى الـرّغم من أوجاعهما ونكد حياتهما، بدل أن تبكي، وهي من تكـره البكـاء، وتـراه انتصاراً أخيراً على روحها المهزومة المحزونة.

ليس هناك إنسيّ في كونها الميتم قد وصل إلى أعماقها السّحيقة الحزينة إلّا هو؛ فقد كان كائنها الأثـير الـذي تتكـوّم علـى أرض الميـتم بـالقرب منـه في الظّـلام البـارد، وتنتحـب طـويلاً في حضـنه، وهـي تخبّـأ رأسـها في صـدره المعرورق الفتيّ المتواري بخجل خلف قميص مهترئ كابٍ، وتبكي طويلاً من آلام حزنها ووحدتها ويتمها وحيرتهـا في الحيـاة وقسـوة مـن حولهـا عليهـا، وتأكل حصتّه الهزيلة من الطّعام بعد أن يقسم عليها أن تفعـل ذلـك ليقتـات جسدها النّحيل ويقوى بها، ويظلّ يروى لها قصصه التي ينسجها من أحلامه وأحلامها بحياة جميلة هانئة دافئة حنون في مكان حنون في أقصى الدّنيا حيـث

لا ميتم ولا يتم ولا ألم ولا جوع ولا أسماء مجهولة ضائعة في الماضي؛ لقد كانا يحلمان دون توقّف بمكان محرّم عليهما اسمه بيت، وبتكوين أسرة سعيدة فيها عشرات الأبناء والبنات.

في لحظات احتضانه لها كانت تشعر بأنّ فيه دفء أمّ رؤوم، لا دفء صبيّ يتيم منكود، وعندما كان يصمّم على رعايتها وحمايتها، وإطعامها نصيبه من طعامه، وتدثيرها بغطاء نومه الوحيد، كانت تشعر بأنّ روحاً أنثى حنونة تسكن في جنبات أعماقه، وتجيد لعب أدوار الأمومة إلى حدّ الإتقان، إلى حدّ أنّها تفضّل أمومته لها على أمومة تلك المرأة القاسية التي أنجبتها ذات صدّفة، ثم تخلّتْ عنها، ونسيتْ أنّها قد أنجبتها.

كان يعدها بأنّه سوف يهرّبها من هذا الميتم في يوم ما، وأنّهما سيعيشان معاً حياة سعيدة في بيت حقيقيّ فيه حبّ وحنان ودفء وفرح وأسرة، ويتنّعمان بملذّات الحياة كلّها، ويمارسان هواياتهم المحرّمة عليهم من رقص وغناء ورسم وفرح واحتفالات وتذوّق الطّعام اللّذيذ واحتساء طيب المشروبات وارتداء أجمل اللّباس والرّياش والزّينة، وفي يوم ما سيكتبان معاً رواية حول حبّهما الجميل، وعندما يموتان سترتقي روحهما إلى السّماء ليصبحا نجمتين خالدتين فيها، فيضيئان الدّروب للعشّاق واليتامى حتى يدركوا أرض الهناء والنّعيم والرّاحة الأبديّة.

لقد كان أغلب مَنْ في الميتم من مشرفات وموظّفات وأيتام ويتيمات يناصبون بهاء العداء المرّ الموجع؛ لأنّها كانت الأشهى بينهم، وذات البريق السّحريّ في المظهر والصّوت والكلمة، وصاحبة الرّائحة البنفسج العبقة؛ فأطلقت عليها مشرفات الميتم لقب "الحمراء الملعونة" نكاية بجمالها، وتمسّكت يتيمات الميتم وأيتامه بهذا اللّقب كي ينتقموا منها كلّما أدهشتهم بقدرتها

على حفظ قصيدة أو نـصّ أو حـوار جميـل سمعتـه في التّلفـاز، أو لقنتـه لهـا صباح معلّمة اللّغة العربيّة التي تجود عليها ببعض بالوقت والاهتمـام انبهـاراً بمواهبها البلاغيّة، فتأجّج باهتمامها بهـا المزيـد مـن نـيران الغـيرة والحقـد في قلوب أيتام الميتم، فينتقمون من بهاء الحمـراء بالتّجاهـل والاحتقـار والنّبـذ، وتلقيبها دون انقطاع بلقب "الحمراء الملعونة".

لقد اسـتطاع أن يجـبر ن أطفـال الميـتم علـى أن ينادوهـا باسمهـا الجديـد القشيب الفخور بهاء، بعد أن فـرض علـيهم ذلـك بقـوّة عضـلاته المتحفّـزة للدّفاع عنها أمام أيّ جور يهاجمها، ولو أضـطره ذلـك إلى لكـم أحـدهم، أو ضرب آخر، أو تكسير أسنان ثالث، لكنّه لم يستطع أن يجـبر مشـرفات الميـتم على مناداتها باسمها الجديد الذي وهبه لها، وظللـن ينادينهـا باسـم "الحمـراء الملعونة" نكاية به وبها وبجمالها المغيظ لهنّ.

أمّا هو فقد كان يصمّم على أن يناديها باسمها الذي أنعم عليها به، وهـو اسم بهاء، ويزيّن هذا الاسم بلقب الفاتنة بهاء، وهـو لقـب اسـتعاره كـذلك من ذات المسلسل الكرتونيّ المتحرّك الذي استعار لهـا منـه اسـم بهـاء، فغـدا اسمها عنده هو بهاء الحمراء الفاتنة، وغدا اسمه عندها هو الضّـحّاك سـليم بدل اسمه الذي كان لا يروق لها.

ومع الوقت نسي ماذا كان اسمه المحفوظ في شهادة مـيلاده العتيقـة القابعـة في سجلّات الميتم حيث تركها واسمه الحزين وتاريخ مـيلاده الموجـع عنـدما طُرد منه، واكتفى بالاحتفاظ باسمه الجديد الضّحّاك الـذي اختارتـه بهـاء لـه ليكون اسمه القدريّ الذي يضفي الفرح والابتسامة عليه؛ لأنّهـا صـنعته لـه من فعل المبالغة في الضّحك؛ وهو مَنْ كان يفـيض عليهـا بـالفرح والابتسـام والحبور، ويفجّر في روحها الضّحك الحقيقيّ غير المزوّرّ عنـدما يضـمّها إليـه

بجسده الذي يفوق جسدها قوّة وضخامة وصلابة، فيسندّ كتفها إلى كتفه، ويمسّد على شعرها الأحمر الفاتن، ويطلب منها أن تقرأ عليه بعضاً من محفوظها الشّعريّ أو النّثريّ الذي يتدفّق منها بمجرّد أن يداعب روحها التّواقة إلى الكلمة بقوّة فطريّة غريبة.

لقد أصبح اسمه في الميتم الضّحّاك سليم نسبة إلى اسم جدّه الأكبر الذي حملت أسرته اسمه افتخاراً به؛ إذ كان "آغا" في زمان حكم الأتراك لبلدته، وكان سيداً متنفّذاً ثريّاً، وقد أورث أبناءه وبناته ثروة عريضّة توافروا على إفنائها وإتلافها، فتقلّصت كثيراً، لكنّها لم تفنَ تماماً، وآل آخرها القليل إلى أيدي أعمامه الثّلاث وعماته السّبعة الذين حرموه من نصيبه من إرث والده الذي قضى نحبه في ريعان شبابه، وتخلّصوا منه بأن ألقوا به في الميتم حيث محرقة الأطفال.

عندما طرده الميتم إلى الشّارع كان أعزلَ ومعدماً إلّا من اسمه هذا، وعندما تبنّاه عمّه الحنون الرّحيم سجّل اسمه في وثيقة تبنّيه له باسم الضّحّاك سليم بناء على تصميمه على التّمسّك بهذا الاسم، وتسجيله به في الأوراق الثّبوتيّة الجديدة التي حصل عليها في بلد الثّلج، وعندما نجح واشتهر، وطُبع اسمه على أغلفة كتبه ورواياته صمّم على أن يُكتب اسم الضّحّاك سليم عليها بخطّ عريض واضح؛ ليذكّره اسم سليم باسم جدّه لأبيه وبروح أمّه، أمّا اسم الضّحّاك فهو يذكّره ببهاء الحمراء الفاتنة التي لم تسعد روحه يوماً إلّا في القرب منها، ولم يعرف معنى الفقد إلّا عندما حُرم منها، وبقيت سجينة وحيدة في الميتم، في حين جاب هو دروب الفقر واليتم والوحدة والعوز والاعتقال والتّعذيب في مدن قاسية لا مكان فيها ولا

نصيب ليتم ضعيف وحيد، ثم قـاده حظّـه إلى البعيـد الثّلجـيّ حيـث الفـرح والسّعادة والعدالة والأمن.

لقد حاول أكثر من مرّة أن يتسـلّل إلى الميـتم كـي يخطـف بهـاء مـن ذلـك المكـان الكئيـب الكـابي الألـوان والأرواح، لكنّـه فشـل في ذلـك المـرّة تلـو الأخـرى، وعنـدما أصـبح قـادراً علـى تحقيقـه بمسـاعدة رفاقـه مـن مجرمـي الشّوارع تراجع عن هذه الفكرة؛ لأنّه ربا بــها علـى عـذابات الشّـارع، ومـا يحدث فيه من ابتذال وافتراس واقتتال، فآثر أن تظـلّ سـجينة الميـتم علـى أن تغدو فريسة من فرائس الوحوش في الشّوارع المغتالة لكلّ نبيل أو جميل.

لقد حاول أن يقنع عمّه بأن يتبنّاها هي الأخـرى عنـدما قـرّر أن يتبنّـاه، وأن يصحبها معهما إلى بلاد الصّقيع الدّافئ، لكن عمّه رفض ذلـك بإصـرار عجيب، واكتفى بالحصول على ابن واحد جديد، على الرّغم من أنّ زوجتـه ذات الأصول الإغريقيّة النّبيلة رغبت بشدّة في أن تحصل لها على ابنة متبّنـاة، لكنّ عمّه رفض ذلك بإصرار موجع لقلبه، وبذلك حرمه من أثيرته النّورانيّة بهاء الحمراء الفاتنة.

لعقود خمسة انقطع قسراً عن التّواصـل مـع بهـاء، وإن كانـت مقيمـة في روحه ونبضه لا ترحل عنه أو تغيـب، وظـلّ يبحـث عـن حمرتهـا الحـارّة في وجوه حمراوات أوروبا واسكندنافية والبلقان وسيبيريا، لكنّ لا واحدة مـنهنّ كانت تملك ما تحوزه بهاء من فتنة وحرارة واحتراق، إلّا أنّه تزوّج ثلاثـة مـن النّساء الحمراوات الأوربيّات لعلّه يجد بهاء في إحداهنّ، لكنّه لم يجـدها فـيهنّ أو في غيرهنّ مـن الحمـراوات اللّـواتي أدمـن علـى التّفـرّس في وجـوههنّ، والتّلصّص عليهنّ، وشمّ روائحهـنّ لعلّهـا تكـون برائحـة زهـرة البنفسـج ، وسرعان ما رحلن عنه، ورحل عنهنّ، وظلّ في انتظار عودة حمرائه إليه، بعـد

أن فقد الأمل في أن يجدها في زياراته الكثيرة إلى بلدته القديمة في وطنه العتيق.

لقد بحث عنها هناك دون جدوى عندما زار الوطن المتوحّش الذي لفظه مرّة تلو الأخرى بجسد رجل وذاكرة حزن طفل يتيم مدفوع عن الأبواب والأرواح، لكنّه لم يجدها؛ لأنّه لم يكن يعرف لها هويّة أو أسرة أو أقارب أو أصدقاء، ولم يملك أيّ صورة لوجهها النّاريّ.

هو لم يكن يملك من هويتها إلّا ما ارتسم في ذاكرته من صورة حمرتها الحارقة، وعينيها الخضراوين بقدر حشائش الدّنيا، وشعرها النّاريّ الخيليّ الطّويل، ورائحتها البنفسج التي أدرك في بلاد الصّقيع أنّها أقرب ما تكون إلى رائحة خشب الصّندل الذي شمّ رائحته لأوّل مرّة في متجر للعطارة الاستوائيّة في قلب المدينة.

لقد ضاعت منه لأكثر من نصف قرن، لكنّها لم تفارق مخيلته أبداً، وظلّ في أوقاته الخاصّة المسروقة يبحث عن اسمها في شبكات التّواصل الإلكترونيّة، ويفتّش عنها في صفوف الأدباء والمبدعين؛ فلا بدّ أنّها قد أصبحت الآن كاتبة شهيرة ساطعة النّجم كما كانت تحلم دائماً بأن تكون؛ فهي وُلدت لأجل الكلمة، وكانت تملك عنانها، وتشدّها إلى روحها وشفتيها، كأنّها تقبّلها، لا تنطق بها فقط، أو تكتبها في أوراقها الهزيلة القليلة الممنوحة لها من الميتم على شحّ شديد.

لا بدّ أنّها قد اتخذت دربها القدريّ في دنيا الكلمة؛ فلا بدّ للخيل الأصيلة أن تعود إلى أهلها مهما نأت الدّروب بها، وأبعدتها عن حقيقتها، وهي خيل أصيل قانيّ اللّون والسّحر مخلوق من الكلمات ولأجلها، ولا بدّ أنّها قد

عادت إلى الصّهيل والخيلاء في أرض الكلمات، لعلّها الآن قد أصبحت روائيّة شهيرة تتبوّأ مكاناً رفيعاً في هذه الدّنيا الشّاسعة الدّروب والمسافات.

كان يفسّر عدم قدرته على إيجادها بأنّها قد غيّرت اسمها الذي وهبه لها؛ لذلك كان لا يتوقّف عن تخمين الاسم الذي اتّخذته لنفسها، ولا يملّ من متابعة أيّ سطر تكتبه أيّ امرأة بلغته الأم، أو بأيّ لغة أخرى لعلّه يجدها، ويتفرّس في صور الحمراوات أنّى وجدها لعلّه يجد صورة حمرائه الفاتنة بين تلك الصّور، لكنّه لم يجدها أبداً، وظلّ مشدوداً إلى الانتظار الموصول الحارق الذي لا تنطفئ جذوته في روحه.

لقد بحث عنها في كلّ مكان دون كلل أو تعب، وظلّ مؤمناً بأنّه سوف يجدها في يوم ما؛ لذلك ظلّ يدفع اسمه الضّحّاك سليم إلى المزيد من الشّهرة والسّطوع حتى أصبح اسمه أشهر من نار على علم، وأشدّ سطوعاً من هالة نورانيّة ملتهبة تحيط بكوكب شاحب في ليلة قاتمة السّواد؛ وكلّ ذلك لأجل أن تدرك بهاء اسمه في مكان ما، فتعرف الدّرب إليه، فتطير نحوه.

وعندما كان يصمّم على أن يضع صورته على الغلاف الخلفيّ لكتبه أو رواياته، فما كان يقصد من ذلك إلّا أن تتعرّف عليه إنْ رأت صورة من صوره في مكان ما؛ فملامحه لم تتغيّر كثيراً، فما زال يملك وجهه الطّفوليّ الكسيف على الرّغم من شعره الأشيب الفضيّ الأجعد المنسدل حتى نصف ظهره ولحيته البيضاء التي تحاصر ذقنه بذكورة مثيرة، فتزيده سحراً وجاذبيّة وإيغالاً في الصّمت والحيرة والإلغاز.

لكنّه كان يحرص على أن يضع نظارته الطّبيّة الأنيقة على عينيه كلّما التقط صورة لأجل نشرها على أغلفة كتبه كي يخفي تحتها عينه المصابة التي تحمل تذكاراً جبريّاً من وطنه المخلوع المتوحّش؛ فهو لا يريد أن ترى بهاء

إصابته هذه، وتسأله عن سببها، وهو لا يريد أن يسترجع الوجع الـذي قتلـه في الشّرق، ودفنه هناك قبل أن يغادره.

هو معنيّ بـها دون غيرها من البشر عندما يصمّم علـى أن يضـع عناوينـه الأرضية والبريديّة وأرقام هواتفـه بـأكثر مـن لغـة في الصّـفحة الأخـيرة مـن منشوراته كي تستطيع أن تتواصل معـه بسـهولة بمجـرّد أن يقـع مؤلّـف مـن مؤلّفاته بين يديها.

لكن ذلك كلّه لم يحدث، وهي لم تتواصل معه أبداً طوال أكثر من نصـف قرن من اللّهفة والتّوجّع، وهو ما يـزال في انتظارهـا الـورديّ بعـد أن أعيتـه الدّروب في الوصول إليها، وفي انتظار أن يكتب معها روايتهما الخالـدة؛ لقـد اتّفقا وهما طفلان منكـودان مجـرّدان مـن كـلّ جميـل حاشـا الحلـم وحبّهمـا الطّاهر المخلص على أن يكتبا رواية مشتركة حـول حياتهمـا الحلـم الجميلـة التي سوف يعيشانها سويّاً بفرح عندما يكبران، وأن يغادرا الميـتم دون رجعـة إليه، وقرّرا عندها أن تكون روايتهما عن السّعادة والفـرح وعشـقهما الخالـد الذي لا يندثر؛ فقد كان هو أيضاً يحبّ الكلمة، ويتعشّقها، ويـردّد علـى كـلّ من يتحدّث معه مقاطع نثريّة جميلة يحفظها عـن ظهـر قلـب ممّـا يحفظـه مـن مقاطع منقولة عن ألسنة الممثّلين والممثّلات الـذين يتـابعهم عـبر التّلفـاز، أو الكتّاب الذين يقرأ في كتبهم؛ فقد كان عاشقاً للكلمة بقدر عشقه لـبهاء الـتي يخال أنّها تعشق الكلمة أكثر من عشقها له.

وهاهو قد قابل الفرح مرّة تلو أخرى في حياته الهادئـة المسـتقرّة في عـوالم الصّقيع الحنون على روحه، وذاق النّجاح تترى، وعرف السّـعادة حتـى ولـو كانت منقوصة، فأين هي الآن لتعـيش السّـعادة الكاملـة معـه، وليكتبـا معـاً روايتهما الأجمل؟ إنّها متخفّية في دنيا الصّمت والمجهول والبعيد، وهـو لـيس

متأكداً من شيء إلّا أنّه سيلتقي بها في يوم ما، فيعيشان أجمل قصّة حبّ، و يكتبان معاً رواية عشقهما الذي عاش في خافقيهما لأكثر من نصف قرن.

وفي انتظار أن يجدها هو يعمل بجدّ كي يستكمل النّجاح والمجد والثّراء لاستقبالها، ليكون رجلاً كامل الاستعداد والشّوق والعشق لاستقبال امرأة واحدة حمراء فاتنة ذات رائحة مثيرة، وذات صوت مبحوح ساحر، وابتسامة ملغزة، وقهقهة رقراقة تتّسع لفرح الدّنيا كلّه.

النّسيان الثّاني

الحمراء الفاتنة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"العاجزون يتوقّعون أن يلتقوا مرّة أخرى في حياة قادمة"
"كم يخذلنا الحلم!"
"كاد العمر ينتهي، سريعاً قد حدث ذلك"
"أجمل حبّ هو الذي لم نعشه بعد"
"الحبّ لا يموت إلّا بسكتة قلبيّة مداهمة"
"الحبّ فوق كلّ شيء، لكن تحته الكثير من الأشياء الشّريرة"
"ليس هناك علاج للحبّ سوى المزيد منه"

تخيّل الضّحّاك أيّ شيء سوى أن يلتقي ببهاء في ذلك المنتجع العلاجيّ الطّبيعيّ في ذلك الحصن التّاريخيّ القديم في هذه الغابة الاسكندنافيّة النّائيّة حيث قصص الجنّيات والحوريّات والأميرات الهاربات والسّاحرات المتحوّلات تحاصر المكان، وحيث يستقبله تمثال جرانيتيّ عملاق لامرأة فاتنة عارية الجسد إلّا من قطعة قماش شفاف تواري بها زهرتي ثدييها ومنبع أنوثتها الدّفاقة.

تأمّل طويلاً تلك المرأة التّمثال البهيّة الجرانيتيّة النّاعمة الملمس؛ فقد كانت فاتنة مثل بهاء، وكانت تملك نظرة عميقة مثل نظراتها، وتتلوّى مثلها بخجل لتخفي قلبها خلف قبضتي يديها عندما يعتريها ألم أو قلق أو خوف أو حزن، وتنتصب بمهابة فخورة بجسدها الجميل البهيّ.

وتساءل عندها هل هذه المرأة التّمثال حمراء الشّعر والبشرة مثل حبيبته الفاتنة بهاء؟ وهل تملك صوتاً مبحوحاً برنين أنثويّ ساحر يشبه صوت حبيبته الحمراء؟ وهل لها رائحة مثيرة مدوّخة؟

في ساعة وصوله إلى المنتجع العلاجيّ الطّبيعيّ، أعطى حقيبة سفره لفتى الحقائب الذي جاء راكضاً تحت المطر ليستقبل الزّبائن الجدد الذين أقلّتهم سيارة أجرة إلى هذا المكان المتخفّي في غابة ثلجيّة عملاقة، وتوانى في سيره عامداً كي يدلف أصدقاؤه المرافقون له إلى البهو، في حين اقترب من المرأة التّمثال التي انجذب إليه فور وقوع بصره عليه، وشرع يشدّ جذعه نحو الأعلى ليصل إلى رقبتها ورأسها، وهي من تفوقه طولاً وجمال وقفة وهي منتصبة بشموخ دائم فوق قاعدة رخاميّة تعلوها طحالب الغابة الخضراء، فوصل إلى أذنها اليمنى بفضل وقوفه القلق على أطراف أصابع قدميه المندسّة في حذاء جلديّ أنيق، وهمس في أذنها قائلاً: هل تعرفين أين هي حبيبتي بهاء؟

كرّر السّؤال عليها أكثر من مرّة، وسكبه في أذنها اليمنى بتضرّع مهزوم، وعندما لم يسمع منها بنت شفه، تحوّل بناظريه إلى عينيها، وهو يحدّق فيهما، وسألها من جديد: هل تعرفين أين هي حبيبتي بهاء؟ لكنّها لم تجبه عن سؤاله، وظلّت غارقة في صمتها الصّخريّ الأبديّ، إلّا أنّه رأى ابتسامة ترتسم في عينيها، وكاد يراها تغمز له بعد أن أومأتْ له بحركة من رأسها تجاه مقعد خشبيّ قبالتها إلى يمين السّاحة حيث تنتصب أشجار بريّة وارفة الأوراق عظيمة تشابك الغصون.

نظر إلى المكان الذي أومأتْ إليه، فما رأى فيه سوى مقعد خشبيّ قديم منخور تقرعه زخات المطر قرعاً أجشّاً، ولا أثر لوجود حبيبته بهاء في

القريب، فأدرك عندئذ أنّه بدأ يهذي، وأنّ الإجهاد قد بلغ منه منتاه، وأنّ الفودكا قد بدأتْ تتلاعب بما يرى ويسمع. وهروباً من وضعه هذا طبع قبلة سريعة على الوجنة الباردة للمرأة التّمثال، وخلع عليها رداءه الشّتويّ الجوخ، وقال لها: عليكِ أن تتدفئي في هذا البرد القارص، وتركها ميمّماً بترنّح نحو بهو المنتجع قبل أن يسقط في أرض السّاحة تحت المطر.

في الصّباح عندما رأى بهاء تجلس على المقعد الخشبيّ قبالة المرأة التّمثال حيث الأشجار البريّة العملاقة، وعلى يمناها تجلس تلكم الممرّضة الشّقراء الشّابة البهيّة أدرك أنّه لم يكن البارحة في حالة سكر، وأن لا إعياء قد تلاعب به، وأنّ المرأة التّمثال كانت تبتسم له بحقّ، وقد صدقته أيّما صدق عندما أخبرته أنّ حبيبته موجودة في المكان، وأنّها تجلس في هذا المقعد الخشبيّ العتيق.

لم يكذّب عينيه، ولم تشلّه صدمة اللّقاء القدريّ المداهم له، والخارج عن توقعاته جميعها، بل حثّ الخُطى نحوها، وطبع -في طريقه إليها- قبلة أخرى على الخدّ الأيسر للمرأة التّمثال التي لمح على وجهها ابتسامة صخريّة ظاهرة، وكاد يرى في مقلتيها دمعتين مترقرقتين.

داس على معطفه الشّتويّ الذي سقط أرضاً بعد أن انزلق عن كتفي المرأة التّمثال، وغاص في بركة أمواه المطر ودبق مدر السّاحة، ووقف قبالة بهاء والممرّضة الشّقراء مشدوهاً فاغراً فاه، يكاد قلبه يقفز من صدره من شدّة قرعه المجنون المتوثّب.

تأمّل وجه بهاء بفرح من وجد نبع ماء بارد رقراق بعد سعي طويل مضنٍ خلف سراب صحراويّ مضنٍ، لقد كانت تملك الاحمرار الشّهيّ ذاته في بشرتها وشعرها، وخضرة عينيها قد ازدادت عمقاً وحزناً وإلغازاً، وشعرها

الأحمر المخلّط بالشّعر الأشيب قد انحسر حتى شحمة أذنيها في تسريحة عصريّة مثيرة تبدي نقاء بشرة رقبتها، وصفاء جلدها من أيّ كدر، لكن جسدها فقد الكثير من جموحه ونشاطه وهي جالسة دون حراك في مقعدها الخشبيّ، ومسندة ظهرها بانكسار إلى مسنده الخشبيّ، وهائمة في صمت مخيّم يعلوه تعب بادٍ، وإلى جانبها مقعد معدنيّ متحرّك.

لا شيء فيها قد تغيّر سوى أنّها غدت طفلة في بداية السّتين من عمرها، وتلبس فستاناً أسود نبيل الأناقة، لا يشبه ثوبها الطّفوليّ المهترئ الأزرق الذي اعتاد على أن يراها تلبسه في أيام طفولتهما في الميتم.

لكنّ جسدها لم يعد مكتنزاً بالإثارة كما كان، إنما غدا جسداً نحيلاً إلى حدّ ما تصوّر بهاء يمكن أن تكون عليه في يوم ما، وهو مَنْ اعتاد على أن يراها في طفولتها -على الرّغم من جوعها في الميتم- تبزّ أترابها من الفتيات بصدرها الأنثويّ البارز قبل أوانه، وردفيها المدوّرين بثورة طاغية يثيران لغطاً، لتنحاز إلى امتلاء جسديّ مثير دفعها مبكراً إلى دنيا الأنوثة النّاضجة التي تصرخ بملء فيها: أنا هنا.

زوجان من العيون كانا يرمقانه في ذات اللّحظة بدهشة بادية ؛ الزّوج الأوّل من العيون كان زوجاً أزرق اللّون باذخ الجمال والاستغراب والشّباب، أمّا الزّوج الثّاني من العيون، فكان زوج عيون أخضر حشائشيّ يعرفه تماماً، ويميزه تماماً بعد أكثر من خمسين عاماً من الفراق، ويكاد ينطق باسمه. إنّهما عينا بهاء.

الآن يشعر أنّه قد انتصر على الحياة؛ لأنّه يصبّ نظرات عينيه الحائرتين لنصف قرن ونيف في غابات عينيها حيث يرى قبائل من العاشقين البدائيين الذين أوقدوا نيران المعابد استقبالاً له، ينحني على جسدها الصّغير، ويقلعه

سريعاً من مكانه في وسط خوف شديد من الممرّضة التي لا تدري حقيقة ما يحدث، وما عليها أن تفعل حيال هذا المداهم لخلوتهما.

يأخذ بهاء إلى حضنه، فينام رأسها على صدره دون مقاومة منها أو وجل، في حين تتأرجح قدماها في الهواء بعيداً عن الأرض حيث تقف رجلاه بقوة مهيبة، ويداهم دفء جسدها الحارّ جسده البارد، ويلفح صدره دفء أنفاسها المضطربة التي تتعالى على صوت وجيب قلبه، وهي تقول بصوت خفيض مشحون بالدّموع والشّهيق: إنّه أنتَ. إنّكَ الضّحّاك سليم، لقد عرفتكَ. لا يمكن أن أنساكَ، إنّه أنتَ. أنا أعشقكَ.نعم، إنّه أنتَ.

يجيبها وصوته يخذله بلؤم، وهو يغرق في هدير نحيبه، في حين تتسمّر الممرّضة الشّقراء في مكانها لا تجد كلمة تقولها، وهي لا تصدّق أنّ بهاء تتذكّر شخصاً ما، في حين تصبّ السّماء -على حين غرّة- دفعة عملاقة من الثّلج الأبيض النّقي، وهي تسمع الغابة تردّد صوتاً واحداً يقول بفرح أنثويّ عملاق: إنّه أنتَ. إنّكِ الضّحّاك سليم. لا يمكن أن أنساكَ. أنا أعشقكَ. نعم، إنّه أنتَ.

في حين تتّسع ابتسامة المرأة التّمثال، وتسمح لدموعها أن تنزلق –دون تحفّظ- من عينيها الصّخريتين دون أن تواري مشاعرها خلف جلمودهما البارد الزّلق الأملس.

*****

الآن فقط أدرك أنّه قد جاء إلى هذا المكان بتدبير إلهيّ التفتْ بعطف وافر إلى دعاء قلبه المكلوم بعد طول تضرّع واستجداء موصول، وها هو الآن في هذا المكان يجلس معها في ليلة شتويّة باردة حاصرها إعصار ثلجيّ عنيف،

فعزل المنتجع الحجريّ العتيق عن الدّنيا كلّها، وحبسه فيه مع النّزلاء من المرضى والمرافقين لهم والمستجمّين وطواقم العلاج والخدمة والإيواء.

هي الآن تتكوّم إلى جانبه على تلك السّجادة الفاخرة القديمة بالقرب من المدفأة التي تستعر بهسيس الأخشاب المحترقة على مهل على بلاط المدفئة الحجريّ، وهي تلقي برأسها على صدره بهناءة وراحة وأمن كما كانتْ تفعل ذلك قبل أكثر من خمسين عاماً عندما كانت تهرب إليه من قسوة الدّنيا، فتغمض عينيها، وتنام على صدره، وهما يفترشان بلاط الميتم البارد القذر.

كعادتها تتنفس بعمق، وتنفث دفء أنفاسها على قميصه الحريريّ الفاخر المطعّم بأزرار مذّهبة، وتطوّقه بذراعيها، كأنّها تخشى أن تفقده من جديد، أو أن تكتشف أنّها تعيش حلماً سرعان ما ينقلب إلى كابوس مرعب ينهش روحها، عندما تستيقظ فلا تجده أمامها، فتكتشف أنّها ما تزال وحيدة مبعدة عنه، وعالقة في عالم متوحّش لا تنتمي إليه إلّا بمقدار ما تملك من القسوة والقدرة على النّهش والتّصارع وتمزيق جلود الخصوم.

لقد كان حرمانها من الضّحّاك هو كابوسها المرضيّ الذي رافقها طوال حياتها، ولم يسمح لها بأن تهنأ بضجعة أو نوم ترى حبيبها فيه يبتعد عنها.

يشعر بوجيب صدرها الملتصق بصدره، ويتدفّأ بحرارة جسدها الأحمر، ويشمّ رائحة الأنوثة الأزليّة في شعر رأسها الذي ينعم أنفه بالاندساس في غاباته، وغاية ما يتمنّى في الحياة يقينه بأنّها تعرفه، وتتذكّره على الرّغم من أنّ ذاكرتها التي قد خانتها، وغادرتها، ولم تعد تسعفها إلّا بالقليل من التّذكّر.

هو سعيد بأنّه قد التقى بها أخيراً بعد أن انتهت رحلته الأسطوريّة في البحث عنها، لقد أصبح الآن جلجامش الذي طوّف العوالم جميعها، وتحدّى

الرّبات والأقدار في سبيل الوصول إلى عشبة الخلود، وها هو خلوده بين يديه الآن؛ إنّها بهاء، وهو لا يريد أكثر من هذا، وإن كان يعلم أنّه على الرّغم من رحلته الأسطوريّة المعذّبة، وعلى الرّغم من ظفره بطِلْبَته بعد طول بحث، إلّا أنّ الأقدار قد انتصرتْ عليه بشكل هزليّ خبيث؛ فهو ليس أكثر من محروم محكوم عليه بالتّعاسة؛ فحبيبته التي حازها أخيراً قد سلبتها الأقدار ذاكرتها وصحتها؛ لقد أصابها سرطان في ثدييها ورحمها، وأكل رحمها كاملاً، وعندما انتصرتْ عليه، وطردته من ثدييها الأسطوريين بعد رحلة علاج طويلة، تسلّل إلى دماغها، وسكن فيه، وشرع يلتهمه.

إنّه نوع نادر وشرس من سرطان الدّماغ؛ فقد أنهك جسدها وميزانيتها وحياتها بجلسات العلاج وأنواع الدّواء، وعندما اغتاظ من صبرها ولا مبالاتها بتباريحه وسرقاته اللّئيمة من جسدها، انقلب على ذاكرتها، وبات ينهش منها كيفما اتّفق، ليشفي غليله منها مرّة تلو الأخرى، وهو يمزّقها أفكاراً وتفاصيل وحروفاً، ويتركها في شعث من الذّكريات المضطربة التي تدفعها في تيه عملاق لا تعرف درباً للمنجاة منه.

إنّها الآن مجرّد امرأة بركام من الأفكار والذّكريات التي لا ناظم لها، أو جامع أو قاسم مشترك، هي ليست إلا كومة من امرأة شقيّة تائهة في ذاكرتها دون خريطة أو هادٍ أو مرشد أو علامات دالّة، إنّها تسير في ذاكرتها في ضياع كامل.

لقد باتتْ لا تعرف نفسها إلّا قليلاً، أمّا هو فيعرف أنّها بهاء الحمراء الفاتنة التي ما تزال ربّة للجمال والفتنة حتى وهي في السّتين من عمرها.

لقد أصابها سرطان الدّماغ منذ سنوات طويلة معذّبة، فسلبها في البداية سيطرتها على أطرافها، وقدرتها على التّحكّم بها، ثم لعثم نطقها، وبعد

ذلك انقضّ بتوحّش على ذاكرتها، فباتْ ينهش منها بـنهمّ دون شـبع، لقـد أكل معظمها، ولم يبق منها إلّا فتاتاً لا يكفي لأن يذكّرها بنفسها أو بحاضـرها أو بمن تعرف، هي الآَن ضائعة تماماً في الحيـاة، وفي المرحلـة المقبلـة مـن هـذا المرض سوف تفقد ذاكرتها بشكل كامل، عندها ستنطفئ إلى الأبد، فلا تعـود تقوى على تخزين أيّ شيء فيها، وبذلك تغدو دون شيء اسمه ذاكـرة، إنّمـا هي مجرّد امرأة عالقة في لحظتها المعاشة دون مـاضٍ أو مسـتقبل، وبعـد ذلـك سوف يستفحل المـرض، فيقضـي علـى أطرافهـا بشـكل كامـل، ثـم يفصـل جسدها عن دماغها كي يشـلّ أطرافهـا الأربعـة، إلى أن يخنقهـا حتـى المـوت عندما يربض على صدرها الباذخ الحنان والرّقة والإثارة.

الباقي من عمرها قليل جدّاً، ربمـا هـو بضـعة أسـابيع أو شـهر أو حفنـة أشهر لا أكثر، إنّها تعيش النّهاية. هذا ما أخـبره الأطبّـاء المعـالجون بـه، كمـا أخبروها به سابقاً في مراحل مرضها الأولى والمتوسّطة، أمّـا الآن فمـا عـادوا يخبرونها بأيّ شيء؛ لأنّها ما عادت تتذكّر أيّ شـيء إنْ أخبرهـا أحـد بـه، أو كلّمها في شأنه.

المفاجأة الكبرى للأطبـاء المعـالجين لهـا في المنتجـع الصّـحيّ كانـت عنـدما علموا أنّ بهاء قد تذكّرت الضّحّاك سـليم، وعرفتـه بعـد غيـاب لأكثـر مـن نصف قرن، وتفاعلتْ مع وجوده، وقبلتْ به، وأقبلتْ عليه، ونطقت اسمه.

لقد علّل الأطبّاء ذلك بأنّها تذكّرته بفعل وجوده في جزء لم يندثر بعـد مـن ذاكرتها، أمّا هو فقد جزم بأنّها تذكّرته، وعرفته؛ لأنّه يعيش في جزء لا يموت من الذّاكرة، وهو ذاكرة القلب؛ فما دام قلبها يقرع بالحياة، فهي قـادرة علـى تذكّر الرّجل الذي تعشقه، حتى وإنْ نسيتْ من تكون.

جلّ ما يؤلمه أنّها لن تستطيع الآن أن تدرك مقدار ما حقّق من نجاح لأجلها، ولن تستطيع أن تستمتع معه بتفاصيل نجاحه، ولن تستطيع أن تروي عطشه لسماع تفاصيل حياتها منذ فارقها حتى التقى بها، ولن تروي له بطريقتها العذبة الانفعاليّة سرديّات حياتها وتجربتها، وفي ذات الوقت لن تسأله بفضولها الكبير عن حياته وسيرته، وما فعل الدّهر به، ولن يتلذّذ بصوتها المبحوح الغنج، وهي تروي له تفاصيل أنوثتها التي لم يعشها معها، بعد أن انفصل عنها وهما ما يزالان في أوّل الدّرب نحو سنّ الصّبا.

إنّه في اشتياق أزليّ إلى سماع كلامها المنفعل، وهي تصدح به بصوتها الأنثويّ المبحوح؛ فيغدو ترنيمة أنوثة تبعث الفتنة في أذني كلّ من يسمعها، لقد خُلق صوتها كي يفتن الرّجال، ويذكّرهم بجنّات الخلد، كما كان يفتنه، ويفتن الفتيان في الميتم وهي في بداية درب أنوثتها.

لكنّه الآن لن يستطيع أن ينعم بسماع حديثها المتوثّب مثل غواية قبلة لا ترتوي الشّفتان منها، وعليه أن يكتفي بنعمة أنّها معه، وأنّه في قلبها، وأنّه انتصر على لؤم الحياة بلقائه بها، وأنّه سيعود بها إلى بيته حيث حجرتها تنتظرها منذ عقود، كلّ شيء هناك ينتظرها، وهي الآن ستكون ملكته المتوّجة على القادم من حياته، سيتكلّم عنها وعنه، وسيتذكّر عنه وعنها، وسيعيش بها ولها.

لا حاجة عنده الآن إلى المزيد من التّجوال والسّفر والبحث الموصول والنّجاحات واللّقاءات والنّاس وجموع الزّملاء والمعارف والطّلبة والمعجبين والقرّاء والإعلاميين والفضوليين. الآن سوف يعيش لها فقط، ويتفرّغ لرعايتها.

ويكفيه ثروة في الحياة أن تنظر في عينيه بملء عينيها، وتبتسم له بابتسامتها المديدة التي لم يستطع مرض السّرطان أن يسرقها، وتهمس له بيقين وفرح النّجاة: أنتَ الضّحّاك سليم. أنا أعرفكَ. أنا أعشقكَ.

لقد قرّر أن يعود بها إلى وطنه الحقيقيّ، ولا وطن له في الوجود سوى بيته الذي اشتراه وأثّثه وجهّزه للقائها، هناك سوف يعيشان بسعادة حتى يرحلا عن هذا العالم الكئيب.

لقد طلب من صديقتها هدى أن ترافقهما إلى بيتهما الوطن في مدينته الاسكندنافيّة، لكنّها رفضتْ ذلك؛ لأنّ لها حياتها الخاصّة التي تنتظرها في مدينتها حيث ينتظرها زوجها وأولادها وحفدتها، وعليها أن تعود إليهم. وهو لم يلحّ عليها أكثر في هذا الشّأن؛ لأنّه لا يرغب في أن يكون له شريك في خلوته الأسطوريّة مع حبيبته العائدة بعد دهر من الغياب.

لقد دفعتْ إليه آخر ما كانتْ بهاء تملك من الحياة، وهي مخطوطة عملاقة مكتوبة بخطّ يدها، وعلبة مخمليّة تحوي خاتمي زواج ذهبيين، ودفتر عناوين كبير قديم كحليّ الغلاف، ومفتاح شقتها في مدينتها حيث كانت تسكن، وهاتف اتّصالها النّقّال، وملفها الطّبيّ في ثلاثة أجزاء كبيرة، ووثيقة تأمينها الصّحيّ ووثيقة جواز سفرها، وألبوم صور قديم، وعلبة ورقيّة ملوّنة تضمّ عدداً عملاقاً من النّجوم الورقيّة اللّامعة الملوّنة المصنوعة بطريقة فنّية متقنة، وبلورة موسيقيّة زجاجيّة تحوي تمثال امرأة ورجل يعانق أحدهما الآخر تحت ندف الثّلج المتساقط.

كلّ ذلك بدا له إرثاً ضئيلاً قزماً لامرأة حمراء فاتنة عملاقة مثل بهاء؛ لذلك لم يعره كبير اهتمام، إنّما قرّر أن يهب ليلته كاملة لهدى ليعرف منها كلّ ما تعرفه عن جميلته الحمراء ، وهي من أخبرته أنّها رفيقة عمرها، وأنّها

تعرّف عنّها كلّ صغيرة مهملة أو كبيرة مدركة؛ فقد تعرّفت عليها منذ كانتا في الميتم، وقد استمرّت صداقتهما بعد أن خرجتا منه.

هو لا يذكر هدى لأنّها جاءت إلى الميتم بعد أن طُرد منه، لكنّها تعرف تفاصيل العشق الطّفوليّ الضّارب في أعماق قلبه وقلب بهاء التي حدّثتها طويلاً عن فارسها السّماويّ الضّحّاك.

لقد قطع ليلته يسمع قصّة بهاء المدفونة في صدر هدى، لقد سألها عن كلّ ما يجول في خاطره من أسئلة حول حياة حمرائه الفاتنة ذات رائحة الصّندل، وكانت الإجابات طويلة وشافية في معظم الأحيان، ومختزلة وحارقة في أحيان أخرى، لكن المعلومة التي كانت تساوي عنده قناطير مقنطرة من الذّهب، أو الدّنيا بما فيها، أنّ جميلته الحمراء أحبّته طوال حياتها، وأنّها بحثتْ عنه في كلّ رجل قابلته في دربها المُعنّى، وأنّها عاشتْ على حلم أبديّ واحد، وهو أن تلتقي به، وأن تعيش معه، وأن يكتبا معاً رواية مفترضة لسيرة عشقهما وسعادتهما، وأن ينسيا الماضي كلّه ليعيشا شيئاً واحداً، وهو حبّهما الأسطوريّ الذي لا يموت، أمّا أيّ شيء قد حدث معها خلاف هذه الحقيقة الكبرى المشتهاة، فهو مجرّد حادث عرضيّ في حياتها لا قيمة له.

لقد سمع قصة حياة بهاء التي روتها هدى حتى مات اللّيل، وجاء الصّباح معلناً عن أمر واحد يعنيه، وهو أنّه قد أزف الوقت كي يرحل بحمرائه إلى بيته الوطن.

حزم حقائبه وحبّه وأشواقه على عجل، وقرّر أن يسير باتّجاه بيته مع بهاء وحقيبتها الوحيدة التي تحوي ملابسها القليلة وأشياءها جميعها التي أخذها من هدى.

في طريق العودة لم يكن هناك في الدّرب الثّلجيّ البارد الزّلق سـوى منثـور الثّلج وسيّارة أجرة يقودهـا سـائق يصغي باهتمـام إلى موسـيقى كلاسـيكيّة تنبعث من مذياع السّيارة الـتي يقودهـا، وامـرأة عاشـقة ذاهلـة تغفـو بسـلام ورضا على صدر عشيقها، ورجل عاشـق يشـعر بالنّصـر والظّفـر والرّاحـة، وهو يضمّ امرأتـه الحمـراء الفاتنـة إلى صـدره الـذي يخفـق باسمهـا، ويشـمّ رائحتها الصّندل، بعد أن مزّق الورقـة الـتي تحـوي رقـم هـاتف بيـت هـدى ورقم هاتفها النّقّال كي لا يعـاود الاتّصـال بهـا، ويقطـع أيّ علاقـة محتملـة معها؛ فهو يبغي أن يستأثر بــبهاء لنفسـه دون أيّ شـريك أيّـاً كـان، ضـارباً عرض الحائط برغبة هدى في التّواصل معه لأجل الاطمئنان علـى حبيبـت ، أو لأجل تزويده بأيّ معلومة عنها؛ فقد عرف عنها ما يكفيه مـن المعلومـات المفجعة، ويفيض عن حاجته لسنين ضوئيّة ؛ فكلّ ما حدث معها في حياتهـا، أو حدث معه في حياته لا قيمة له إن لم يكن حدثاً يجمع أحدهما بـالآخر، أو يقرّب المسافة بينهما.

المعلومة الوحيدة المهمّة في حياتهما الآن هي أنّ أحدهما يعشق الآخر علـى الرّغم من سنين الفراق الفلكيّة.

النّسيان الثّالث

بيت على النّهر

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"أراه في كلّ شيء جميل"
"من قال إنّ الأحلام لا تغدو حقيقة ذات فرح؟"
"عندما يتكلّم من أحبّ يغدو العالم طيّباً وحنوناً ورحيماً"
"ما أشدّ فقر مَنْ لا يملك قلبه حفنة حبّ"
"البعض يعذّبون أنفسهم باسم الحكمة"
"الأفعال جميعها في عُرف الحبّ تغدو مقدّسة حتى الثّرثرة"
"هو رجل مختلف؛ فقلبه يتّسع للدّنيا، وفيه بحار وجبال وسهول"

وطنه الحقيقيّ هو بيته الخشبيّ المجاور للنّهر، لقد اشتراه في أجمل منطقة ثقافيّة في الحيّ الثقافيّ القديم من المدينة، هو يطلّ على النّهر، ويراقب القادمين والمغادرين دون ملل أو كلل أو شكوى أو تذمّر، ونوافذه الشّرقية مشرعة على درب القوارب التي تعجّ بالعشّاق الذين يزورن هذه المدينة في الصّيف ليعشوا تفاصيل الهوى بعيداً عن تفاصيل الحياة الماديّة.

أمّا نوافذه الغربيّة فمشرعة على الشّارع القديم المرصوف بالبلاط الجرانيتيّ، حيث يمكن مراقبة زوّار السّوق التّقليديّ القديم وبائعات الزّهور والقلائد الخرزيّة والتّحف المقلّدة الجميلة، وأمامه تماماً على الرّصيف المقابل هناك بوابة مكتبته الوَقْف "مكتبة الضّحّاك سليم" التي أنشأها منذ سنين للقرّاء والباحثين عن المعرفة والحقيقة حيث يقدّمها لهم في مكان دافئ مرتّب نظيف فيه خدمة (الانترنت) المتاحة للجميع، إلى جانب وجود طاولة استقبال يوميّة دائمة تعجّ بالفطائر والعصائر والقهوة والشّاي والماء العذب استضافة لكلّ من زارها.

لا بدّ أنّ بهاء كانت تحلم دائماً بأن تعيش معه في بيت خشبيّ أنيق باذخ الجمال يطلّ على النّهر؛ فلطالما تمنّى ذلك منذ أن وصل إلى هذه المدينة، وهي توأم روحه بالتمّني والاشتهاء والرّغبات، إلّا أنّ الوقت لم يمهلهما لتخبره بأمنياتها جميعاً التي كانت تُختزل عندهما في الماضي السّحيق في الحصول على بيت خاصّ بهما، وفي تكوين أسرتهما المستقبليّة.

لقد دخلت بهاء إلى بيته محمولة بيديه القويتين متعلّقة برقبته كما يُدخل الفرسان والأمراء معشوقاتهم إلى غرفهم وقصورهم ومخادعهم، لكنّه لم يحملها تدليلاً لها كما كان يتمنّى، ويرى في أحلام يقظته ومنامه، بل لأنّها عاجزة عن السّير، وحبيسة مقعد معدنيّ متحرّك.

إلّا أنّها كانت سعيدة بحمله لها، وتطيل النّظر في عينيه بفرح، وتجيل نظراتها في المكان بنظرات العارف الدّاري الذي أدرك المدرك ألف مرّة، وتبتسم كلّما طرق عينيها بريق قطع كريستال الثّريّات التي تغزو أسقف البيت في أجزائه جميعها ابتداء من الثّريّا الصّغيرة المعلّقة في سقف الممرّ الذي يصل الباب الخارجيّ إلى غرفة المعيشة، مروراً بالثّريا الكبرى في البيت المعلقّة في غرفة المعيشة حيث البيانو، انتهاء بثريّات غرف النّوم وغرفة المكتب والرّدهات الدّاخليّة في البيت.

وظلّ يسأل نفسه هل تراها تعرف هذا المكان؟ وهل زارته روحها من قبل؟ وكان يجيب على سؤاله بالإيجاب؛ فلطالما شمّ رائحتها في بيته، وشعر بروحها تشحن المكان بدفء وفرح وتفاؤل ونشاط؛ لذلك اعتاد على أن يسمّي اليوم الجميل في حياته باسم يوم بهاء، والطّقس الجميل بطقس بهاء، ويصف كلّ شيء جميل بأنّه بهاء.

لقد كان الجدول الذي أعدّه لوصولهما إلى البيت واضحاً جدّاً؛ فبعد أن حمّم بهاء على عجل وهو يغمض عينيه كي لا يهتك ستر جسدها، وألبسها بعضاً من ملابس نومه القطنيّة الدّافئة، ومشّط لها شعرها الأحمر القصير النّاعم مثل زبد البحر، وقدّم لها طعام العشاء، طفق على عجل وإصرار ينفّذ خطّته؛ فأفرغ حقيبتها ممّا فيها؛ فعلّق ثيابها القليلة في خزانة غرفتها، ووضع مخطوطتها العملاقة على مكتبه ليقرأ ما فيها، ووضع العلبة المخمليّة ذات خاتمي الزّواج في جيبه بعد أن فتحها، فقرأ على أحد الخاتمين اسمه محفوراً على إطاره الدّاخليّ، في حين قرأ اسم بهاء محفوراً على الإطار الدّاخليّ للخاتم الآخر.

أمّا علبة النّجوم الورقيّة اللّامعة الملوّنة، فقد وضعها في أحد أدراج مكتبه، ثم أدار مفتاح بلورة الموسيقى الزّجاجيّة ليسمع موسيقى البلورة، وليرى ندف الثّلج تتساقط على العاشقين المتحاضنين.

إنّه يدرك لماذا أحضرت بهاء هذه البلّورة معها؛ لا بدّ أنّها تعشقها؛ فلطالما حدّثته بهاء في طفولتهما عن رغبتها الجامحة في الحصول على بلورة مشابهة، بعدما رأت واحدة مثلها في خزانة إحدى اليتيمات في الميتم.

تأمّل الضّحّاك مفتاح شقّة بهاء، وفكّر في أن يفتح جهاز اتّصالها النّقال ليقرأ الرّسائل المرسلة إليها، ثم تراجع سريعاً عن هذه الفكرة، وألقى بالمفتاح والهاتف النّقال في سلّة المهملات الموجودة إلى يسار مكتبه الوثير الذي جلس على مقعده المنجّد الفاخر بعد وقوف طويل، وتناول دفتر العناوين الكبير ذا الغلاف الكحليّ، فتصفّح الأسماء والعناوين المدوّنة فيه دون فضول أو اهتمام أو تدقيق، ثم أغلقه بعصبيّة، وطفق يمزّقه، ويمزّق الملفّ الطّبّيّ لبهاء ذا الأجزاء الثّلاث، ووثيقة تأمينها الصّحيّ ووثيقة جواز

سفرها، وألبوم صورها القديم الذي لم يفتحه، ثم أشعل مدفأة غرفة المكتب، وأخذ يحرق الأوراق التي مزّقها بتشفٍ وارتياح، إلى أن استسلم للنّوم على الأريكة بعد يوم متعب مفرح، وأمامه في المدفأة رماد الأوراق التي حرقها ليعدم أيّ طريق عودة أو رحيل محتمل لبهاء.

*****

في الصّباح الباكر عندما فتحت بهاء عينيها على أوّل نهار لها في بيتها النّهريّ الوطن كانت ابتسامة الضّحّاك سليم في انتظارها، وهو يحمل صينيّة مفضّضة تعجّ بصحاف تحمل فطوراً متنوّعاً.

اتّسعت ابتسامة بهاء، لكنّها لم تصل إلى عرض ابتسامة الضّحّاك الذي أخرج من جيبه العلبة المخمليّة، ففتحها بتأثّر ويداه ترتجفان بانفعال غامر، ثم أمسك كفّ يدها اليسرى، ودسّ أحد الخاتمين في الأصبع البنصر، ثم دسّ الخاتم الآخر في بنصر يسراه، وضمّ بنصره إلى بنصرها، وقرّبهما إلى فمه، وقبّلهما قبلة عميقة، وهو يشدّ على الخاتمين بأشدّ قوّة يملكها، كأنّه يخشى من أن يفترق الأصبعان من جديد.

في ذلك اليوم كان يشعر بأنّه إله أسطوريّ خرافيّ هزم الآلهة جميعها، وانتزع منها أجمل ربّة من ربّات الوجود والخلود؛ لذلك سهل عليه أن يتصرّف بعقليّة المنتصر الذي لا يبالي بأيّ ثمن أو خسارة ما دام قد ظفر بمن يحبّ؛ لذلك سارع إلى الجامعة التي يدرّس فيها، وقدّم لإدارتها طلباً مستعجلاً للحصول على إجازة مفتوحة دون راتب، دون أن يلوي على احتجاج أو استغراب من مرؤوسيه أو زملائه أو طلبته الذين فجعوا بقراره هذا، وعاد إلى حبيبته بهاء التي تركها في رعاية سكرتيرته الخاصّة باربرا، لا

همّ عنده سوى أن يعيش مع حمرائه الفاتنة لحظاته القادمة لحظة تلو أخرى، وأن يكتب معها روايتهما الحلم التي حلما بكتابتها منذ دهور من الفراق.

وضع الضّحّاك بلورة الموسيقى الزّجاجيّة على الطّاولة الملاصقة لسرير بهاء، وأدار مفتاح الموسيقى، فافترّتْ بهاء عن ابتسامة غارقة في وجهها البدريّ الأحمر، وتمايل رأسها بحذر على أنغام الموسيقى، وأطبقت جفنيها على إغفاءة إنصات عميق، كأنّها تطير بعيداً في عالم الأحلام.

لكن سرعان ما فتحتْ عينيها من جديد على اتسّاعهما المتعب عندما توقّفت الموسيقى، وطلبت من الضّحّاك بحروف متقطّعة متعبة أن يعيد تعبئة بلورة الموسيقى عبر إدارة مفتاحها عدّة مرّات لتستمتع مرّة أخرى بسماع العزيف الجميل وبمراقبة تحاضن العاشقين تحت الثّلج الذي يغمرهما ببياض رقيق حنون، ففعل الضّحّاك ذلك، وشرع يترنّم بكلمات أغنية مشرقيّة تراثيّة كان يغنّيها لها في الماضي الضّارب في أعماق ذاكرته.

قرّب الضّحّاك العلبة الورقيّة الملوّنة من بهاء، ووضعها في حضنها، وفتحها، وقرأ على غلافها اسم لين بدران التي عرف من هدى أنّها فنّانة من صديقات بهاء، وأنّها تملك مشروعاً خاصّاً بها لتسويق مصنوعات ورق "الأوريغامي" الذي تعشقه، وتعلّقتْ بصنعه منذ تعلّقت بذلك الشّاب الوسيم حمزة الذي طارتْ إلى حضنه زوجة له، بعد أن صنعت له قلباً ورقيّاً على شكل قلب من "الأوريغامي"، وهمستْ له: أحبّكَ. في منتصف أعماق قلبي أنتَ هناك، وفي متاهات عينيكَ أعشق ضياعي.

لقد صنعتْ لبهاء علبة مليئة منها على شكل نجوم ملوّنة برّاقة، وكتبت على الورق الدّاخليّ لكلّ نجمة من تلك النّجوم جملة واحدة من الجمل التي أعدّتها بهاء لغرض ما.

يخمّن أنّ بهاء أعدّت هذه النّجوم من أجله، وهذا يفسّر له سبب حملها لهذه النّجوم الأوراق في رحلة علاجها؛ فلابدّ أنّها كانت الأغلى على نفسها؛ لأنّها كانت سوف تهديها لي عندما تلتقي بي ذات صدفة.

يمسك حفنة من النّجوم الملوّنة، ويضعها في كفّ يمين بهاء، ويعدّ النّجوم، فيجدها سبعة، ويضغط على منتصفها الواحدة تلو الأخرى، فتنحلّ، وهي المطبّقة على بعضها دون صمغ أو مادّة لاصقة، بل بخاصيّة الضّغط والشّد ضمن هندسة تناظر وتجاور.

يفتح الضّحّاك النّجوم الواحدة تلو الأخرى، ويقرأ ما فيها لبهاء بحبّه المنهمر على روحها:

"ملعون من يعيش الحياة بأيّ ثمن"

"لا تقبلْ بغير المحبّة والفرح والعدالة، وإلّا ستحصل على نقيضها"

"الطّفلة التي تستعمرني هي حقيقتي الكبرى"

"ما أعظم التّغريد خارج السّرب إن كان السّرب يعجّ بالغربان!"

"البشر يحبّون مَنْ يحبّ منجزاتهم"

"لا معنى لإنكار الذّات أو تزييفها أو خنقها"

"كم تخوننا الأشياء عندما نخون أنفسنا!"

*****

ابتسم الضّحّاك لبهاء، وأحكم تطويق الوشاح الصّوفيّ على رقبتها كي لا يتسلّل الهواء البارد إلى جسدها، وهي تجلس في مقعدها الوثير بعد إن أوصلها إليه محمولة على ذراعيه، كانت تبدو سعيدة جدّاً ومتحمّسة لأن يقرأ لها ما هو مكتوب في بضعة نجوم من نجوم "الأوريغامي".

وضع في فمها بضع لقيمات من الحلوى الشّرقيّة التي أعدّها لها بنفسه بطريقته الخاصّة في صنع الحلوى الشّرقيّة، ثم حفن حفنة من نجوم الملوّنة من علبتها الورقيّة كيفما اتّفق، وفتحها واحدة تلو الأخرى، وقرأ فيها:

"لا أستطيع أن أتذكّر أين خبّأت النّسيان"

"ما ليس علينا أن ننساه هو ما لا يجب علينا أن نتذكّره"

"الحياة تستحقّنا عندما نعيشها وفق أهوائنا"

"ما أشدّ حمق الذي يبيع حياته ليشتري بثمنها حياة غيره!

نذر نفسه لغيره. هذا هو الكلام المنقوش على شاهد قبر رجل أحمق"

"الحبّ وحده مَنْ يعطينا سبباً للحياة"

"عشقي لكَ هو حقيقتي الكونيّة العظمى"

"أعرفني أكثر عندما أعشقكَ بعمق"

"ممارسة الحبّ هي ممارسة الوجود"

"فردوسي هو عشقكَ لي"

"النّفس العاشقة قادرة على الاتّساع بحجم الكون"

*****

لقد قرّر الضّحّاك أن يعيش المقبل من حياته لثلاثة أشياء لا رابع لها؛ وهي أن يقوم على رعاية امرأته الحمراء الفاتنة ذات رائحة الصّندل، وأن يشرع في كتابة الرّواية المشتركة التي حلم بأن يكتبها معها لتكون روايتهما المشتركة، فطالما هي لا تستطيع الكتابة، هو من سيقوم بكتابة روايتهما باسمه ونيابة عنها، وسوف ينشر هذه الرّواية في أقرب فرصة ممكنة، وهي تحمل اسمها واسمه؛ لينقشا اسميهما في جدار الخلود، بعد أن يقرأ البشر أجمعون مرّة تلو الأخرى ما كتبا في روايتهما عن خالد عشقهما الذي قلّما تجود الحياة بمثله على الإنسانيّة الفانية.

أمّا الهدف المقدّس الثّالث الذي سيعيش لأجله، فهو أن يقرأ لحبيبته ما كتبتْ في مخطوطتها التي كانت تعدّها لتكون مسوّدة لرواية ما، لعلّ ذلك ينشطّ ذاكرتها، ولا يسمح لها بأن تموت تماماً؛ فقد أخبره الأطبّاء المعالجون لها بأنّ الإصرار على القراءة لها، والتّكلّم معها، والحديث معها قد يساهم في انتشالها من الانزلاق المستمرّ في النّسيان، ويساعد في تجميده عند المستوى الذي وصل إليه دون الضّياع والتّيه الكامل في النّسيان المطلق.

هو مصمّم على أن ينشّط ذاكرتها بما كتبتْ؛ فذلك يعيش في ذاكرتها؛ إذ إنّه قد خرج منها أساساً، ولعلّ تذكيرها به سوف ينشّطها، ويمنعها من الإعتام الكامل، وتفريغ ما بقي فيها لصالح الفراغ.

المخطوطة التي كتبتها بهاء عملاقة مقارنة بمخطوطة أيّ رواية مفترضة، وعندما فتح الصّفحة الأولى منها تفاجأ بأنّها قد كتبتْ عليها بخط يدها: مذكّرات تصلح لأن تكون مسوّدة رواية ما.

إذن هي لم تكن تكتب رواية خالصة الخيال، بل كتبتْ مذكراتها التي رغبتْ في أن تطوّرها بشكل ما لتكون رواية في المقبل من عمرها، لكن المرض حرمها من هذا الأمر.

هي لم تكن تضع مسودّة لروايتهما المشتركة الحلم، إنّما كانت تكتب روايتها الخاصّة عن حياتها التي عرف أنّها لم تكن سعيدة بأيّ حال من الأحوال وفق مفاهيمها للسّعادة.

فهل كانت تريد أن تكتب رواية سيريّة عن حياتها التّعسة؟ أم أرادتْ أن تكتب رواية تستفيد من تجربتها الحياتيّة في كتابتها؟

الضّحّاك لم يكن متأكّداً من حقيقة رغبة بهاء في هذا الأمر، لكن الشّيء المؤكّد له أنّ هذه المخطوطة هي من أهمّ الملكيّات في حياتها؛ لذلك احتفظتْ بها على الرّغم من نسيانها لوجودها.

إذن عليه أن يقرأها عليها؛ لعلّها تكون محرّضاً لها على التّذكّر، ومحاربة طغيان النّسيان الذي أَدْرَكَهَا في وقت هي أمسّ الحاجة فيه إلى التّذكّر، وهو وقت العشق ولقاء حبيبها الضّحّاك.

ابتسم ابتسامة عميقة قبل أن يفتح الصّفحة الأولى من المخطوطة كمن يأخذ نفساً عميقاً ليملأ صدره بالهواء النّقي قبل أن يقفز في محيط عملاق لا يعرف إلى أيّ التّيارات سوف يلقي به، ونظر في عيني بهاء ليستمدّ من خضرتهما قوّة دافعة له للاكتشاف في عوالم كلماتها، وشرع يقرأ ما كتبتْ في الصّفحة الأولى من المخطوطة، فوجد أنّها لم تضع أيّ تفصيل أو مخطّط أو فِهْرستْ مقترح للرّواية كما هي عادة الرّوائيين عندما يشرعون في وضع مخطط رواية ما، إنّما اكتفتْ بكتابة عناوين لبعض الصّفحات، وأهملتْ فعل ذلك في صفحات أخرى.

في الصّفحة الأولى من روايتها السيّرة كتبت فيها بخطّ أنثويّ رفيع غير جميل، لكنّه مرتّب ومنتظم وواضح: لا أعرف لي اسماً بعد أن اختفى الضّحّاك من حياتي، لكنّني أعرف أنّ اسمي حتى يعود سيكون العاشقة، وسأظلّ أبحث عن الضّحّاك في الرّجال حتى أجده.

النّسيان الرّابع

المرض

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الجنون هو منطق هذا العالم المخبول"
"الحبّ هو الجنون الوحيد المعقول في الدّنيا"
"أن نعشق يعني أنّنا انتصرنا على الوحدة"
"ليس هناك حقائق في هذا الكون، هناك فقط حبّ أو تعاسة"
"لم يعلمونا الحبّ؛ لأنّهم موتى منذ دهور"
"لماذا كلّما خطرتَ في بالي تضوّعتْ روحي بالعطر؟"
"قبلتكَ مَنْ تستطيع فتح بوابة روحي"

كتبت العاشقة: اليوم قرّرتُ أن أكتب مذكراتي لتكون رواية اعتراف للضّحّاك الذي عليه أن يعرف الحقيقة الكاملة عنّي، وعن ضياعي في دروب الدّنيا قبل أن أنسى الدّروب والطّريق والمعالم ؛ لقد كانت رحلة العمر دونه مضنية ومذلّة وخاسرة بالمقاييس جميعها، إلى حدّ أنّني ضيّعت حقّي في أن أحلم بأن أسير في دربه؛ لأنّني ضيّعتني إلى حدّ الفقد الكامل، وما أظنّ أنّه سيعرفني الآن لو رآني، ربما ملامحي تذكّره بي، أمّا إنْ لمس روحي بنظراته، أو شمّ رائحة جسدي المزكوم بعفن الرّجال والرّذيلة، فسوف يدرك أنّ بهاءه -كما كان يسميني- قد تصدّعتْ، وتلاشت.

ليس المرض الذي فتك بي هو ما يدفعني الآن إلى الكتابة له، بل هي رغبتي في أن أتطهّر من النّجس الذي علق بي في رحلتي المضنية في حلبة الصّراع الشّرس غير المتكافئ بين امرأة وحيدة معدمة وبين حياة متوحّشة متنمّرة.

هم يسمون هذه الحلبة الدّامية الحياة، وأنّا أسميها العذاب، كما يسمون الكتابة موهبة وترفاً وأدوات للمبدعين والمتطهّرين، وأنا اسميها طريقة

اعتراف واحتجاج على الحياة وظلمها وتضييعها لنا نحن معشر الضّعفاء والمنكوبين والمنكودين.

لا أخشى من مرض السّرطان أو من الموت، لكنّني أخشى تماماً من أن يلتهم المرض ذاكرتي، فلا أعود أتذكّر كائني الأسطوريّ الطّاهر الذي أسميته الضّحّاك ذات ليلة حزينة باكية، وأنا متعلّقة بصدره في غابر طفولتيّ ونقائي.

على الرّغم من ذلك أستطيع أن أزعم أنّني سعيدة تماماً؛ لأنّ هذا المرض عندما يلتهم ذاكرتي سوف يقضي على كلّ ما فيها من ألم وتوجّع وتمزّق وتهافت، وأخيراً سوف يدركني مدرك، وينقذني منقذ، إنّه النّسيان من سوف يدركني، وينقذني من ذاكرتي المشحونة بالألم، وأنا من كنتُ أحلم أيّها الضّحّاك بأنّ تدركني، وأن تنقذني من أحزاني وضياعي وأوهامي، لكنّ المرض قد سبقكَ إليّ، وقرّر أن يستأثر بي استئثاراً كاملاً.

لستُ حزينة لأنّني مريضة بالسّرطان؛ فأنا امرأة تحتاج أن يدركها النّسيان كي تنسى آلامها وأحزانها. الآن أشعر أنّ هذا المرض هو أكرم من قابلتُ في حياتي؛ فهو وحده من سيخلعني من التّذكّر، ويخلع التّذكّر مني.

آن لي أن أرتاح، وأن يدركني النّسيان كي أسعد بالباقي القليل من حياتي. ولكَ أيّها المرض أن تعرفني عندما جهلتُ نفسي، وأن تؤمن بي عندما كفرتُ بي، وأن تتذكّر منّي، ما لم أعد قادرة على تذكّره.

أيّها المرض الخبيث لا تحزن، ولا تنقهر من كلامي هذا؛ فلستُ متكبّرة عليكَ، أو متسامية على بطشكَ، أو كارهة لنزولكَ بي، ولا أقول لكَ هذا الكلام نكاية بكَ؛ فأنا أشهد بأنّكَ فتّاك شرس لا ترحم، لكنّني شاكرة لكَ؛ لأنّكَ ستكون أوّل من يرفق بي، ويريحني من ذاكرة عبء على روحي؛ فهي

لا تنفكّ تعذّبني بي، وأنتَ تلحّ عليّ كي تخلّصني منها. ألستَ بذلك أرحم من قابلتُ وعرفتُ؟

متى سوف تهجم على ذاكرتي من جديد؟ وتمزق منها ذلك العنوان الذي حصلتُ عليه أخيراً بعد بحث لأكثر من خمسين عاماً من الانتظار والتّأمّل والسّؤال الموصول عن أثير قد نأى عن الجغرافيا، ولم يهجر التّاريخ؟ أريد أن أنسى أنّني أعرف الدّرب إلى الضّحّاك، أريد أن أنسى أمنيتي في الهرب إليه، أريد أن أنسى وجع إدراكي لحقيقة أنّه سوف يلفظني بمجرّد أن يعرف سيرة حياتي المدنّسة.

بالصّدفة المحضة عرفتُ الدّرب إلى الضّحّاك عندما رأيتُ روايته الأخيرة بين يدي أحد أصدقائي الكتّاب النّاشرين، وهو ينوي أن يترجمها إلى اللّغة العربيّة، لقد كتبها بلغة الصّقيع حيث يعيش، وصورته الملوّنة على غلافها الخلفيّ مَنْ قادتني إليه.

إنّه هو، لم يتغيّر أبداً إلّا بمقدار الجري المتعب في الحياة لنحو خمسين عاماً كسته بغابة من الشّعر الأبيض الذي يلتف حول رأسه، وينزلق حتى أعلى كتفيه، بعد أن يطوّق ذقنه، فيخفي تلك الحفرة الطّبيعيّة الجميلة في وسطه، وهي مَنْ تهبه وسامة خاصّة عندما تتّسع لحظة ابتسامته لتزيد من اتّساع فمه، وتبتلع ارتجافات قهقهاته.

لم يغيّر اسمه، فما يزال يحمل اسم الضّحّاك الذي يكتبه على غلاف الرّواية بخطّ بهيّ واضح، في حين يكتب اسمه باللاتينيّة على الغلاف الخلفيّ من الرّواية، فيتحوّل اسم الضّحاك إلى الدّهّاك وفق ما يُلفظ اسمه عند غير العرب.

لقد غدا روائيّاً شهيراً، يعرفه الجميع في عوالم الصّقيع والحرارة والتّصحّر والجفاف كذلك، في حين أنا غائرة في الضّياع والصّمت والحزن والوحدة والتّلوّث حدّ التّجيّف.

لم أجرؤ يومها على أن آخذ رواية الضّحّاك من يدي صديقي الكاتب، ولم أسمح لنفسي بأن أدنّس صورته بملمس أناملي التي تشتهي أن تتحسّس ملامحه الورقيّة التي تكاد تنطق، ولم أسأله عن ترجمة عنوان الرّواية، وما يعني باللّغة العربيّة، لكنّني عرفتُ من صديقي أنّه روائيّ شهير من أصول مشرقيّة، وعندما رأى صمتي الذّاهل فسّره على أنّه اهتمام بما يقول، واستغراق في كلامه، فحدّثني طويلاً عن الضّحّاك وحياته وأدبه وشهرته ومشاريعه الأكاديميّة والأدبيّة، وسرعان ما فتح الدّرج الثّاني من أدراج مكتبه، وأراني موافقة خطّيّة منه على أن يتولّى ترجمة روايته إلى العربيّة.

لقد كانت الموافقة مرهونة بتوقيع الضّحّاك وعنوانه كاملاً بما في ذلك رقم هاتف منزله وهاتفه النّقال، وعناوينه الالكترونيّة كاملة. لأوّل مرّة -منذ عقود- أرى خطّه الأنيق ذا الانحناءات البارزة.

أخيراً أصبحتُ أعرف عنوانه في كوكب الأرض، كلّ ما أحتاج إليه الآن هو أن أضغط أرقام هاتفه على شاشة اتّصال هاتفي النّقال كي يتدفّق صوته عبر أذني، فينزلق في روحي، فتنتهي رحلة عذابي.

لكنّني لا أملك ذلك المقدار الخرافيّ من الشّجاعة كي أتّصل به، وأذكّره بنفسي، فأجده قد نسيني، أو تناساني، أو أنكرني كما أنكرتُ نفسي منذ دهر.

*****

كتبت العاشقة: في تلك اللّيلة نمتُ على أمنية واحدة، وهي أن أهـرب إلى الضّحّاك، وتذكّرتُ ذلك المقطع من الفـيلم الـذي سكن في أعمـاقي منـذ طفولتي الغابرة؛ لقد شاهدنا ذلك المقطع من الفيلم كثيراً في صغرنا على غفلة من عيون المشرفات في الميتم؛ لقد كان مشهداً لامرأة شقراء جميلة أربعينيّة تركب قارباً صغيراً يقوده حارس شخصيّ لثريّ شهير، لينقلها إلى جزيرة جميلة ونائية، وهناك ينتظرها رجل وسيم يلبس الحرير الذي يزيد قامته المديدة رشاقة وجاذبيّة، وما يكاد يقترب القارب من ضفّة المرسى الخشبيّ الصّغير حتى يسارع الوسيم إلى المرأة الشّقراء التي تترنّح في وقفتها، ويمدّ يده إليها، فيشدّها إليه من يدها الممدودة نحوه باحتياج وثقة وترجٍّ وانكسار، ويأخذها إلى حضنه، ويهمس في أذنيها: لا تخافي، سأرعاكِ، وأعتني بكِ؟

وينتهي الفيلم على مشهد حنون أثير، وذلك البطل الوسيم يأخذ حبيبته إلى صدره، ويسير معها نحو بيتهما الجزيريّ الأنيق، والشّمس التي تغرق في أفق البحر الدّامي بها تحوّلهما إلى خيالين أسودين يلتحمان طويلاً في جسد قبلة عميقة.

لقد كانت بطلة الفيلم مريضة وتحتضر، وعندما أَدْرَكَهَا الموت، طارت إلى الرّجل الذي تحبّه لتموت في حضنه.

أنا أيضاً كنتُ أحلم بأن أطير في يوم ما إلى حضن الضّحّاك لأعيش معه في فرح على الرّغم من أنف الموت، لكنّني أشعر بالجبن المتغوّل على روحي، فأضنّ بنفسي على المزيد من الحزن الذي سأتجرّعه لو رفضني، أو أنكرني، أو تجاهلني.

حضّرتُ نفسي لهذا اللّقاء طوال عقود، لكنّني لم أتخيّل في يوم ما أن يكون الضّحّاك قد طار في سماوات علياء المجد حيث لا أستطيع أن أدركه، أو أن أطير إليه، وأنا المتمرّغة – رغم أنفي- في وحل الخطايا والخيبات والآلام والمفجّع من الأقدار.

أيّها المرض الخبيث الحنون في آن، ألم أقل لكَ إنّكَ قد أدركتني في الوقت المناسب؟ هيا التهمني أكثر كي أنسى بهاء، وأنسى حلمها الموصول برجلها الحاني الضّحّاك. الآن سأموت رغبة في الموت والانتهاء والتّلاشي كي أنسى التّذّكر؛ فأنساني.

أيّها النّسيان لقد أدركتني في وقت ما عاد لي أيّ حاجة فيه للتّذّكر، كم أنا سعيدة الآن لأنّني امرأة أَدْرَكَهَا النّسيانُ! فأنقذها منها، ومن عذابات التّذكّر، ومن أوجاع الماضي ومن خيبات الحاضر والمستقبل.

الآن أعدكَ بأنّني لن أقاومكَ، أو ألعنكَ، أو أهرب منكَ، سوف أستسلم لكَ تماماً لتنهشني كما تشاء، ما عدتُ أرغب في مواجهتكَ كما فعلتُ في السّابق عندما طردتكَ من ثديي، ومزقت رحمي، وألقيته خارج جسدي كي أطردكَ بعيداً عنّي.

الآن سوف أهبكَ امرأة أَدْرَكَهَا النّسيانُ برغبة كاملة ورضا حقيقيّ. هيّا التهمني لأستريح.

النّسيان الخامس

أَدْرَكَهَا النّسيانُ

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":

"الحيرة هي السّيرة المشتركة للباحثين عن الحقيقة"

"أخاف أن أكتبكَ، فتموت"

"أن نعشق يعني أنّنا لم نعد وحدنا"

"ما أعدل الظّلّ؛ إنّه قدر المدّعين"

"الرّضا يخاصم المبدعين والأتقياء والحالمين"

"التّمرّد تعاظم على ضعف الذّات"

"من العبث أن نشرح لقلب ما كم نحبّه إن لم يشعر هو بذلك"

يكاد الضّحّاك يشعر بالجنون يثب عليه ليعقر عقله؛ فهو يرفض أن يصدّق أنّ بهاء قد اكتشفت الدّرب إليه منذ سنوات طويلة، ولم تسعَ إلى لقائه، أو تحاول الهروب إليه، بل إنّها قرّرت أن تنتحر باستسلامها للمرض والنّسيان تمهيداً لموتها كي تهرب فقط من حقيقة أنّها وجدته، ولا تستطيع الهروب إليه، أو الطّيران إلى سماواته حيث الشّهرة والنّجاح والتّحقّق والسّعادة والنّقاء بخلاف الحياة التي تعيشها.

يضرب فخذيه بقبضتي يديه بكلّ غضب ليفرغ حزنه فيهما، ويستسلم لبكائه المقهور الذي يجأر به إلى السّماء، وهو يناجي بهاء التي ترقد في غرفتها، ولا تسمعه: يا لحمقكِ يا بهاء! كيف سوّلتْ لكِ نفسكِ أن تكسري جناحيكِ كي لا تطيري إليّ؟ كيف همستْ نفسكِ لكِ بأنّني قد أرفضكِ، أو أبتعدُ عنكِ أيّاً كانت الأسباب والظّروف؟ لقد كنتُ دائماً في انتظاركِ.

لماذا فعلتِ هذا بنا؟ لماذا أطلتِ زمن الفراق لأزمان أُخر؟ ولم تصلي إليّ إلّا بعد أن كاد النّسيان يلتهمكِ تماماً؟ أنا في حاجة إليكَ. فأين أنتِ الآن؟

لقد ذهبتِ مع النّسيان، وتركتني وحيداً هنا في دنيا التّذكّر. يا لها من خيانة لئيمة!

*****

قضى الضّحّاك ليلته يعزف مقطوعاته الموسيقيّة بطريقة مشوّشة على البيانو القديم الذي اشتراه بثمن كبير من مزاد علنيّ سنويّ يقام في قلب المدينة لبيع التّحف القديمة والقطع الأثريّة.

عزف لنفسه كلّ ما خطر في ذهنه من مقطوعات موسيقيّة كيفما ركضتْ أصابعه على لوحة مفاتيح البيانو، وتجاهل سؤال سكرتيرته باربرا لأكثر من مرّة إن كان يرغب في تناول الطّعام بعد أن قضى يومه وجزءاً كبير من ليله يعزف موسيقاه القلقة المضطربة، ويصكّ أصابعه بغضب على مفاتيح البيانو كلّما اتّقد الغضب في نفسه من حبيبته الحمراء التي حرمته من لقائها بسبب أوهامها المأفونة.

عندما أنهكه التّعب، جرّ نفسه إلى غرفته، وهو يمسك زجاجة مشروبه من عنقها لتترنّح يمنة ويسرة كما يترّنح هو، وأغلق الباب خلفه بالمفتاح، وكرع مشروب الزّجاجة كلّه في عبّة واحدة، وترّنح حتى كبّ نفسه في السّرير على وجهه، وغاب في النّوم العميق.

*****

البارحة قبل أن يقرأ الضّحّاك الصّفحات الأولى من مخطوطة بهاء حول مرضها، وقرار استسلامها له، كان يشعر بأنّه أمام متاهة من الأفكار والقصص والأحداث. نعم، هو أمام متاهة سرديّة لا يعرف أيّ الدّروب عليه أن يسلك فيها، ولا يدري أهو أمام نصّ سيريّ ذاتيّ أم أمام مشروع

رواية؟ أم أمام بوح ما؟ أم أنّـه عـالق في نـصّ مشـظىً يعكـس أوّل مراحـل النّسيان عند حبيبته الحمراء الفاتنة؟

لقد بات يتساءل بعمق عن زمن كتابتها لهذه المخطوطة اللّغز المحيّـرة؛ إنّهـا غابة مقلقة من السّرد والحكايات والقصص، وهو يشعر بالاختناق مع بطلـة الرّواية العاشـقة، ويفكّـر بقلـق دون توقّـف متـى كتبـتْ حبيبتـهُ بهـاء هـذه المخطوطـة؟ ومـاذا أرادتْ بهـا أو منهـا؟ ومـاذا يعـني هـذا التّـداخل المقلـق للنّصوص في هذا المخطوطة؟ أتراها كانت تكتبُ اعترافاً له؟ أم هي تتلاعب به؟ أم تجرجـر النّسـيان إلى منطقـة التّـذكّر؟ أم تسـخر مـن السّـرطان الـذي يناصبها العداء؟ فتحيك له حكايات مضلّلة لا وجود لها في أرض الحقيقة.

هو أستاذ الأدب المقارن والتّراث الشّعبيّ في الجامعة؛ لذلك يدرك أنّـه أمـام متاهة سرديّة قلقة كلّها تداخل للنّصـوص والأصـوات، ولعلّـه لا يجـد فيهـا مكاناً له، إلّا أنّه سوف يستمرّ في قراءة فصولها على بهاء حتى ينعش ذاكرتهـا الكسولة المتآكلة، أمّا هو، فسوف يستمرّ في مشروعه المصيريّ في كتابة روايـة مشتركة باسمه واسم حبيبته نزولاً عند حلمهما الطّفوليّ المقدّس المـدفون في صدره.

بعد أن قرأ الوريقات الأولى من المخطوطة، قرّر أن يكتـب روايتهـا مهمـا كلّفه الأمر، سوف يلغي نفسه، وينسخ حلمه من أجل أن ينتصر حلـم بهـاء؛ فهي لم تنشرْ أيّ رواية من قبل، وظلّ حلمها في نشر رواية لهـا حلمـاً عزيـزاً عالقاً في المجهول من نفسها، وعليه الآن أن يحقّق حلمها ، وإن لم تكـن قـادرة حتى على تذكّر أحلامها، لكنّه ما يزال يتذكّره بشكل كامل.

*****

قرّر الضّحّاك أن يغتنم وقت الفجر المنعش ليمارس رياضة المشي التي يعشقها قبل أن يحين موعد إيقاظ بهاء من نومها لتأخذ دواءها الصّباحيّ بعد تناولها لطعام فطورها.

إنّه معتاد منذ سنوات على المشي على ضفاف النّهر لعدّة كيلومترات، ولطالما تمنّى أن تكون بهاء رفيقته في هذا المشي الصّباحيّ الموصول، وها هي الآن في دنياه، لكنّه لا يستطيع أن يحقّق حلمه؛ لأنّها شبه مشلولة الأطراف، وعاجزة عن قضاء أيّ حاجة دون مساعدته.

لطالما فكّر في مشيه الصّباحيّ بحبيبته البعيدة القريبة، والآن هو يتخيّلها إلى جانبه، ويناجيها قائلاً: أنا أعشقكِ يا بهاء؛ لذلك سأكتب روايتكِ وروايتي كما تشتهين، وسوف أختار لكِ بها أجمل الأقدار، وسوف أدفن المؤلم في سيرتكِ في النّسيان.

سأقرأ لكِ ما كتبتِ، لكنّني سأكتبُ لكِ أجمل الحكايات، وسأسمّي روايتنا هذه "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وسأكتب اسمي واسمكِ عليها؛ لذلك لن أكتبَ فيها إلّا ما تشتهين أن يكون في حياتكِ، وسوف أدفن في صدري أيّ حقيقة لم تريدي أن تبوحي بها إلّا لي.

سأقرأ بتقديس سيرة خطاياكِ وأخطائكِ وزلّاتكِ، وسوف أدفنها في صدري، ولن تزيدكِ زلّاتكِ في عيني إلّا عظمة وقدسيّة ونقاء، سأكتب لكِ بدلاً عنها أجمل تفاصيل الفضيلة والنّبل والسّمو، سوف تكون روايتنا لنا ولحبّنا، أمّا العابرون فينا، فسوف أنفيهم من روايتنا، لن يكون لنا من التّذّكر سوف ما نشتهي.

بعد الآن لن تكوني مجرّد امرأة أَدْرَكَهَا النّسيانُ، بل سوف أتوّجكِ ملكة على قلبي وعلى جبين الخلود على الرّغم من أنف المرض والنّسيان والألم.

بهاء، أنا أعشقكِ. لماذا لا تستطيعين السّير معي في هذا الصّباح من هذا النّهار على هذه الضّفّة الجميلة؟ هناك الكثير من بائعي الزّهور في دربنا، وأنتِ -دون شكّ- تعشقين الزّهور والأنهار والسّير تحت المطر.

*****

وضع الضحّاك كوب عصير الأناناس على الطّاولة أمام بهاء، وقرّب الطّاولة من سريرها حيث تضطجع على يساره، وتسند رأسها وظهرها إلى مسنده المنجّد، وتصنّع ابتسامة هادئة تخفي ما يتأجّج في أعماق روحها من تشظي الحيرة، ساعدها بذراعيه القويتين على أن تعدّل استقامة ظهرها، وتناول نجمة خضراء اللّون من علبة نجوم "الأوريغامي"، وفتحها، وقرأ فيها: "الدّموع عويل العاشق المحروم"، وناول نجمة أخرى خضراء لبهاء لتفتحها على مهل، وتقرأ ما كُتب فيها ببطء وصعوبة: "الوقوف بعجز أمام الحبّ يعني عدم الوقوف أمامه مرّة أخرى".

ابتسمّ الضّحّاك ابتسامة متقنة الاتّساع، وهو يسمع صوت بهاء الشّجي المبحوح الذي يتنزّى من بين شفتيها القرمزيتين، وتناول نجمة ثالثة خضراء، وفتحها على عجل، وقرأ ما هو مكتوب فيها بصوته الهادئ الأجشّ: "العشق لا يأتي صدفة أبداً، بل يأتي قدراً"، ثم تنفّس الصّعداء، وقال لبهاء: يبدو أنّك استمتعتِ كثيراً بنومكِ الهانئ في اللّيلة الماضيّة؟

هزّت بهاء رأسها برضا وتأكيد، فانهال شعرها النّاعم القصير على وجهها من جهة غرّتها المنزلقة نحو اليمين، فردّه الضّحّاك إلى مكانه بلمسة حنونة من كفّه الكبير، وجمعه خلف أذنها، وقال لها بحبّ غامر: اليوم سأقرأ لكِ من مخطوطتكِ. أنتِ من كتبتِ ما فيها. عليكِ أن تتذكّري ذلكَ. هي مجرّد رواية لا علاقة لها بكِ. أنتِ عشتِ حياة سعيدة فرحة، وهذه رواية عن

امرأة اسمها العاشقة، وهي –على ما يبدو– قد عاشت حياة حزينة متعثّرة. لكنّكِ قد عشتِ حياة سعيدة جميلة. لكنّني سأقرأ عليكِ هذه الرّواية بنصيحة من أطبّائكِ المعالجين لكِ لعلّها تساعدكِ على التّذكّر، وتنشيط ذاكرتكِ بتفاصيلها التي لم تمرّي بها في الحقيقة.

تأمّل الضّحّاك في عيني بهاء ليرى وقع كذبه عليهما، فرأى فيهما صفاء وهدوءاً وتصديقاً له شجّعه على المزيد من الكذب عليها، فأردف قائلاً، وهو يمسّد بحنان على كفي يديها: هذه المخطوطة هي مخطّط لرواية أنتِ من كتبها، وأنتِ من رسم شخصياتها، كما أنتِ من رسم شخصّية بطلتها التي أسميتها العاشقة، هي رواية جميلة دون شكّ، لكن لا علاقة لكِ بها، فحياتكِ كانتْ مختلفة تماماً، ولعلّها كانت نقيضاً لحياة البطلة التّعسة الحزينة التي حلّ بها مرض نادر أصابها بالنّسيان.

صمتَ الضّحّاك ليلتقط أنفاسه، ثم أمضى أكثر في كذبه على بهاء، وابتسم لها ابتسامة موردة، وقبّلها على يديها، وشرع يسقيها عصير الأناناس، وهو يقول لها: أمّا أنتِ فلستِ مريضة، وتتذكرين كلّ شيء، وتعرفين من أكون. أليس كذلك؟

التمع فرح خفي في عيني بهاء، وبصعوبة استطاعتْ أن تقول له: أنتَ الضّحّاك. أنا أعرفكَ. أنا أحبّكَ، ثم أخذت تنظر إلى يديه المشعوعرتين وهما تفتحان المخطوطة الكبيرة، وتقلّبان الصّفحات التي قرأها على نفسه البارحة من بدايتها، حتى وصل إلى تلك الصّفحة التي توقّف عندها .

لقد شاهد الدّهشة في عينيها، وهي تستعدّ للدّخول معه في عالم الدّهشة والنّسيان، وإن كانت لن تتذكّر فيما بعد أيّ شيء يخصّ ما تسمعه منه.

النّسيان السّادس

العاشقة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"أنْ تتألّم كثيراً يعني أنّ قلبكَ أكبر ممّا يجب"
"النّور الحقيقيّ يشعّ من الضّمير الحيّ"
"الإبداع الحقيقيّ لا يصنعه إلا الحبّ العظيم"
"مَنْ هو القبيح الذي لا يحلم بالحب؟"
"الحسّاد والحاقدون هم ملح النّجاح"
"الفقراء يفضّلون الخبز على الحبّ"
"هل يمكن للوطن أن يتلخّص في قلب عاشق؟"

لقد بدأ الضّحّاك يضع الخطوط العريضة لروايته "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وسوف يبدأ بالتّحديد من اسم بطلة مخطوطة بهاء، وهو اسم العاشقة. وقد جدّد عزمه على أنّ يكتب فصولها وفق ما يريد أن تكون صورة بهاء عليه، وما كانت لتريده لنفسها لو لم تعاندها الأقدار، وتسلمها للأحزان والضّياع، لا وفق صورتها الحقيقيّة التي رُسمتْ بيدي الحزن وخيبات الألم والإحباط.

هذا الصّباح قبل أن تشرق الشّمس، وتهدي الدّنيا أوّل دفقات دفئها الكونيّ الخالد على الرّغم من برودة الشّتاء كتب الضّحّاك أوّل سطور في روايته "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" حول بطلتها العاشقة، لقد رسمها كما كانت بهاء تريد أن تكون، فكانت صورة مشرقة لحلمها بالحياة، تلك الصّورة الفرحة البهيّة المتفائلة التي كانت تحلم بأن تكونها، وقتل في ذاكرته ما قتله المرض في ذاكرة بهاء .

هي ستكون البطلة المتدارية خلف العاشقة التي جسّدها في الرّواية على صورة كاتبة شهيرة، وامرأة جميلة تنحدر من أسرة شريفة تنعم بالفرح والخير

والنّجاح، وتشارك في رسم بناء الوطن، ودفن في أعماقه صورة بهاء اليتيمة اللّقيطة التي لا أصل أو جذر لها في الحياة التي وُلدت على قارعة درب من دروبها، ثم لفظها من أنجبها، وعاشتْ وحيدة دون اسم في الميتم، ثم بعد ذلك التقتْ بحبيبها القدريّ الضّحّاك الذي وهبها اسم بهاء، وتوّجها أميرة على قلبه إلى أن خُلع بعيداً عنها عندما ألقت به مديرة الميتم في شارع الحياة.

لقد عانت بهاء كثيراً في الميتم، وعندما بلغت الثّامنة عشر من عمرها وجدت نفسها في الشّارع وحيدة لا تملك من الحياة إلّا ذاتها وجمالها الأحمر الفتّان، وموهبتها في الكتابة التي نمّتها بالقراءة الموصولة، لكنّها لم تستطع أن تصل إلى أيّ من أحلامها، فلم تذهب إلى الدّراسة في الجامعة، ولا أصبحت روائيّة شهيرة كما كانت تحلم، بل لم تنشر أيّ رواية، ولم تحظَ بالجمهور العريض من المعجبين والقرّاء والعاشقين لقلمها، ولا طوّفت الدّنيا محمولة على أجنحة الحلم والإبداع.

إنّها باختصار عاشت انكساراتها الطّويلة واحباطاتها المستمرّة في بحثها عن تأمين لقمة عيش شريفة تقتنصها بصعوبة في عالم لا يرضى بأن تعطيه عملها الدّؤوب مقابل أجوره الزّهيدة، ما لم تهبه جسدها اللّذيذ الشّهيّ الأحمر.

هي كذلك لم تحظَ بمحبّ أو مخلص أو عاشق لها بصدق أو بزوج ؛ لأنّها كانت موسومة دائماً بلعنة اللّقيطة ابنة الميتم التي تحوّلت إلى مومس للطّبقة المخمليّة في المجتمع، وما أراد أحد أن تكون شريكته العلنيّة في الحياة، أو أمّاً لأولاده، وهي من لا تعرف لها نسباً أو أصلاً، ولا حافظتْ على شرفها المزعوم في حياة لم تقابل فيها سوى الذّئاب الآدميّة الجائعة التي تريد أن تنهش جسدها وأنوثتها وسحرها، وبخلاف ذلك تطعمها للعدم والنّسيان.

لقد حدّثته صديقتها هدى طويلاً عن حياتها الوحيدة البائسة التي لم تظفر فيها في نهاية المطاف إلّا بعار لا ينتهي، وسيرة حياة مخزية، وشقّة صغيرة تتكوّن من غرفة ومطبخ وحمام وشرفة بمساحة متر في متر، وبعض الملابس الجميلة، وذكريات فرح لم تذقها إلا في مخيالها الذي عطبته لكثرة ما حبستْ فيه من أحلامها المحرّمة عليها وأمنياتها المؤجّلة، في حين خسرت شرفها وفرصها وروحها وحياتها وآمالها وفرح وكبرياءها وصحتها وحلمها في الكتابة والشّهرة الأدبيّة والتّحقّق المشرّف، وهي تتنقّل بين أيدي الرّجال سلعة رخيصة يتمتّعون بها.

حاولتْ بإخلاص أن تحظى بأيّ فرصة للقمة الحلال، لكنّ الرّجال الطّامعين بها سدّوا الدّروب عليها مرّة تلو أخرى حتى ساقوها إلى الرّذيلة بأشكالها جميعها. ظلّت لسنوات أسيرة الرّوح والجسد للشّياطين البشريين، إلى أن نفد شبابها الأحمر المثير، فاكتفتْ عندها بالعزلة التّامة إلّا من صديقتها هدى المقرّبة إلى نفسها، وبعض زبائنها الذين يشترون كلماتها الذّهبيّة، وينشرونها في الصّحف والمجلات بأسمائهم، فقد اعتادوا على التّزوير، وهي اعتادتْ على أن تبيع لهم كلماتها كي تعتاش بها، بعد أن ضاقت ذرعاً بزبائنها الذين كانوا يشترون جسدها مقابل نقودهم النّجسة، وضاقوا بشبابها الذي غادرها بعد طول تلذّذهم به، فأخذتْ تتاجر بكلماتها، وتمارس دعارة القلم بدل دعارة الجسد، إلى أن حظيتْ بوظيفة حكوميّة درّت عليها راتباً تقاعديّاً ضئيلاً جعلها تهجر زنا القلم والجسد، وتركن إلى صمت بيتها مهمومة بالوحدة والمرض والعوز.

هاجمها السّرطان مرتين في حياتها؛ المرّة الأولى هاجمها في ثدييها ورحمها، فقاومته طويلاً حتى شُفيت منه بعد أن فتك برحمها، فأستأصله الأطبّاء كي ينقذوها من استفحال السّرطان في أحشائها، وقد نجحوا في ذلك.

وقد ظنّت عندها أنّها قد تشافت تماماً من عدوّها المرض الغـادر، إلّـا أنّ السّرطان عاد إليها من جديد، وهاجمها مرّة أخرى بشراسـة انتقاميّـة لا طاقـة لها بالتّصدّي لها، فغزا دماغها، وتفنّن في الفتك بها، حتى استسلمتْ لبطشـه، وانقادتْ له ليسير بها في درب مظلم نحو العدم.

ومنذ تلك اللّحظـة أصـبحت نزيلـة شـبه دائمـة في المستشـفى الحكـوميّ لعلاج السّرطان، وعندما ساءتْ حالتها إلى حدّ العذاب الموصـول مـن شـدّة الألم كان أملها الوحيد لإيقاف هذا الألم هـو أن تسـافر للاستشـفاء في ذلـك المنتجع الصّحي العلاجيّ في الغابة الاسكندنافيّة حيث التقى بها.

لقد أنفقتْ معظم ما تملك من مال مدّخر قليـل وثمـن سـيارتها القديمـة الصّغيرة وشقتها الجحر التي باعتها، لأجل أن تدفع بثمنها نفقات علاجها في المنتجع الصّحيّ الاسـكندنافيّ، ونفقـات سـفرها وصـديقتها هـدى إلى بـلاد الصّقيع والـبرد، بعـد أن رفضـت إحـدى صـديقاتها المـزّورات الـتي كانـت تشتري كلماتها بأبخس الأثمان أن توفّر لها منحـة عـلاج ثانيـة علـى نفقـات الدّولة التي تشغل مواقع إداريّة كثيرة فيها، لا سيما في مواقع العلاجيّ الطّـبيّ المجانيّ.

هي تستطيع أن توفّر لها أيّ منحة علاجيّة مناسبة في أفضل المستشـفيات في العالم، لكنّها رفضتْ أن تسـاعدها في ذلـك لانقضـاء حاجتهـا منهـا بعـد أن عجزت بهاء عن تزويدها بما تريد من كتابات إبداعيّة تنشرها باسمها بسـبب استفحال مرضها، وسطوته عليها، في حين ساعدتها في الحصول علـى منحـة علاجيّة مناسـبة في رحلتهـا العلاجيّـة الأولى للتّشـافي مـن سـرطان الثّـديين والـرّحم، قبـل أن ينتقـل السّـرطان إلى دماغهـا، ويحتـاج إلى رحلـة علاجيّـة أخرى.

لكنّها لم تتشافَ، وساءتْ حالتها أكثر كما توقّع الأطباء جميعهم، وانهارتْ في ذلك المنتجع العلاجيّ في مقعد متحرّك، وفي جعبتها تقارير طبيّة كثيرة تجمع على أنّها قد وصلت إلى مرحلة النّهاية في مرضها، وأنّها تحتضر في انتظار الموت، وأنّ لا علاج يمكن أن ينقذها من مرضها السّرطان، وأنها ستظلّ تنهار، وتتضاءل، وتخسر قواها الجسديّة وذاكرتها إلى أن يبتلعها الموت لقمة مهصورة سائغة.

في هذه المرحلة الأليمة من حياتها شاءت الأقدار أن تلتقي بالضّحّاك، وأن يظهر في حياتها روحاً ملائكيّة تمطرها بالحبّ والرّعاية والحنان لتحتضر في سلام وراحة دون مكابدات أو تيه أو مزيد من المعاناة.

النّسيان السّابع

رائحة قُبلة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الكتابة تعطيني سبباً للحياة وطريقة للتّنفس"
"الزّمن هو عدوّ المحرومين"
"العشق لا يأتي صدفة أبداً، بل يأتي قدراً"
"رحمة بأبنائي لم ألدهم لهذا العالم المتوحش"
"القبح الحقيقيّ هو الكره"
"ليس هناك أزمان جديدة، بل هناك أزمان مهدورة"
"الحبّ هو القوّة الوحيدة التي تقطن خارج الزّمن"

يدرك الضّحّاك أنّ بهاء تكتم الكثير من الألم في أعماقها، وهو يسمع تأوهاتها الخفيضة الصّوت الكسيرة التي بالكاد تخرج من حنجرتها، فيخمّن أنّ السّرطان يهاجمها بشراسة متوحّشة.

لم يستطع أن يخفّف من ألمها المعتاد إلّا باستدعاء طبيب خاصّ بالحالات السّرطانيّة المماثلة لحالتها، ففحصها مليّاً، ثم كتب لها وصفة طبيّة تحتوي على مسكّنات ألم من عيار أقوى ممّا عندها، لعلّها توقف آلامها، وتعيد إليها بعضاً من رغبة الأكل والشّرب.

لكنّها رفضتْ أن تأكل، وبقيتْ طوال اليوم في سريرها مستلقيّة مثل دودة سحقها ثقل حجر عملاق، لقد ظلّت منداحة في سريرها باتّجاه نافذة غرفتها تراقب هطول المطر، وعندما لاحظ الضّحّاك مدى اهتمامها بقطرات المطر التي تقرع زجاج نافذتها تترى بتسابق ونشاط، فتح لها النّافذة كاملة كي يكون المطر في أقرب مسافاته منها، فيطير نحوها، ويسقط على وجهها

وشـفتيها، وجلـس علـى أرض الغرفـة بـالقرب مـن النّافـذة ليقـرأ لهـا في مخطوطتها.

قرأ بضعة أسطر في المخطوطة، ثم توقّف عن القراءة عندما أدرك أنّ بهـاء لم تكن تسمع ما يقرأ لها؛ فقد كانت تداعب المطر بعينيها، وتتـذوّق كـلّ رذاذ يهبط منه على شفتيها، لقد كانت في مزاج مائيّ يفـوق أيّ رغبـة في الكـلام. حدّق في وجهها وفيما يرتسم على قسماته من أحاسـيس، وسـألها باهتمـام: هل تريدين أن ترقصي تحت المطر؟

أومأتْ له برأسها إيمـاءة تـدلّ علـى الموافقـة، فـاقترب منهـا، وحملـها بـين ذراعيه، وخرج بها إلى شـرفة الغرفـة كـي تسـتحمّ بـالمطر وهـي في حضـنه، عندما واجهت المطـر شـهقتْ شـهقة فـرح، وأخـذتْ تحـرّك ذراعيهـا بـبطء وصعوبة محاولة أن تجمع قطرات المطر في كفي يديها. لقد كانت سعيدة مثـل طفل داهمه المطر الصّيفيّ، وهو يلهو في الحقول مع أرنبه الصّغير.

اشتدّ سقوط المطر، كأنّه أراد أن يفرحها به أكثر فأكثر، فتنامى حبورها به باشتداد سقوطه، وبدت البهجة على وجهها الذي تقطر الأمواه مـن أطـراف خصال الشّعر الأحمر المنهدلة على صفحته، فلاحـظ الضّـحّاك لأوّل مـرّة في حياته بضعة بقع من النّمش الأحمر الصّغير منثورة على وجنتيها كيفما اتّفـق، لتزيد وجهها حمـرة وحـرارة وتحفّـزاً نحـو العشـق، لقـد جعلـت هـذه البقـع النّمشـيّة وجنتيهـا تبـدوان أكثـر تكـوّراً وإلحاحـاً علـى طلـب قبلـة مطريّـة، فاستجاب لإلحاحها الخفي، وطبع قبلة على وجنتها اليمنى ثم اليسـرى، ثـم استقرّت قُبله الحرّى على شفتيها المبتلّة بالمطر وبالشّهوة.

وفي سحيق ذاكرته كان الضّحّاك الصّبي الصّغير قد تسلّل من قسم الفتيـان إلى قسم الفتيات في الميتم كي يدعو بهاء لترقـص معـه تحـت المطـر ليفرحهـا

بذلك بعد أن ضربتها المشرفة في الصّباح؛ لأنّها ألقت القبض عليها، وهي ترقص بفرح فوق سريرها في الصّباح.

لم يكن هناك في الميتم أحد غيرهما يجرؤ على الخروج تحت المطر خوفاً من البرد ومن ابتلال ملابسهما، لكنّهما فعلا ذلك، ورقصا تحت المطر، وتحمّلا البرد لليلة كاملة بملابس مبتلّة حتى أدركهما الصّباح، فعرفت مديرة الميتم بفعلتهما، فأوقفتهما مجبرين معاقبين تحت شمس الظّهيرة إلى أن تجفّ ملابسهما التي رقصتْ معهما رقصة المطر العاشقة.

لكنّه لن يترك بهاء ترتعد في جلدها برداً، فعندما ابتلّت تماماً بالمطر وبقبله العطشى لها، بدّل لها ملابسها بعد أن جفّف جسدها وشعرها، وألبسها قميص قطن دافئ ابتاعه لها في جملة ما ابتاع لها من ملابس كثيرة عندما حضرت إلى بيته، وقد ساعدته سكرتيرته باربرا على انتقاء تلك الملابس على مضّض وكره منها، وهي من كانت تؤمّل نفسها بالزّواج به، والاستحواذ على سحره وشهرته وماله ولطفه العرمرم وقلبه الحنون المبدع في كلّ شيء بعد تاريخ مضاجعات بينهما لا يُستهان بعددها، حتى وإن كانت عابرة دون وعود زواج أو حبّ أو حتى مساكنة.

أشعل الضّحّاك مدفأة الغرفة ليتحوّل المكان في دقائق إلى موقد حار، ووضع بهاء في سريرها برفق وحنو بعد أن أسقاها كأساً من الحليب الحار المحلّى بعسل البرتقال، ثم ظلّ يمسّد على جبينها الوضيء حتى هبطت في دنيا النّوم، وتركته مستيقظاً يتأمّل ملامح وجهها، وهي مستسلمة لنوم عميق، وسعادة مطريّة ما تزال تسكن سماوات وجهها الأحمر اللّذيذ الغارق في رائحة الخشب المحترق في مدفأة الغرفة.

حاول أن يقنع نفسه بأن يترك حجرتها، وأن يذهب إلى النّوم في سريره، لكنّ تلك القبل المطريّة التي تبادلها معها تحت المطر ما تزال تهبط في روحه؛ لذلك جلس على السّجادة قرب المدفأة، وأخذ يكتب فصلاً من فصول رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، واختار أن يكتب هذه اللّيلة عن القبلة التي حصلتْ عليها العاشقة من رجلها المعشوق، فكتب في الفقرة الأولى من فصل أسماه "رائحة قُبلة":

كم ستكون السّماء أقرب في هذه اللّيلة لو تبادلنا القبل دون توقّف في ظلمة لا يقطعها سوى لهاثنا وأنفاسنا! فاتني الكثير، فاتكَ الكثير؛ فما زالت اليد لم تحتضن اليد، والرّأس لم يتوسّد الصّدر، والأصابع لم تَجُس في ثنايا الجسد، والأذن لم تسمع وجيب القلب أو صوت اللّهاث، والأصابع لم تتعارك مع أمواج الشّعر، والأنف لم يشمّ رائحة الجسد، والعين لم تقبّل العين، والفم لم يشرب من ريق الفم حتى يرتوي.

*****

يحاول الضّحّاك أن يسلم نفسه للنّوم بعد أن كتب عن القبلة المشتهاة على لسان العاشقة. ها قد شارف اللّيل على الانتهاء، لكن روحه ما تزال متحفّزة لقبلة من بهاء، يقترب من سريرها، ويشفق عليها إنْ أيقظها بقبلة جديدة منه، فيكتفي بأن يأخذ حفنة من نجوم "الأوريغامي" الملوّنة من صندوقها، ويخرج من غرفتها متّجهاً إلى غرفته، وعندما يدلف إليها، يخلع قميصه، ويندسّ في سريره عاري الصّدر، ويفتح بعض النّجوم الملوّنة الصّغيرة ليقرأ فيها:

"جبان مَنْ يقبل بغير الحياة التي يشتهيها"

"العشق هو الحقيقة المطلقة في هذا العالم المرهون للأكاذيب والخيانات والانكسارات"

"الحبّ مَنْ يجعل للدّموع قداسة وللبوح طُهراً"

"عند الغضب يصبح الكلام فضيلة مبتذلة"

"البوح مثل العري لا يكون إلّا أمام الذّات أو أمام توأمها"

"العشق هو الوطن الكبير الذي لا يتّسع إلّا لاثنين"

"أنا أعشق كلّ مَنْ قالوا لا، وكلّ مَنْ قالوا نعم تومئ إلى لا"

"ثائرة حتى آخر لحظة في حياتها، هذه هي أنا"

النّسيان الثّامن

الوطن

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"نسائي الورقيّات هنّ أقلّ تعاسة مني"
"هل يمكن أن أرسم الحلم على شكل رجل، والقلب على قدر نبضه؟"
"تبدأ المراهقة الحقيقيّة للقلب عندما يقرّر أن ينضج"
"أبشع قدر أن يكون الرّجل مكتوباً على الورق أجمل منه في الحقيقة"
"الرّجل الذي أهواه هو أجمل من أن يكون حقيقة؛ لذلك أجيد كتابته بالكلمات"
"الحبّ الذي يأتي في آخر الأولويّات هو وزن زائد يجب التّخلّص منه"
"أسوأ عادات الحبّ أن نعتاد على تجميده"

لم يخرج الضّحّاك إلى رياضته الصّباحيّة، ولم يردّ على أيّ مكالمة وردت إليه عبر هاتفه النّقال، أو عبر الهاتف الأرضيّ، وانصرف اهتمامه إلى تحضير فطور لذيذ لبهاء كي تستقبل يومها بكلّ فرح، متجاهلاً موعده مع سكرتيرته باربرا في مكتبه الخاصّ لإنجاز الكثير من الأمور العالقة، كما تجاهل اتّصالاتها الكثيرة به، ولم يردّ على أيّ منها، وظلّ يدندن بنغم شرقيّ فرح، وهو يعدّ الفطور لحبيبته الجميلة.

عندما دلف إلى غرفة بهاء وجدها مستيقظة وفق ما تمنّى، وعكس ما توقّع، كان في وجهها نور خاطف، وفي ابتسامتها معنى ملغز، وتساءل إن كانت تتذكّر القُبل المطريّة التي تبادلاها البارحة؟ أم أنّها ذابتْ في ذاكرتها وتلاشتْ؟ في حين لصقتْ بذاكرته ووجدانه إلى أبد الآبدين.

اقترب منها ليضع صينيّة الفطور في حضنها، فاقتربتْ منه، وطبعتْ قبلة سريعة على شفتيه، ثم عادتْ إلى جلستها الأولى بانتشاء، وقالتْ له بصعوبة: أنتَ الضّحّاك. أنا أتذكّركَ.

مرّ اليوم على الضّحّاك مُسعداً إلى درجة الذّهول والدّهشة والتّعرّق وتبلّل الرّوح والجسد، والرّغبة في الرّقص؛ لذلك صمّم على أن يصطحب بهاء في رحلة راجلة في السّوق القديم الشّعبيّ حيث سوق كامل للزّهور ونباتات الزّينة وعصافير الحبّ وأسماك العشق الملوّنة.

اختار أن تكون هذه الجولة لهما دون شريك حتى ولو كان هذا الشّريك هو سكرتيرته باربرا التي كانت تعرض عليه دون ملل أن تساعده في رعاية بهاء رغبة منها في أن تتعرّف عن قرب على تلك المشرقيّة الحمراء اللّذيذة التي أشعلت العشق في قلب الضّحّاك لأكثر من نصف قرن من الزّمان، في حين فشلتْ هي في أن تشعل الرّغبة في جسده لأكثر من بضعة مرّات ضاجعته فيها في الماضي قبل أن يُضرب عن جسدها، وتنحصر علاقته فيها في تفاصيل العمل التي كانت تقوم بها بمهارة واقتدار وإخلاص وتفانٍ.

لكنّ الضّحّاك صمّم على رفضه لمرافقة باربرا لهما في جولتهما في الحيّ القديم، وخرج إلى الشّارع، وأخرج بهاء إليه محمولة على يديه، ثم وضعها في مقعدها المتحرّك، وأحكم تدثيرها بدثار دافئ، وألبسها قبعة كشميريّة دافئة، ولفّ وشاحاً قطنيّاً حول رقبتها، وأخذ يدفع الكرسي المتحرّك في الأسواق، وهو يشرح لها بدقّة وتفاصيل كثيرة عن كلّ شيء يمرّان به، حتى مكتبته الوَقْف قد مرّا بها، وحدثّها عنها طويلاً، والتقط صورة لها وهي مبتسمة أمام بوابتها الزّجاجيّة الملوّنة.

*****

كان البيت في المساء غارقاً في روائح الكثير من الزّهور التي رغبت بهاء في أن تشتريها بإشارات من يديها وعينيها تومئ برغبتها باقتنائها، فاشتراها لها دون أن يلاحظ أنّها أكثر من أن تتسع لها الزّهريّات التي يملكها؛ لذلك فقد

وزّعها على أواني المطبخ المختلفة التي نشرها في البيت وفي غرفة نوم بهاء لتغمرها بأريجها.

أمّا هو، فقد جلس إلى جانب بهاء في سريرها ليقرأ لها في مخطوطتها بعد أن تناولتْ عشاءها بإقبال لم يشهدها تأكل به منذ أن جاءتْ إلى بيته؛ لقد كانت تبتلع اللّقمة تلو الأخرى، وتفتح فمها لاستقبال المزيد من اللّقم دون أن تصمّ شفتيها رافضة أن تأكل لقمة أخرى، كما كانت تفعل في الأيام الماضية كلّما حاول أن يطعمها لقمة إضافيّة من الطّعام، لقد كانت شفتاها تنتظران اللّقم بفرح من ينتظر قُبلة ولهى.

مكافأة لبهاء على إقبالها على الطّعام، قرّب زهريّة ورود النّرجس من رأسها، وقرّر أن يقرأ لها في مخطوطتها؛ قرأ لها صفحتين لا غير في المخطوطة؛ فقد كان يتوقّع أن يراها، وقد غرقتْ في عالم من النّوم اللّذيذ؛ لأنّه أعطاها دواءها اللّيليّ المسكّن كي تنام براحة دون توجّع، لكنّه وجدها تفتح عينيها باتّساع سماء تزخر بنجوم صيفيّة، ووجدها تتأمّله بعمق، كأنّها تراه لأوّل مرّة في حياتها، أو أنّها تودّعه لتذهب دون رجعة.

أرعبته فكرة أن تكون بهاء على وداع له، وفضّل أن تكون في لحظات تجلّ تتفسّح لتتذكّره، بادلها نظرات بنظرات، وقال لها بصوت كسيف يكاد يكون تضرّعاً: هل تتذكرينني جيداً الآن؟

ابتسمتْ له ابتسامة هادئة صغيرة لم تمتدّ على عرض وجهها كما هي ابتساماتها المعهودة، ولم تومئ له بحركة إيجاب أو قبول، واكتفت بالمزيد من التّحديق في وجهه، تفرّستْ في وجهه كأنّها ترسمه، أو تطبع صورة وجهه في مكان مقدّس في ذاكرتها حيث لا يستطيع أن يصل السّرطان إليها ليلتهمها، ومدّت يمناها لتلمس رأسه، وتمسّد على شعره الفضّي الطّويل المرسل حتى

منتصف ظهره، لم يكن شعراً ناعماً مثل شعرها، لكنّه كان شعراً موجيّاً تتسابق خصلاته للقفز في كلّ اتّجاه، ويزداد بريقاً ولمعاناً عندما ينكسر في تموّجات عريضة.

أطبق جفنيه، وأرسل روحه معها، وهي تداعب خصال شعره مرّة تلو أخرى من ينبوعها من فروة الرأس حتى مصبّها عند منتصف ظهره، وتخيّل بهاء الصّغيرة اليتيمة التي لم تكن تعرف من طقوس الحبّ في طفولتها سوى التّمسيد على شعر رأسه، وفرك جبينه لتبديد غضبه كلّما اشتعلت نيران ما في روحه، واتّقدت حمرتها في عينيه.

*****

يكاد ينتصف اللّيل، وهي ما تزال تحدّق فيه، لا بدّ أنّها تشعر بسعادة ما؛ لذلك لا يريد لهذه السّعادة أن تخمد تحت نار من نيران ذكرياته المؤلمة لطفولتهما التّعسة، يكتفي بأن يتجرّعها بألم وهي تتنزّى في روحه، وتنزلق حتى جوفه، فتصبّ عظيم لوعته فيه.

يتمنّى من أعماق قلبه أن لا تكون هذه اللّيلة الهادئة الحنونة قد ذكّرتها بطفولتهما البائسة المتوحّشة. لأوّل مرّة يتضرّع من أعماق قلبه كي يمتدّ النّسيان إلى ذاكرته كذلك ليقضم كلّ ما فيها من أوجاع وذكريات توجّد.

يتساءل في نفسه أترى هذا السّرطان تبرّع بخبث كي يسلب بهاء ذاكرتها؟ أم أنّه كان رحيماً بها عندما استلّ ذاكرتها الخيط تلو الخيط كي يعدم كلّ ذكرى موجعة فيها؟ أم ترى أعماقها المقرّحة بالآلام والنّكبات والحسرات والخيبات هي من خلقتْ هذا السّرطان كي يلتهم أحزانها، وينزعها من روحها، ويفرغ منها أثقال عقود ستة من نير الوجع؟

ما تزال تحدّق فيه، وهو بات يحترف الكذب عليها لأجل أن يضع في ذاكرتها المثقوبة بعض الذّكريات السّعيدة المزوّرة، لعلّها تعيّشها سعادة ما ولو لدقائق قبل أن تهبط تلك الذّكريات المصنوعة من ثقوب ذكرتها، وتسقط في النّسيان حيث العدم.

*****

نامت بعد سهر طويل، لكنّه لم يستطع النّوم، ظلّ يتذكّر تلك المدينة المتوحّشة التي نهشت طفولته، ولاكتها، وابتلعتها. تطارده كوابيس يقظته، فيقرّر أن يتمشّى في المدينة القديمة حيث يسكن على الرّغم من شدّة البرد، وخطورة ذلك؛ لأنّها تعجّ في منتصف اللّيل بالسّكارى والمجرمين والمتسكّعين والمتشردين والباحثين عن الملذّات المسروقة.

لبس معطفه الرّماديّ الدّافئ على عجل، ودسّ شعره تحت قبّعة سيبيريّة دافئة، وخرج ميمّماً نحو الأزقّة القديمة لعلّه يضيّع فيها بعضاً من ذكرياته الموجعة أيّام كان مجرّد حيوان شوارع يعيش مرعوباً وحيداً في الأزقّة والدّروب، لا يرحمه راحم، ولا يشفق عليه مشفق.

كان عندها يشعر بالخوف والغربة التي تنخر عظامه فزعاً، أمّا اللّيلة فلا يشعر بأيّ خوف وهو يسير وحده في هذا الدّرب الضّيّق المعتم؛ فهو يشعر أنّه الآن في وطنه؛ فالوطن عنده هو الاحتضان والحبّ والاكتفاء، وهذا المكان قد احتضنه، وأحبّه؛ لذلك هو وطنه، أمّا تلك الخرائب القاسية في الشّرق حيث يرتع اللّصوص والقساة، فهي ليست أوطاناً في نظره، إنّها ليست أكثر من خرائب تاريخيّة قد سطا عليها لصوص عابرون للتّاريخ؛ إذ خرجوا من رحم الماضي حيث قصص الشّطار والعيّارين والبصّاصين والوشاة وقطّاع الدّروب، وعاثوا فساداً في الحاضر.

أمّا هو فلم يكن عندئذ سوى صعلوك من الصّعاليك، أمّا الآن، فهو في وطنه الجميل الذي أتاح له فرصة أن يغدو أستاذاً جامعيّاً مرموقاً، وأديباً شهيراً، وإنساناً ناجحاً متحقّقاً في كلّ لحظة يعيشها؛ لذلك يريد الآن أن يشرب نخب هذا الوطن الحقيقيّ الذي احتضنه.

يلمح حانة صغيرة في نهاية الدّرب، يفتّش في جيبه، فيجد محفظته فيها، يغذّ الخُطى نحو باب الحانة؛ ليشرب كأساً أو اثنين أو ثلاثة احتفالاً بوطنه هذا الذي لم يلفظه في يوم ما.

يشرب كأساً وراء كأس نخباً لوطنه الحنون عليه، ويبصق مرّة تلو الأخرى على وطنه الماضي كلّما تذكّر يتمه ووحدته وحياته الضّالة فيه حيث عاش فيه حياة قطّ أعور حزين مقطوع الذّنب مهترئ الحظّ، ثم يخرج من جديد إلى الدّرب المؤدّي إلى بيته، وهو يترنّح في الشّارع، ويجأر بصوته، كأنّه يردّد أشعار ملحمة مقدّسة عن الخلق والبشر والفراديس في مديح وطنه الثّلجيّ العظيم الذي فتح ذراعيه له حانياً عليه محبّاً له.

النّسيان التّاسع

بهائي

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"كم مرّة أنجبتني أمّي لألقى المصير ذاته؟"
"العظماء فقط هم مَنْ يعرفون طعم الألم الكبير"
"الأشرار طردهم الله من أرض الحبّ"
"أقدارنا هي لعناتنا"
"نعرفنا أكثر عندما نعشق"
"الرّجل الذي أعشقه هو مركز الكون"
"أضمن طريقة للموت الكامل هي التّوقّف عن الحبّ"

استيقظ الضّحّاك متعباً مقهوراً، بعد أن راودته أفكار كثيرة لا معنى لها، ثم تذكّر –من جديد– وطنه القديم الذي سلخه منذ زمن حيث عاش فيه حياة دون ملجأ أو مأوى، فبصق على الأرض مراراً تقزّزاً من هذه الذّكرى التي شطبها منذ زمن من ذاكرته، ثم تأفّف تأفّفاً ممطوطاً دفع شفتيه إلى الأمام حتى كاد يلمحهما تطلاّن بانزعاج من تحت أرنبة أنفه.

نظر إلى السّاعة، فكانت ما تزال تشير إلى السّابعة والنّصف صباحاً، ما يزال يملك بعض الوقت قبل أن تستيقظ بهاء، فتح جهاز حاسوبه المحمول، وشرع يكتب مقالته الأسبوعيّة التي يرسلها إلى مجلّة المدينة، وهي أكثر مجلّة شعبيّة مقروءة في وطنه الحنون هذا.

طبع الكلمات على شاشة جهاز حاسوبه بسرعة ورشاقة، وهو يرتشف بضع رشفات من فنجان قهوة باردة ما يزال على منضدة مكتبه منذ البارحة.

قرأ النّص الذي طبعه على عجل على الشّاشة، فشعر برضا عنه، صحّح سريعاً الأخطاء الإملائيّة التي يشير إليها برنامج التّصحيح الإملائيّ المثبت

في جهازه، وبضغطة واحدة على أيقونة الإرسال أرسل المقالة إلى البريد الإلكترونيّ الخاصّ برئيس تحرير المجلّة، فوصلته فوراً رسالة ترحيبيّة إلكترونيّة من ذلك البريد الإلكترونيّ تخبره بوصول رسالته إلى طرفه، وتعد بالتّواصل معه في أقرب فرصة ممكنة.

أغلق جهاز حاسوبه، واسترخي في مقعده المنجّد الفاخر، فغاص فيه، تكاد عيناه تنزلقان من جديد في عالم النّوم، يحاول أن يقاوم سلطة النّعاس؛ لأنّ عليه أن يذهب إلى غرفة بهاء ليرعاها، لكنّ النّعاس يربض على صدره بسرعة مباغتة، ويمنعه من الحركة، آخر ما تلمح عيناه هو عنوان رواية "المسخ" لفرانس كافكا، ثم ينداح في نوم عميق، وينزلق رأسه يمنة ليرتكز على كتفه الأيمن، وهو يشخر بقوّة.

*****

يشعر الضّحّاك بانهاك من حلم "المسخ" الذي خنقه في منامه اللّيلة الماضية، لكنّه الآن يشعر بالامتنان الكبير للّه؛ لأنّه استيقظ من ذلك الكابوس المرعب، تفقّد رجليه، فتأكّد من أنّهما لم تتحوّلا إلى رجلي حشرة عملاقة كما حصل لغريغور بطل رواية "المسخ".

انتصب على قدميه بصعوبة، واتّجه نحو مكتبته، ونقل تلك الرّواية إلى الرّف الأسفل من مكتبته كي لا يراها أبداً بعد الآن، وجعل كعب الكتاب إلى داخل رفّ كي لا يقرأ عنوان "المسخ" مرّة أخرى.

لقد نام طوال ساعات الظّهيرة، لكنّه شعر بطمأنينة عندما اكتشف أنّ بهاء ما تزال تغطّ في نوم عميق بعد سهرها الطّويل ليلة البارحة، همس باسمها أكثر من مرّة؛ لعلّها تصحو من نومها العميق، لكنّها لم تستيقظ، فآثر أن يتركها لتستريح، وغادر غرفتها بهدوء ليعدّ لنفسه فنجان قهوة دون

سكّر، ثم عاد إلى غرفتها يحمل بيمناه قدحاً كبيراً من مشروبه السّاخن النّفّاذ الرّائحة، وجلس في المقعد المقابل لسريرها ينتظر أن تستيقظ من نومها ليتناولا طعام الإفطار الذي سيصبح طعام غداء إنْ لم تستيقظ في بحر ساعة من الآن.

رائحة القهوة تعبق بالمكان، وهو يفتح المخطوطة ليقرأ فيها من جديد، وبهاء ما تزال رهينة النّوم وهي مستلقية في سريرها ذي الغطاء الأحمر القرمزيّ المقصّب بالخيوط الذّهبيّة. تبدو مثل أميرة نائمة منذ دهر، ولا يمكن أن يبعثها من سباتها الأسطوريّ سوى قبلة طويلة من أمير عاشق لها، وهو عاشقها الأزليّ الذي يتحرّق شوقاً ليهبها هذه القبلة اللّغز المنقذة لها من السّبات المسحور.

*****

كانت بهاء تبدو اليوم أحسن صحّة على الرّغم من ذبول عينيها، وعدم قدرتها على أكل أكثر من لقيمات من طعام الغداء اللّذيذ الذي أعدّه لها بنفسه، إنّه أكل شرقيّ شهي، ما زال يجد لذّة فيه على الرّغم من أنّه خلع الشّرق ومن فيه منذ زمن طويل غير نادم أو متردّد، إلّا طعامه الذي لم يستطع أن يخلعه ؛ فقد كان مغرماً به، وزاد غراماً به عندما تعلّم الكثير من فنونه من زوجة عمّه الإغريقيّة التي كانت تجيد طهو الأطباق الشّرقيّة، كما تجيد صنع المربّى والخلّ والحلويّات، وتعتيق النّبيذ.

"ليس هناك ما هو ألذّ من طعام لذيذ على مائدة حنونة تفوح منها رائحة أنفاس حبيبة تشاركك الطّعام". حدّث الضّحّاك نفسه قائلاً. هو لا يستطيع أن يفكّر في هذه اللّحظة إلّا في أنّه يعشق بهاء، وأنّه أسعد البشر في الكون لوجودها إلى جانبه، حتى ولو كانت دون ذاكرة أو كلام.

لماذا يعشقها إلى هذا الحدّ؟ هو لا يعرف الإجابة، ولا يريد أن يعرفها، يريد فقط أن يعيش معها اللّحظات الجميلة التي ادّخرها لها طوال حياته.

قرع هاتفه النّقّال أكثر من اتّصال هاتفيّ من أصدقائه الأربعة، لكنّه لم يجد في نفسه رغبّة في سماع صوت أيّ بشر خلا صوت بهاء الذي ينساب إليه عزيزاً نادراً مكتوماً في كلمة أو اثنتين لا أكثر، بالكاد يستطيع أن يسمع كلماتها، أو أن يفهم ما تقوله له بصوتها الخفيض المرهق، لكنّه ما يزال يسمع في صوتها ذلك الرّنين الخفيض المبحوح الذي يزيدها فتنة وألقاً، ما يزال صوتها المخمليّ الحار يزيدها حمرة وتوهّجاً كلما نطقت بحرف ما.

هي عادتْ إلى النّوم من جديد بعد أن تناولت طعام الغداء، وهو يرغب في أن يكتب مقالة أخرى ليرسلها إلى رئيس التّحرير، بعد أن وجد منه رسالة إلحاح على ذلك؛ لأنّهم يعدوّن لإصدار عددين من أعداد المجلّة قبل أن تداهمهم عطلة عيد رأس السّنة.

يعرف تماماً ماذا سيكون موضوع مقالته للعدد المقبل الذي ينوي أن يكتبه للتوّ؛ فهو سيكتب للجميع ما يجول في خاطره، وهو يضع يده على قلبه، ويكاد يصرخ في العالمين: بهائي.

النّسيان العاشر

أفراح الرّمليّ

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"لو لم أكن عاشقة له لكنتُ نسائم تلازم خصال شعره"
"بعد موت الحبّ ليس هناك سوى الموت مرّة تلو الأخرى"
"مهما اختلفت تعريفاتنا للحبّ، فهناك أداء واحد يمثّله، وهو الحبّ"
"كلّما تحدّث عن الحبّ كان يقصد بكلامه حبّها له، لا حبّه لها"
"البخيل لا يعرف قلبه العشق"
"الحبّ يحتاج رجلاً وامرأة وجموحاً ونجاحاً في امتحانات الحبّ جميعها"
"الحبّ على ذمّة الانتظار هو حبّ على ذمّة الموت"

الضّحّاك يعلم جيداً أنّ بهاء كانت في شوق دائم إلى أمّها التي تخلّت عنها، وشلعتها في أرض الضّياع، في سورات غضبها المتجدّدة كانت تلعنها بكلّ ما تعرف من كلمات اللّعنة، لكنّها كانت تناديها بشوق وتضرّع كلما جلستْ إلى جانبه في الظّلام في ليالي الميتم السّوداء.

لكن عندما أشرقتْ الكلمة على روحها، نسيت أمّها، وانشغلتْ بها تتعلّمها وتتقنها؛ كأنّها أمّها الرّؤوم المخلصة التي لن تتخلّى عنها أبداً، وستعطيها الحياة مرّة تلو الأخرى.

لكنّه لم يتخيّل في يوم أنّ هذا الحبّ للكلمة سوف يكون ثمنه باهظاً تدفعه بهاء مجبرة مقهورة، وما تخيّل أبداً أنّ الشّيطان يمكن أن يدخل إلى الميتم في بذلة معلّم للغة العربيّة كي يفتك ببراءة طفلة يتيمة وحيدة تشتهي أن تجعل من الكلمة أمّاً لغويّة لها بعد أن هجرتها أمّها البشريّة، وتنكّرت لها، ونسيتها.

في أيام الميتم كان الضّحّاك الصّبي مدركاً لحقيقة أنّ بهاء مذعنة لفكرة الحرمان والفقد، وأنّها لا تحمل ذلك الحلم الدّراميّ بأنّ تجد والديها في يوم ما، أو أن يرجعا إليها لأخذها إلى بيتهما، أو أن تكتشف فجأة أنّها سليلة أسرة شريفة اضطرتها الظّروف إلى أن تخفي طفلتها ذات الأصل النّبيل في ميتم ما إبعاداً لها عن أنفس شريرة كانت تتربّصها بشرّ ما؛ فهي كانت حالمة أكثر تعقّلاً من أن تتّخذ من نهايات الأفلام الكلاسيكيّة نهاية مفترضة لمعاناتها.

لكنّه لم يكن يعلم أنّها تجتهد لتجعل من الكلمة والإبداع فيها نسباً شريفاً لها، وهي المجهولة الأصل والنّسب، كما لم تكن تعلم هي أنّ هذا الاجتهاد سوف يقودها إلى درب المعلم أفراح الرّمليّ الذي كان يجيد اصطياد كلّ ما يشتهي أن يصطاده، ولو كان يتيمة حمراء تجيد صنع الكلمات.

*****

لقد قرأ الضّحّاك على بهاء بداية قصّتها مع معلّمها أفراح الرّمليّ ، كانا عندها يجلسان في شرفة حجرتها، تلك الشّرفة التي تُطلّ على النّهر، لكن قشعريرة مداهمة علتْ جسدها، فأجبرته على أن يقطع هذه القراءة، وأن ينشغل بها ليدخلها إلى داخل الحجرة، ويقفل باب الحجرة درءاً لريح الشّتاء، ويشعل مدفأة الغرفة، ويسعى جاهداً ليدفئ بهاء التي علت زرقة باهتة حمرة بشرتها، وشعر بأطرافها تتجمّد على حين غرّة، فوضعها في سريرها، فغارت بين المطارف والحشايا، واندسّ إلى جانبها في السّرير، يشدّها إلى حضنه، ويلصقها بجسده، لعلّ حرارة جسده تتسرّب إلى جسدها، فتنشر الدّفء في جسدها المقشعرّ.

في ظهيرة اليوم التّالي قرّر الضّحّاك أن يقرأ على نفسه قصّة أفراح الرّمليّ مستغلاً استغراق بهاء في نوم الظّهيرة، أخذ نفساً عميقاً، وفتح الصّفحة الثّانية من هذه القصّة ليعرف ما تخفي من أوجاع بهاء التي انتفض جسدها برداً عندما انفتح عليها صقيع الماضي بمجرّد أن سمعت باسم أفراح الرّمليّ على الرّغم من أنّ ذاكرتها قد وأدتْ هذا الصّقيع منذ زمن وفق ما يفترض الأطبّاء، ويعتقد هو.

*****

كتبت العاشقة: بقيتُ لأشهر حبيسة في قبو الميتم كي لا أجد طريقة للهروب مع الضّحّاك، وما دريتُ لماذا كانت مديرة الميتم معنيّة بحبسي عن رغبتي في الهرب؟ وهي من لم تكن تبالي بهروب الأيتام جميعهم من الميتم!

عندما قصّت شعري الأحمر الجميل كي تعاقبني على أنّني أحلم بالهرب من الميتم لألحق بالصّبي الذي أحبّه أيقنتُ أنّها تغار من الحبّ البريء الذي أعيشه مع الضّحّاك في حين أنّ روحها القبيحة لم تعرف من الرّجال سوى نفورهم منها، وابتعادهم عن دروبها حتى جفّ ماؤها، ونشف عودها، وامتلأتْ شيخوخة وحقداً على البشر أجمعين.

عندما وافقتْ على إخراجي من سجني في القبو كنتُ قد فقدتُ أيّ رغبة في أيّ شيء سوى رؤية أشعّة الشّمس، والكتابة على سبّورة الصّف في حصّة المعلّمة صباح التي تفاجأتُ بأنّها قد تقاعدتْ، وتركت الميتم إلى الأبد أثناء سجني الطّويل في القبو، ولم تتشفّع لي عند المديرة لتخرجني من حبسي الانفراديّ كما توقّعتُ أن تفعل، وهي المحبّبة إلى نفسي من بين معلّمات الأيتام.

*****

كتبت العاشقة: يمكن أن تصبح مادّة الكتابة والتّعبير مادة قاتلة خنقاً للرّوح والجسد إن كان يدرّسها معلّم جهنّميّ مثل أفراح الرّمليّ الذي كان يُطلق على نفسه اسم القلقشنديّ العظيم لسبب أجهله، لقد قرّر أن يلتهمني منذ أن هبط إلى الميتم في مهمّة تدريس اللّغة العربيّة لفتيات الميتم وفتيانه بعد أن تقاعدت المعلّمة صباح من وظيفتها في تدريس المادّة ذاتها، وغادرتْ الميتم دون رجعة.

كان عندها في نهاية العقد الخامس من عمره، لكنّه كان يملك شهوة صيّاد في عنفوان قوته، شهوته هذه كانت تدفعه إلى اصطياد إناث الميتم واحدة تلو الأخرى، لم يخرج من الميتم عندما تقاعد عن العمل في سنّ السّتين إلّا وقد اصطاد نساء الميتم جميعهنّ، لقد طوّف على أجساد اليتيمات الواحدة تلو الأخرى، وضمن تستّر المشرفات على جرائمه بأن أعطاهنّ أنصبة مشبعة ومرضية من الجنس الذي يتحرّقن للحصول عليه، حتى عاملة النّظافة المسنّة التي كانت رائحة القمامة تفوح منها قد غزاها في غرفتها المنزوية في مطبخ الميتم، وأشبعها جنساً حتى غدتْ حيوانه الأليف الذي يلهث خلفه أعمى عن كلّ شيء سواه.

أفراح الرّمليّ حوّل الميتم إلى مبغى خاصّ به، وفرض شهرياريته عليه، وما كان من السّهل عليّ أن أقول له لا؛ فماذا تستطيع طفلة يتيمة وحيدة أن تقول لوحش يلتهم الجميع؟ لو كان الضّحّاك هنا لحماني منه، لكن في غيابه سهل على أفراح الرّمليّ أن يجعل من مادّة الكتابة والتّعبير باللّغة العربيّة مادّة لقتل عذريتي وبراءتي.

في أوّل درس له في صفّنا في الميتم، اجتهدتُ كي أطلعه على مهاراتي في الكتابة، كنتُ أعتقد عندها أنّه قادر على أن يساعدني في تطوير موهبتي هذه،

كما كانت تفعل المعلّمة صباح قبل أن تتقاعد، وقد أبدى لـي إعجابـاً مبالغـاً بما أكتب عندما قرأتُ عليه النّص الذي كتبته عـن أمـيّ المتخيّلـة، وإن كنـتُ ألمح في عينيه الغائرتين تحت شعر حاجبيه الأشيبين تأمّلاً في تكوّر ثديي تحـت زي الميتم المهترئ الذي ألبسه، ولا أملك زيّاً غيره.

في صبيحة اليوم التالي جعلني أقرأ موضـوعي الـذي عرضـته عليـه علـى طابور الصّباح، عندها انتصبتُ بفخر، كأنّني حويتُ سحر الكلام في جعـبتي، وطفقتُ أقرأ على الأيتام الحزانى مقالتي عن أمّي المتخيّلة التي أسبغت حبّهـا عليّ، ولم ترمِ بي إلى نخّاسي الحياة يتاجرون بي وبغيري مـن الأيتـام كيفمـا شاؤوا.

رفعتُ عقيرتي، وانطلقتُ أقرأ ما خطّـت يـدي في دفـتر الكتابـة والتّعـبير بسطوة إله الكلمات الذي يسكن روحي، في حـين غـار اليتـامى في التّثـاؤب مللاً ممّا أقرأ لهم، وهم مـن لا يطيقـون أن يسـمعوا أيّ خطـاب أو مقالـة أو نصّ أدبيّ.

*****

كتبت العاشقة: فيما بعد بدأ أفراح الرّمليّ يصنع فخّه القاتـل لـي، وإنْ لم يكن في حاجة إليه ؛ كان يمكن أن يأخذني من شـعري عنـوة إلى غرفتـه كمـا فعل مع الكثير من اليتيمات في الميتم على رضا من إدارة الميتم التي أصـبحت على تواطؤ كامل معه، وما وجد صادّاً له عن أفعاله الوحشـيّة، لكنّـه آثـر أن يتمتّـع بصـيدي؛ لـذلك تفـنّن في صـنع الفـخّ المناسـب لـي، كمـا تفـنّن في استدراجي إلي سريره الشّـوكيّ، لقـد أدرك أنّ روحـي تـدور حـول الكتابـة وحلمي بصنع مستقبلي بها؛ لـذلك شـرع يحيـك لـي أوهامـاً حـول أحـلام

الكتابة، وأبراجها الماسيّة المنيعة، ودروبها المزهرة التي يمكن أن تقودنا إلى خارج الميتم حيث الشّهرة والمال والوظيفة الرّاقية.

لقد زعم أنّه معجب بلغتي وقدرتي على الكتابة وصنعي لذاتي اللّغويّة من العدم عبر القراءة المستمرّة على الرّغم من ضعف إمكانيّات الميتم التي لم تقدّم لي ولغيري من الأيتام سوى التّدريس الهزيل وبضعة أرفف من الكتب المصفوفة في كومة خشبيّة نخرة وقديمة اسمها مكتبة على سبيل التّجاوز والتّقريب والتّوصيف، لا على سبيل الحقيقة.

بعد أن حاصرني بإعجابه هذا الذي جعلني أزهو بطيش مثل قُبّرة حمقاء تعتقد أنّها بجمال طاووس بيتيّ أنيق، بات يصمّم على أن أقرأ عليه كلّ ما أكتب، ليطير بفرح مخادع بما جادت به قريحتي، ثم أهداني الكثير من الكتب القديمة عن فنون الكتابة الإبداعيّة، وبعد ذلك صار يخصّص لي وقتاً خاصّاً لنجلس فيه في غرفة الصّف أو في باحة الميتم ليدرّسني الكثير من فنيّات الكتابة، وفعلاً بدأتْ موهبتي في الكتابة تتقدّم بشكل ملحوظ، وأنا من كنتُ أسهر كلّ ليلة لأطبّق عمليّاً ما علمّني من فنون الكتابة وطرقها وأدبيّاتها، وأكتب الموضوع تلو الآخر كي أطلعه عليه في اليوم التّالي لينال إعجابه، إذ غدا عندي سيد الكلمات وساحرها، وأصبحتُ أدعوه باسم القلقشنديّ العظيم الذي يحبّه، وتجاهلتُ القصص التي ترويها لي فتيات الميتم عن اغتصابه لهنّ الواحدة تلو الأخرى، كما حاولت أن أتجاهل اسم لوليتا الذي يطلقه عليّ عندما ينظر إليّ تلك النّظرة الذّئبيّة المخيفة التي لا أعرف معناها، لكنّها تفتح طاقة صقيع على روحي.

كانت هدى صديقتي الأثيرة في الميتم تحدّثني عن سلوكيّاته المنحرفة مع نساء الميتم وفتياته دون استثناء، لكنّني كنتُ أغلق أذني عن كلماتها، وأصمّم

على أنّ معلّمي أفراح الرّمليّ هو إنسان رائع وطيّب وملهم، مهما حيكتْ حوله من قصص الفسق والفجور والإجرام؛ فهو يشجّعني على الإبداع والكتابة، ويملك قلماً بديعاً ينقط كلمات سحريّة، ولا يمكن لمن يملك قلماً كقلمه أن يكون مغتصباً مجرماً.

وظللتُ أتعامى عن تلك النّظرات التي أراه يرمق اليتيمات بها، وأصمّ أذني عن الصّفات النّابية التي يصفه الأيتام بها، وأظلّ أحلم بالكتابة وعوالم الشّهرة والإبداع التي وعدني بأن يدفع بي إليها أن استمررتُ بالتّمرين على الكتابة وفق القواعد التي يلقنها لي الواحدة تلو الأخرى، دون أن أسأل نفسي لماذا لم يستطع أن يدفع بنفسه إلى تلك العوالم إن كانت ميسّرة له، وتدين لقلمه المعلّى ولأدبه الرّفيع كما يزعم؟ بدل أن يدّخرها لي ليدفعني نحوها، ويظلّ هو مجهولاً مدفوناً في ميتم قديم نسيه النّسيان.

في ليلة ما أيقظتني هدى من نومي، ووضعتْ يدها على فمي في إشارة آمرة لي كي أسير معها دون صوت، ثم قادتني في الظّلام المهيمن على المكان سوى بعض النّور الذي يتدفّق إلى الممرّ بين عنابر الغرف عبر النّوافذ الزّجاجيّة الصّغيرة التي تنفرج على الشّارع الخارجيّ الملاصق للميتم.

حدستُ -وأنا في طريقي المظلم الذي تقودني هدى فيه باتّجاه الطّابق العلويّ عبر ارتقاء الدّرجات الباردة الكثيرة التي تنقلنا من الطّابق الأوّل إلى الطّابق الثّاني- أنّها تأخذني لأكون شاهدة عيان على مهزلة ما من مهازل أفراح الرّمليّ التي كنتُ أؤمن في قرارة نفسي بوجودها، لكنّني أنكر إيماني بها أمام الجميع.

لكنّني لم أحدس أنّ هدى ستقودني إلى حمّام مديرة الميتم الذي يطلّ من كوّة صغيرة مخصّصة للتّهوية الدّاخليّة على حجرة نومها، لأرى منها أفراح

الرّمليّ عارياً مثل خنزير بريّ بنيّ اللّون، وهـو يسـافد مـديرة الميـتم النّحيلـة مثل قشّة، ويعبّ القبل من جسدها الهزيل مثلما ينقر غراب قطرات الماء مـن داخل قصبة ملقاة على الطّريق.

لم يصدمني المشهد، ولم أحاول أن أتأمّله كثيراً، إنّما حرصتُ على الهـروب بعيداً عن المكان كي لا يكتشف أفراح الرّمليّ أو مديرة الميتم تجسّسي وهدى على خلوتهما الماجنة.

وعدتُ إلى العنبر الذي أنام فيه، واندسستُ سـريعاً في سـريري، وغطيـتُ وجهي بغطائي كي لا يسمع أحد صـوت لهـاثي، وتناسـيتُ المشـهد الفظيـع الذي رأيته قبل دقائق، وقرّرتُ أن أفكّر في أمرين لا ثالث لهما، وهمـا تعلّـم فنون الكتابة، ومساعدة أفراح الرّمليّ لـي في البحـث عـن مسـتقبليّ الأدبـيّ خارج الميتم.

*****

كتبت العاشقة: في الصّباح التّالي تعاملتُ مـع أفـراح الرّملـيّ، كـأنّني لم أرَ ليلته المنتنة وهو يندلق عارياً على تلك القصبة المتهرئة الفجّـة الـتي يمكـن أن تُسمّى امرأة على مضض، وتصرّفتُ بتجاهـل لحكايـة صـديقتي هـدى الـتي باحتْ لي البارحة بأنّها تحبّ المعلّم أفراح الرّمليّ، وأنّـه ضـاجعها أكثـر مـن مرّة في ليلة واحدة منذ أسابيع، وأنّه أخبرهـا أنّـه يشـتهيها، وأنّـه سـيتزوجها عندما تكبر، وسيصحبها معه إلى العوالم الجميلة خارج الميتم، وسوف ينجـب منها أطفالاً ذكوراً وإناثاً ليكونوا أسرة كبيرة سعيدة.

لكنّـه بـدأ يتجاهلـها، ويصـبّ اهتمامـه علـى غيرهـا مـن فتيـات الميـتم وقصباته القبيحات اللّـواتي يطمـح في أن يفترعهـنّ الواحـدة تلـو الأخـرى بشبق ديك أوحد يعرّش علـى دجاجـات مزبلـة صـغيرة؛ لـذلك لا يتوقّـف

كثيراً عند إشكاليّات الجمال وتفاصيل الأنوثة والسّن وأدبيات العمل وأخلاقيّات المعلّم وضمير المهنة، بل يفكّر في شيء واحد، وهو رحلة ذكره في أرحام الإناث أيّاً كنّ، ومتى أُتيح له أن يقفز عليهنّ، واصفاً نفسه بحصان أصيل جموح متى اشتهى قفز على أنثاه، وسافدها، أشاءتْ ذلك أم أبتْ، حتى ولو كانت طفلة يتيمة ليس لها في الدّنيا من يدافع عنها، ويحمي شرفها من الاستباحة.

لكنّني لم آبه كثيراً برواية صديقتي هدى، ووصمتها بالافتراء على معلّمنا، وفسّرت افتراءها هذا بعقدتها من الرّجال منذ أن اغتصبها عمّها في طفولته مستغلّاً أنّ لا أبّاً لها يدافع عنها بعد أن ابتلعه التّراب، ولا أمّاً تطالب بحقّها بعد أن هجرتها لتتزوّج من أحد أقاربها الأرامل، وسافرتْ معه حيث يعمل في جزيرة بتروليّة نائيّة.

وظلّ عمّها الشّاب يغتصبها حتى تعلّقت به، وعشقته، وطاب لهما زنا المحارم إلى أن اكتشف بعض الأقارب هذه العلاقة الآثمة التي تجمعهما، فأبلغوا الشّرطة عنهما، فافتضحتْ حقيقة الأمر، فأسلمتها الشّرطة إلى الميتم ليتولّوا رعايتها، في حين زجّت بعمّها في السّجن، ومنذ ذلك الوقت لم تسمع شيئاً عن عمّها العشيق، وغدت عندها عقدة من كلمة عمّ التي تنتفض كلّما سمعتها، وتجهش ببكاء محروق حتى تتشنّج أوصالها، وتقع أرضاً مستسلمة لنوبة صرع أمام رعب الجميع، وقلّة حيلتهم في مساعدتها، أو إنقاذها ممّا هي فيه من معاناة.

*****

كتبت العاشقة: اقترب أفراح الرّمليّ منّي على ارتقاب من أزواج عيون كثيرة في الصّف، وربتَ على كتفي بأبوّة ملفّقة، وطلب منّي أن أقرأ

على جمهور الصّف ما كتبتُ من قصّة متخيّلة حول الأبوين المتخيّلين في صبيحة عيد ما، فشعرتُ بطولي يزداد شبراً أو شبرين فخراً بقدرتي على الكتابة، ونحتها من الصّخر، وبدأتُ أقرأ النّص بصوتي المبحوح الذي يصفه أفراح الرّمليّ بصوت الجنيّة المبدعة .

*****

كتبت العاشقة: لم أعد أفرق كثيراً بين سخرية أفراح الرّمليّ منّي وبين مديحه لي، لكنّني أدركتُ تماماً أنّي أتقدّم كثيراً في الكتابة بفضل توجيهاته ورعايته لي، وتصحيحه المستمرّ لمساري في الكتابة، فأراه عالياً سامقاً في عالم القلم، حتى ولو كان أسفل سافلين في مدارج الأخلاق، وخائناً رعديداً لأخلاقيّات التّعليم والعلم والإنسانيّة؛ فهو ليس أكثر من ثعلب خائن يسطو مرّة تلو الأخرى على أجساد فتيات يتيمات ضعيفات، فيأكل لحومهنّ، ويشلع عظامهنّ في البعيد.

*****

كتبت العاشقة: كنتُ أرغب في أن أفوز بالمسابقة الإبداعيّة التي نظّمتها مديرية دور الأيتام في حقل الكتابة عن مدينتهم الجميلة، وقد أخذني أفراح الرّمليّ في جولة راجلة في النّواحي الجميلة من المدينة لأستطيع الكتابة عن جمالها.

كانت تلك المرّة الأولى التي أرى المدينة فيها بحريّة وتمتّع، تمنّيت عندها لو أصدف الضّحّاك في الشّارع، فأطير إليه، وأضع كفّي في كفّه، ونهرب بعيداً نحو الزّقاق، لكنّني لم أجده، وبقيت مستسلمة لكفّ يمين أفراح الرّمليّ، وهو يجرّني خلفه في الشّوارع بخطواته الكبيرة المتباعدة، وقامته المتغوّلة على ظلّ جسدي الصّغير تقودني أينما شاء أن يقودني،كأنّني مذنبة يجرّها وراءه.

لاحظتُ يومها -لأوّل مرّة- أنّه يلبس شعراً مستعاراً ليداري به صلع رأسه، لكنّه لا يستطيع أن يداري به ذلك البهاق الذي ينزلق من أسفل فروة رأسه حتى يصبّ في جلد رقبته، ثم يندلق في جلد ظهره، ولاحظتُ كذلك أنّ كرشه يسبقه بشبرين أو ثلاثة وهو يسير، وأن حذاءه كبير مثل مركب يطفو على سطح البحر.

كانت الرّحلة ممتعة إلى حدّ كبير بعد أن نجحتُ في تجاهل خوفي من أن يجرّني إلى غرفة ما في المدينة لأجل اغتصابي، وركّزتُ اهتمامي على أن أكتب نصّاً جميلاً يستطيع أن يقتنص الفوز بجائزة المديريّة لأثبت لنفسي وللمشرفات على الميتم ولأترابي من اليتيمات أنّني وُلدتُ لأكون كاتبة ماهرة حاذقة، ولستُ مجرّد صغيرة حمراء اللّون ملعونة كما ينعتنني.

*****

كتبت العاشقة: كان أفراح الرّمليّ الفخور الوحيد بي في الحفل البائس، وأنا أقرأ نصيّ الوصفيّ على جمهور المحتفلين بفوزي بجائزة المديرية في وصف مدينتي في حفل رسميّ صغير أعدّته المديريّة للاحتفال بأجمل عشرة نصوص كتبها الأيتام حول جمال مدينتهم، وكنتُ صاحبة الجائزة الخامسة في هذه المسابقة.

لقد قرأ الفائزون الأربعة الأوائل نصوصهم على الملأ، وجاء دوري كي أزّور مشاعري، وأخدع ذاكرتي، وأتخيّل أنّني أعيش فرحاً موصولاً في مدينة لا تعرف عنّي أيّ شيء، ولا يعنيها من أقداري شيئاً، ولا تدفع في سعادتي شروى نقير، ولا أعرف من فرحها وسعادتها سوى الكتابة المتخيّلة عنها.

كتبت العاشقة: لقد أصبح أفراح الرّمليّ الإنسان الوحيد الدّاعم لي في حياة الميتم، بعد أن خذلني الضّحّاك، ونسيني، وما عاد يجرؤ على الاقتراب من الميتم كي يهرّبني منه، منذ أن حرّكت مديرة الميتم شكوى ضدّه تزعم فيه أنّه قد سرق المال من خزينة الميتم قبل أن يهرب منه، يبدو أنّه خشي من أن تلقي الشّرطة القبض عليه، ففضّل أن يخذلني، وأن ينساني، بدل أن يجازف بحرّيته في سبيل تهريبي من الميتم كما وعدني عشيّة طرده منه.

لم يبقَ لي في الحياة بصيص نور إلّا من خلال الثّقوب التي تطلّ على وجهي من تشابك يدي أفراح الرّمليّ الذي يعدني بالعون والحماية ما دمتُ تلميذته المخلصة له، المطيعة له؛ لذلك ما استطعتُ أن أقاومه، أو أرفضه، أو أصرخ في وجهه، وهو يجرّني كعنزة صغيرة إلى غرفته المجاورة لغرفة مديرة الميتم، ويشرع يعرّيني، ويتعرّى في آن، ويفتضّ عذريتي وطفولتي وأحلامي الصّغيرة، وأنا صامتة مثل غراب مفجّع خائف ربطوا قدميه إلى سكّة حديد يعبرها قطار في القريب كي يفرمه تحت عجلاته الحديديّة الملتهبة.

لم أفعل أيّ شيء سوى الاستسلام لشبق أفراح الرّمليّ الذي اكتشفتُ في تلك اللّيلة أنّ له صنان ينبعث من كلّ مكان في جسده، وأنّ كرشه الضّخم الذي يرتجف بشهوة زلقة دهنيّة هو من أنقذني من أن يغور عضوه في أحشائي أكثر فأكثر، وأنّ لعابه يغدو دبقاً مقزّزاً عندما يتنزّى في حلقي، وهو يقبّلني، ويقضم شفتي المرتجفتين.

في تلك اللّيلة رأيتُ وجه أمّي لأوّل مرّة في حياتي، كانت تطلّ على روحي من كوّة كابوس مرعب، رأيتها تلملم ثيابي الممزّقة، وتبكي بالقرب من فخذي على الدّم المندلق من ذبح عذريتي، لكنّني لم أبال بدموعها، أو بتفجّعها، وأدرتْ ظهري لها، وآثرتُ أن تبكي وحدها دون أن أشبع تحديقاً

في وجهها الذي رسمته ألف مرّة بأشكال مختلفة وسحن متفاوتة، وأنا أتساءل كيف يكون وجه أمي؟ أتراه وجهاً جميلاً فاتناً كما يجزم أفراح الرّمليّ كلّما حدّثته عن أملي بأن أرى وجه أمّي في يوم ما.

لم تكن الكوّة التي تطلّ أمي منها نورانيّة كما تكون كوى الأمّهات الطّاهرات، لم تكن إلّا ظلاماً في ظلام، يجرّ روحي إلى المزيد من الإعتام والتّيه والفزع.

*****

كتبت العاشقة: كنتُ أحاول قبل أن ألتقي مجبرة بأفراح الرّمليّ أن أبني لي إدراكاً ما بما يحدث في الشّارع الوطنيّ كما كان يسمّيه الضّحّاك الذي كان منكبّاً على الثّقافة والقراءة ومتابعة الأخبار السّياسيّة على خلسة من الأوامر المشدّدة لمديرة الميتم بخصوص عدم متابعة الأخبار في التّلفاز، وكنتُ أتبعثر أكثر وأنا أحاول أن أركّب صورة ما مفهومة لطفولتي حول ما يجري في عوالمي وعوالم من حولي من بشر تسميهم معلّمة التّاريخ والتّربية الوطنيّة "مواطنين في دولتنا العظيمة"، لكنّني منذ أن أصبحتُ لقمة سائغة مشتهاة في فم أفراح الرّمليّ لم يعد يعنيني أيّ شيء حول الأوطان أو المواطنين أو الأحداث والمصائر، بل حتى لم يعد يؤرّقني من أكون، أو إلى من أنتمي؛ فقد خذلني الجميع، وغدوت وحدي معي، ولم يعد لي منّي سوى الأنفاس الإجباريّة في حياة جئت إليها مكرهة باغضة مبغوضة، وفقدتُ الثّقة أو الأمل في الأوطان أو في أمّي وأبي أو في أن يعود الضّحّاك لينقذني من هذا الجحيم الدّنيويّ المهول، ولم أعد أملك إلّا أن أسير وراء رغبات أفراح الرّمليّ كلّما ناداني للسّير وراءه مثل نعجة تسير ذليلة خلف القصّاب إلى المسلخ.

كتبت العاشقة: لقد حدّثتُ هدى باغتصاب أفراح الرّمليّ لي، لكنّها لم تأبه بما بحتُ لها به، وظلّت تمسح أرض الغرفة بخرقة قديمة مبلّلة بهدوء دون مبالاة بكلامي، كأنّها لم تسمع أيّ كلمة ممّا قلتها لها، وظلّت تتجاهل هذه الواقعة، وتحدّثني عن حبّها لأفراح الرّمليّ، وبوعده لها بأن يتزوجها، وأن يكوّنا معاً أسرة كبيرة هانئة تعوّضها عن وحدتها وأسرتها التي فقدتها بموت الأب، ورحيل الأم، وجريمة العمّ.

وظللتُ أسمعها تتحدّث عن أحلامها الموهومة التي استمرّت تؤمّل نفسها بها حتى بعد أن تقاعد أفراح الرّمليّ، وترك الميتم، وأصبح مجرّد شبح هائم لوحش أسطوريّ كان يفزّع المكان ومن فيه، ويأكل أجساد العذارى، ويشرب دموعهنّ.

وعندما كفّت هدى عن رواية قصتها مع الشّبح أفراح الرّمليّ، دفنتُ حكايتي معه في أعماق روحي، وكفرتُ أكثر بأمّي وأبي وبالأوطان والمواطنين وبالمعلّمين الأشباح، ولم يعد يعنيني في الحياة سوى حلمي الملحّ بأن أغادر الميتم، وأن أعيش حرّة خارجه كيفما أشتهي.

النّسيان الحادي عشر

الغيبوبة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"ما أسخف الحبّ الذي ينتهي بتوبة عنه!"
"ما أعظم الله عندما يختار الأشياء الجميلة لنا!"
"فقط عندما نُعشق ونُعشق نشعر بالعدالة الأرضيّة"
"محطّة نهاية الحبّ هي أسخف المحطّات في الحياة"
"كيف أصبحت السّماء أقرب من الأرض عندما عشقتكَ؟"
"الحبّ الحقيقيّ يأتي دون شروط"
"الحبّ ليس أخذاً ذكيّاً، بل عطاء برغبة كاملة"

منذ أسبوع كامل وبهاء في غيبوبة صامتة تسرقها إلى عوالم لا يدري ما تراها تكون، لقد دخلتْ في غيبوبة منذ تلك اللّيلة التي قرأها عليها الجزء المخصّص في مخطوطتها لقصّة بطلتها العاشقة مع معلّمها أفراح الرّمليّ.

ليلتها كانت تسمع ما يقرأ لها ممّا كتبتْ في مخطوطها دون ابتسامتها المعهودة، لم يرَ في عينيها بريق الحياة أو الفرح أو دهشة السّماع، كانت تبدو له كمن تتابع بعينيها سطوراً قد عاشتها لحظة بلحظة قبل أن تكتبها، لم يرَ في عينيها سوى جليداً لا ينتهي، وصمتاً لا يعرف نطقاً.

قبل أن ينتهي من القراءة من الجزء الذي خصّصه للقراءة في تلك اللّيلة رأى في وجهها إعياء لم يره من قبل، ووجد في جسدها برودة لافحة في حين كان كفّاها يتفصّدان عرقاً.

ظنّها متعبة تريد أن تستسلم للنّوم، وما ظنّ أنّها كانت تلقي بنفسها في ثغرة من ثغرات النّسيان، أو أنّها تسلم روحها لنوم طويل لا ذكريات فيه،

حتى لو كانت ذكرى ابتسامة كانت تتقافز على شفتيها كلّما رأتْ وجه الضّحّاك يهلّ عليها.

الطّبيب المختصّ بالحالات المشابهة لحالتها صمّم على نقلها إلى المستشفى لتكون تحت الإشرافّ الطّبيّ الحثيث جازماً بأنّ هذه المرحلة من مرضها قد تكون آخر محطّة لها قبل الرّحيل عن عالم الأحياء، والمستشفى بما فيه من وسائل الرّعاية والاهتمام والرّفاهيّة هو المكان الأمثل لرعايتها إلى حين مغادرتها للحياة.

*****

يشعر الضّحّاك بأنّه قد أخطأ عندما تعجّل بنقل بهاء إلى المستشفى المختصّ، فقد كان عليه أن يصمّم على بقائها في البيت على أن يقوم هو برعايتها إلى حين تستيقظ من سباتها الذي لن يطول، ولن يكون حتفها وفق ما يحاول الطّبيب أن يقنعه به؛ فهو يرفض تماماً أن يقبل بترّهات الرّحيل والمحطّة الأخيرة التي يتشدّق الطّبيب بها، ويصمّم على أنّ حبيبته لن تخذله، ولن تتركه وحيداً في العالم، وسوف تستيقظ في القريب ليكملا الحياة معاً؛ فهي تحبّ طريقته في قراءة مخطوطتها، والمخطوطة كبيرة، وتحتاج وقتاً كثيراً ليقرأها لها، وليكمل كتابة رواية حبّهما العظيم، إنّها الرّواية التي يجب أن يقدّمها هدية للبشريّة باسمها وباسمه.

كلّ ما في الأمر أنّ بهاء أرادت أن تأخذ ضجعة طويلة لتستيقظ بعدها في كامل ألقها وأنوثتها وسحرها وبهاء ذاكرتها، وهو سينتظرها حتى تستيقظ، فهي أشجع من أن تهرب من كلمات كتبتها.

هو يدرك أنّها قد انزعجتْ عندما قرأ لها آلامها مع أفراح الرّمليّ، ويعلم تماماً ما معنى ذلك الأتون الذي أوقد الوجع والحقد والألم في نفسها عندما

ذكّرها بقصّتها معه؛ فمعلّمها الإبليسيّ لم يكن أكثر من شيطان رجيم أحرق روحها الطّاهرة في محرقته الذّهبيّة المسحورة في درب بحثها عن الكلمة والمجد المصنوع منها لتكون طوقها الذي ينقذها من الميتم، ويخرجها منه في أقرب وقت ممكن.

هو كان من الشّياطين التي كانت في انتظارها في جحيم الحياة بعد أن ألقى بها والداها في جحيم الشّارع نهباً للدّروب والمياتم والبشر المتوحّشين.

*****

رفض الضّحّاك أن يغادر غرفة بهاء على الرّغم من إلحاح الأطبّاء عليه لمغادرة المكان، وصمّم على أن يستلقي على أريكة صغيرة بالقرب من سريرها إلى أن تستيقظ، وأمام إصراره العنيد على ذلك نزل الأطبّاء عند رغبته، وتركوه إلى جانبها، وليس له منها إلّا مخطوطتها التي شرع يقرأ فيها فصلاً جديداً عن ذلك العجوز كريم وهداني الفلّ الذي تلقّف بهاء عندما غادرت الميتم مجبرة؛ لأنّها بلغت سن الثّامنة عشرة من عمرها، وغدا لزاماً عليها أن تغادره حيث لا مكان فيه لطفلة يتيمة أصبحت على غفلة من الزّمن امرأة ناضجة فاتنة.

ذلك العجوز كان قد رآها في إحدى زياراته إلى الميتم ، عندما كان يتردّد عليه وعلى غيره من دور الأيتام والمستشفيات ودور رعاية المسنّين متبرّعاً لهم ببعض ماله الذي كان ينفقه بسخاء كي يداري خلفه مصادره المحرّمة في جني المال وكنزه .

كان كريم وهداني الفلّ يصمّم على أن يصدّر ابنه الوحيد الأشهب كما أسياده في واجهة زيارته الخيريّة المزيّفة ؛ إذ كان يجيد أن يخفي فساده وماله المغموس في دم الكادحين المسحوقين خلف نظرات الشّفقة التي يستقطبها

ابنه برأسه الكبير وجسده الضّامر الصّغير ومشيته الزّائغة، وحروفه المرتجّة؛ فقد وُلد محمّلاً بعدد من الإعاقات الجسديّة والعقليّة التي ورثها من دماء والديه المعكّرة بسبب قرابتهم اللّصيقة، ومن جرائر المال الحرام الذي نُشّأ فيه، ونما في سخامه.

عندها كان كريم الوهداني الفلّ عجوزاً متهدّماً في بداية العقد السّابع من عمرها، وكانت ترافقه زوجته العجوز ذات الملامح الحادّة، والمشية التي تميل إلى اليمين؛ إذ كانت تعاني من عرج واضح أثّر على عمودها الفقريّ، وحرف جسدها ومشيتها نحو اليمين، وكان التّيه بأصولها الشّريفة المزعومة هو مرضها الملازم المتنامي الذي يجعلها تعتقد أنّ أنفها الصّقريّ النّافر عن وجهها بمقدار شبر أو يزيد هو علامة من علامات نسبها الشّريف المزوّر، متجاهلة أنّه دليل على أنّها تنتمي إلى سلالة الطّيور الجوارح، لا إلى سلالات الأشراف والبررة.

تلك العجوز المتعالية -ذات صنان العرق الذي يفوح من تحت إبطيها كلّما رفعت ذراعيها متباهية بأسوارها الذّهبيّة المرصّعة بالأحجار الكريمة- لم تحبّ بهاء منذ وقعت عيناها عليها، وراق لها أن تلقّبها بلقب الحمراء الملعونة، كما تلقّبها معظم مشرفات الميتم كي تنتقم لسمرتها المتفحّمة وأنوثتها الموتورة من بهاء الفاتنة ذات الحمرة القاتلة، والجمال الفتّان.

أمّا ذلك العجوز كريم وهداني الفلّ، فقد عاهد نفسه على أن يطعمها بعضاً من حرقة هذه الحمراء الفاتنة مهما كلّفه الأمر، وهو من كان لعابه يتشظّى في فمه الصّغير المرتخي العضلات الواقع تحت شنبه الأرنبيّ الصّغير، وهو يرقبها تتقافز أمامه كمهر فردوسيّ مجنّح لا يطير إلّا في سماوات حمراء؛ لذلك كان في انتظارها على باب الميتم عندما غادرته مجبرة في صبيحة يوم

خريفيّ تعس، ووهبها غرفة بحمام ومطبخ صغير لتعيش فيهـا، ومثّـل عليهـا دور الأب الرّاعـي الحـاني، ووهبهـا وظيفـة صـغيرة في إحـدى المؤسّسـات الخيريّة التي يديرها كي يقرّبها منه، ويجعلها تدور في مداره، وتعيش في ظلّـه، ولا تملك أن تبتعد عنه.

لقد أبدت بهاء نشاطاً كبيراً في عملها، وتفانـت في خدمتـه إلى أن وهبهـا كريم وهداني الفلّ وظيفة أفضل في تلك المؤسّسة، وأسند إليهـا دور الكتابـة الإعلاميّة عن تلك المؤسّسة؛ فقد لاحظ أنّها تملك موهبة عملاقـة في الكتابـة الوظيفيّة والإبداعيّة، وأظهر لها سـعادة مفتتنـة بلغتهـا، وبـات يغـدق عليهـا باهتمامه وحنانه وماله، ويعدها بأنّه سـوف يرسـلها للدّراسـة في الجامعـة إنْ هي أحسنت الإخلاص له، وتقدير محبّته لها.

هي ظنّتْ أنّه يبغي إخلاص الابنة المطيعة والرّبيبة الطّاهرة المتفانيـة؛ لـذلك فقـد تفنّنـتْ في الإخـلاص لـه طمعـاً في إرضـائه، لعلّـه يفـي بوعـده لهـا، ويساعدها في أن تكمل دراسـتها في الجامعـة في كليّـة الفنـون المسـرحيّة الـتي تحلم بالالتحاق بها، لكنّه كان يبغي منها إخلاص العشيقة التي يشتريها بمالـه كي تدفع الثّمن له من جسدها متعة ولهواً وصبابة.

لم ترفض ذلك إلّا لبعض الوقت، لكنّها عندما أيقنتْ أنّها ستعود من جديد إلى الشّارع وحيدة معدمة باعتْ جسدها لـه؛ لعلّـه تحصّـل بثمنـه بعضـاً مـن الأمن والرّاحة والرّعاية والأمل في المستقبل.

لكنّه كان أضعف من أن ينالها كاملة، وقـد سـرقت الشّـيخوخة فحولتـه، وقصفت ذكورته، ولم تبقَ له منها سوى التّمنّي والتّشهّي، فكان يصـنع لذّتـه من شعوره بالفخر بأنّه يملَك هذه الحمراء الشّـابة الملتهبـة الـتي يصـمّم علـى تعريتها بيديه، وتمزيق ملابسها الواحدة تلو الأخرى، وهـو مـن اشـتراها لهـا

بمبالغ ماليّة كبيرة، فيسعد بذلك، ويشعر ببقايا الرّجولة فيه تتحرّك بضعف وهو يراها عارية أمامه طوال اللّيل مثل جارية في سوق النّخاسة يُسمح لمن يرغب في شرائها بأن يشبع عينيه منها، وأن يطلب منها أن تستدير، وأن تنحني كي يرى أيّ مستور من جسدها لا يعلن بصراحة عن وجوده المثير إلّا بالتّثنّي والتّمايل والانحناء إلى الأمام والخلف.

لم يستطع أن يحصد أنوثتها بشكل كامل، لكنّه أذلّها بما يكفي لأنّ يحرق فرحها بأنوثتها، لقد كان بمثابة السّيد الخصي، وكان عليها أن ترضي هذا السّيد الموتور برجولته، وأن تقنعه بفحولته عبر تمثيلها للفرح والافتتان برجولته؛ لذلك عرفتْ يوماً تلو يوم كيف تتقن دور الجارية الفاسقة التي تتساقط نفسها أنفساً، وهي تتلذّذ شهوة في حضن سيدها العنين.

وهو لقاء تمثيلها الشّبق كان يفيض عليها بماله فرحاً بدورها الذي تمثّله بإتقان كاد يقنعه بأنّه قادر على أن يفتضّ عذريّة ألف جارية عفيّة في ليلة واحدة، وأنّه لم يفقد فحولته منذ أكثر من عشرين عاماً في معتقل صحراويّ جاف عندما اكتشفتْ دولته مؤامرته مع العدوّ ضدّها، فأذاقته العذاب ألواناً حتى قتلتْ ذكورته، فخرج من المعتقل متدثّراً بالصّلاح والزّهد ليخفي عنّته وخياناته.

لقد تمرّنتْ طويلاً كي تجيد هذا الانفصام الذي فصم روحها عن جسدها، وجعل جزءاً منها يعتقد أنّ الفحولة هي فكرة على الورق لا وجود لها على الواقع، أمّا الجزء الآخر منها، فقد اعتقد أنّها دمية حمراء مثيرة ملعونة لا يستطيع أن يضاجعها رجل أيّاً كان، إنّما هي ترياق مسكّن ناجع لألم الشّهوة، وباتت تشعر بأنّ معلّمها أفراح الرّمليّ أصابها بلعنة تحرّمها على الرّجل أجمعين.

كانت تؤمّل نفسها بأن تحصل على ثروة من العجوز المتصابي كريم الوهداني الفلّ، لكنّ الجلطة الدّماغيّة سبقتها إليه؛ فأصابته بشلل كامل، فأصبح أسير قرارات زوجته التي حبسته في في غرفته إلى جانب ابنهما المسخ الذي بات وحشاً مسعوراً منذ وصل إلى سنّ البلوغ، وبدأت الرّغبة تجأر في جسده المحروم، فقطعتهما عن العالم، وحبستهما خلف أسوار قصرها الباهي، وألقتْ ببهاء في الشّارع مرّة أخرى، وهي لا تملك من الدّنيا سوى آلامها وانفصامها ومواهبها الشّبقة في إسعاد الرّجال وجمالها الأحمر الفتّان، وجرح عميق في روحها وأنوثتها وكرامتها، وسنين عددها عشرون تُعدّ وتُحصى بمقدار ألمها ووحدتها وحرمانها.

*****

كان الضّحّاك مستغرقاً في تأمّل وجه بهاء النّاجي الوحيد من محرقة روحها في رحلة حياتها المضنية، فهو ما يزال يملك طهارته الأزليّة على الرّغم ممّا لحق بها من تدنيس وتلويث على أيدي البشر الملاعين، لكنّه لا يرى منها إلّا طهرها وسحرها الأحمر الذي طمع فيه الطّامعون، وهي وحيدة عزلاء من أيّ حماية أو دعم أو نصير، لكنّها الآن في رعايته، ولن يستطيع أيّ بشر أن يجرؤ على تدنيس حمرتها المقدّسة بعد الآن.

سوف يمزّق تلك الصّفحات التي خطّتها بهاء عن أفراح الرّمليّ وكريم وهداني الفلّ، وهكذا سيعدم هذا الوجع بقرار قطعيّ لا يقبل الاستئناف، ويدفن هذه الذّكرى في النّار؛ فمرض بهاء سوف يجود عليها بنسيان هاتين القصّتين الأليمتين، وهو من يملك أن يطعمهما للعدم بمجرّد أن يمزّق هذه الصّفحات من المخطوطة، وبذلك ينتهي من الوجود وحشان اسمهما أفراح الرّمليّ، و كريم وهداني الفلّ.

مرّ أسبوعان وبهاء ما تزال في غيبوبتها الملغزة، وهو يعيش على أعتاب بوابة هذه الغيبوبة، فيقيم معها في غرفتها في المستشفى، ويكتب ليل نهار في روايتهما "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" التي شرع في كتابتها ليقرأ البشر أجمعون قصّة حبّهما، ولا يسرقه من خلوته هذه سوى انشغال لبعض الوقت بكتابة عاموده الدّائم في مجلّة المدينة.

لم يستطع هذا المساء أن يفكّر في أيّ شيء خلا فكرة العشق؛ لذلك كتب مقالة عن القلوب التي تعيش لأجله، وتعصي أصحابها في سبيل الانتصار له، وتأمّل وجه بهاء طويلاً، ثم قرأ المقالة لها قبل أن يرسلها إلى صديقه رئيس تحرير مجلّة المدينة عبر بريده الإلكترونيّ.

النّسيان الثّاني عشر

وفا ذيب

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الرّحيل المقدّس هو ما يكون صوب دواخلنا"
"الحبّ الحقيقيّ لم يأتِ بعد"
"القادم هو الأجمل"
"الحبّ هو تاريخ جديد للقلوب"
"كلّ شيء تغيّر عندما جاء الحبّ"
"الحبّ هو ما يواسينا عندما يخذلنا العالم بأسره"
"الحياة تخدعنا بشكل دائم، إلّا عندما نعشق، فنحن مَنْ نخدعها"

كتبت العاشقة: وأنا طفلة غِرّة جاهلة كنتُ أعتقد أنّ الأرض يسكنها البشر الطّيبون الذين ينتصرون دائماً على المخلوقات الشّريرة، لكن عندما كبرتُ خاب أملي خيبة كبيرة، كما يخيب أملنا جميعاً عندما نكتشف أنّ الأرض يعمرها أشباه البشر وأنصافهم وأرباعهم وأثمانهم والمسوخ والوحوش والأرواح الشّريرة الهائمة، وأنّ الكائن النّادر الوجود في هذا الكوكب هو الإنسان الحقيقيّ، وأنّ الأشرار هم من ينتصرون في نهايات القصص الحقيقيّة.

استسلمتُ كما نستسلم جميعاً لهذا الاكتشاف القبيح القاسي، وطفقتُ أبحثُ عن الإنسان الحقيقيّ في بطون الكتب؛ إذ إنّ البحث عنه هناك أسهل بكثير من البحث عنه في الواقع؛ هناك يمكن أن نجد إنساناً نبيلاً بقلب كبير وعقل نيّر وهّمة سمحة.

بعيداً في دنيا الأحلام طرتُ كطفل صغير يحلم بأن يحلّق في الجوّ مثل عصفور صغير حرّ يعانق عنان السّماء، لقد حلمتُ باحتضان الشّمس مهما

طال الظّلام، لكنّني ما اعتقدتُ أنّني سأكون محظوظة في لحظة غفلة زمن حين يقفز إنسان ما من سفر كتبي وأحلامي لأقابله وجهاً لوجه في الحياة.

اسمه وفا ذيب، كان في الرّابعة والأربعين من عمره عندما قابلته، لكنّه كان يبدو في نشاط وحيوية رجل في الثّلاثين من عمره، أمّا تحفّزه ونشاطه فكانا بمقدار ما يملكه شاب في العشرين من عمره، إلّا أنّ قلبه كان طفلاً بريئاً لا يعرف القسوة أو الخبث أو اللّؤم.

قابلته قبل أن أقابله، وعرفته قبل أن أعرفه؛ فلطالما قرأتُ له ما يكتب من مقالات في المجلّات والصّحف عن علم فلسفة الجمال التي يروق لي أن أقرأ فيه.

قرأته تماماً قبل أن ألتقيه حقيقة في الواقع عندما قرأتُ كلّ كلمة خطّها في كتابه الشّهير "الجمال القبيح الفتّان"، عندها زاد إعجابي به، وغدوت متابعة نهمة لكتاباته وإصداراته.

عندما جاء للمشاركة في مؤتمر عن علم الجمال في مدينتي، حاولتُ أن ألتقيه بحجّة أنّني أريد أن أحصل منه على أعداد ورقيّة من صحيفة "الأصابع والكرسي" التي أرسل رئيس تحريرها بضع نسخ لي منها في يده، لكنّه ترك لي طرداً بكلّ الأعداد الورقيّة الصّادرة من المجلّة في مكتب استقبال الفندق الذي نزل فيه، ورفض أن يلتقي بي، أو أن يقبل دعوتي له على فنجان قهوة نحتسيه سويّاً ؛ لأنّه يرفض أن يخرج في عشاء مع امرأة لا يعرفها في مدينة يزورها لأجل عمل رسميّ محدّد.

حينها لم أبالِ برفضه للقائي، وأقنعتُ نفسي بأنّه لا حاجة لي بالاهتمام برجل فظّ مشغوَل بعمله وفلسفته وكتاباته، وما يجب أن يعنيني بحقّ هو أن أحصل على أعداد المجلّة، ولا شيء غير ذلك، أمّا ذلك الرّجل الذي يرفض

أن يقابلني، فقد تركته وشأنه وفق قراراته تجاه عدم لقائه بي، وغرقتُ من جديد في التزاماتي وعملي الذي لا ينتهي.

وظلّ صديقنا المشترك رئيس تحرير مجلّة "الأصابع والكرسي" يلحّ عليّ كي ألتقي وفا ذيب الذي يفخر بصداقته وصداقتي، وكنتُ أقول له دائماً ضاحكة: يا سيّد جبر، هذا الرّجل يهرب مني يا صديقي، ماذا أفعل له؟ أأخطفه وأكبّله كي يقبل باللّقاء بي؟ ماذا تفعل امرأة لرجل هارب منها سوى أن تخلي الطّريق أمامه ليهرب نحو البعيد، لعلّ القدر يقوده إليها من جديد عبر درب آخر. فيضحك صديقي جبر، وأضحك، ونترك النّقاش في هذا الأمر جانباً.

وقاد القدر وفا ذيب إليّ، وعُيّن رئيساً لرابطة "فلاسفة جمال المرأة"، فتعرّفتُ عليه بإلحاح من صديقنا المشترك جبر الذي صمّم على أن أزوره في مكتبه الجديد؛ لأنّه على حدّ قوله إنسان كبير القلب والعقل، ومعرفته مكسب.

ولأنّني أرغب دائماً بكسب النّاس النّادرين الذين قلّما ألتقي بهم في الحياة، فقد قرّرتُ في لحظة إصرار وفرض نفس أن أتعرّف على وفا ذيب بمنطق المداهمة المفاجئة دون أسلحة أو ذخائر أو إرهاصات مسبقة، ورآني أقف أمامه في مكتب رابطة "فلاسفة جمال المرأة".

كنتُ عندها أحمل نسخة من كتابه الصّادر أخيراً، دخلتُ إلى مكتبه بعد أن طرقت بابه على عجل، وقدّمتُ له نسخة من كتابه، وطلبت منه أن يوقّعها لي، فوافق على ذلك مرتبكاً منبهراً بمداهمتي الجريئة له. وكان سؤاله الوحيد لي في تلك اللّحظة: ما هو اسم عطرك، فأجبته بابتسامة واثقة: اسمه "السّحر القاتل".

بسهولة استسلم وفا ذيب لفضولي ولمداهمتي لعالمه بدماثته التي تكسو تصرّفاته وكلامه، وأفاض عليّ بابتسامته الكريمة الرّاقية التي يمطر بها من حوله بسخاء بادٍ.

فيما بعد اكتشفتُ أنّه قد تعرّف عليّ من بعيد بسؤال صديقه جبر عنّي، ثم دعاني إلى حضور أكثر من فعاليّة في رابطته الفلسفيّة لجمال المرأة، وكانت أوّل زهرة يضعها على روحي عندما سمح لي بأن أتحدّث عن حاجة المرأة إلى فلسفة الجمال في إحدى النّدوات التي يعقدها لذلك.

عندها دخلتُ إلى عالم وفا ذيب الإنسان، فتحتُ باباً سحرياً يقبع خلفه رجل بقلب شاسع الإنسانيّة، لقد هربت كتبي إليّ، وحضرت أحلامي من عالمها البرزخيّ المجهول، ورأيتُ نفسي لأوّل مرّة في حياتي أمام كائن شبه منقرض اسمه إنسان بحقّ.

لقد سمح لي بأن أدخل إلى عوالم روحه، وصمتَ عندما تجسّستُ على إبداعه وقلمه وتجاربه، وتغاضى عن إزعاج فضولي، وأنا أسأله عن تفاصيل تجاربه ومعاناته وإصراره على أن ينتصر على قهر الزّمان، وأمتعني بأجمل النّقاشات الطّويلة والمتشعبة في شؤون الحياة كاملة، وأصبح لي فجأة عرّاباً حارساً يحمي روحي من القبح، ويكون بوصلتي نحو نفسي ونحو البشر أجمعين.

لقد حدّثني عن تفاصيل حياته، حيث وُلد في أسرة علم طيّبة من أصول مهاجرة من جبال الشّرق، ثم خرج من مدينته المحافظة ليفتح صدره وقلبه وروحه وعقله للعالم كلّه، سافر إلى باريس ليحصّل دراساته العليا، ثم هاجر إلى استراليا لعقدين من عمره، ثم قرّر فجأة أن يعود إلى موطنه في الشّرق ليموت في المكان الذي نبت فيه على الرّغم من أنّ هذا الوطن لطالما تنكّر

له، ووصفه بالغريب المهاجر؛ لأنّ أسرته جاءت إلى هذا المكان منذ قرون هاربة من جور ما في أقصى شمال الكوكب، ولجأت إلى الشّرق المتوسّط الدّافئ، واندغمت فيه، وتعلّمت لغته، وأصبحت جزءاً منه، إلّا أنّ ذلك لم يمنع الهمس من أن يومئ له بلقب: الغريب اللاجئ.

لقد سمح لي بأن ألهو بفضول في مساحات روحه الشّاسعة، هناك رفلت بالسّعادة والمحبّة في أرض غريبة اسمها قلبه، لم يكن إنساناً عاديّاً، بل كان جمعاً من النّاس الطيبين في زمن القبح والرّدة والرّحيل والألم.

لقد كان لي فكرة وأرضاً شاسعة وإنسانيّة حاضرة، وأنا قد وطأت هذه الأرض بضربة حظّ ومنحة قدريّة لأنعم بحبّه الكبير لي، فأصبحت بفضله امرأة ناضجة يهدر الحبّ في أوصالها، وبسببه عرفتني أكثر، وأدركتُ -لأوّل مرّة في حياتي- أنّ الأحلام ورجال الكتب موجودون في مكان ما في هذا العالم.

كثيراً ما كنتُ أسأل وفا ذيب عن سبب حبّه العظيم لي، عندها كان يبتسم ابتسامته الهادئة الطّيبة التي يعرفها كلّ من قابله، ويقول لي بثقة واطمئنان: إنّ الله مع النّاس الخيّرة الطّيبة. فتشيع في نفسي أجمل معاني الإيمان العميق بأنّ الله لا يتخلّى عن عباده الطيّبين.

تعلّمتُ منه كيف يكون الإنسان كبير الرّوح والنّفس والأمنيات والأمل والإصرار على الرّغم من ضيق الظّروف والمعطيات، وكيف يكون كريماً محبّاً متسامحاً على الرّغم من ضنك الحياة، وكيف يستدعي الإنسان أجمل ما في نفوس من حوله من معاني الخير والعطاء عبر الحثّ والصّبر والملازمة الدّاعمة لهم والقدوة الحسنة، لقد أصبح عرّابي الذي يقودني نحو المحبّة والخير والعطاء، ويلحّ على نفسي وعلى أنفس من يعرفونه لأجل القيام

بأدوارهم الإنسانيّة بكلّ إيجابيّة وإخلاص، وعلّمني كذلك أنّ الإنسان الحقيقي هو أكبر من الحقد واليأس والضّعف والعنصريّة بأشكالها كلّها، بفضله غدتْ عندي مفاهيم جديدة حول الإنسان الحقيقيّ والرّجل الشّهم والمربي الفاضل والمؤمن الذي لا تهزّ الصّعاب إيمانه وإخلاصه وصدقه.

لقد أحبّني بجنون، لكنّه لم يطلب جسدي في يوم ما على الرّغم ممّا كنتُ أرى في عينيه من توق مستعر لأن يضمّني عارية إلى جسده الزّهريّ الفاتح اللّون والنّاصع الحنان، لقد انتظرتُ طويلاً أن يطلب بعضاً منّي لنفسه، لأهبه نفسي كاملة، لكنّه لم يفعل ذلك، وعندما طال انتظاري له، داهمتُ جسده بطريقتي كما داهمتُ حياته، فاستيقظتْ رجولته كاملة بي.

كان يمكن أن أعيش معه أجمل قصّة عشق محتملة في هذا الكون بعد أن ضاع الضّحّاك منّي، ولم يعد عندي أيّ أمل كي ألتقي به، كان يمكن أن يغدو وفا ذيب ضحّاكي الجديد، لكن الموت سرقه إلى عالمه الأسود القاتم عندما أصابته ذبحة قلبيّة، وهو في حضني، لقد قتله الفرح، وخنقته المتعة، فانسحق جسده الرّائق الحنون تحت وطأة جسدي الشّبق المتنمّر عليه.

لم أحزن لموته؛ فقد كنتُ أعلم أنّه قد مات بالطّريقة التي تسعده، وتوافق فلسفاته في الحياة؛ فقد مات في حضن المرأة التي يعشقها في لقاء جسد محترق، لقد مات وهو يمارس فعل الوجود والعشق. أخال أنّه كان سيختار هذه الميتة بالذّات لو كان له حقّ اختيار ميتته.

لقد ترك لي إرثاً عملاقاً من الحبّ والفرح وذكريات متع الرّوح والفكر والجسد، لكنّني لم أتوقّع أبداً أن يترك لي ذلك المبلغ المالي الضّخم الذي جعله هبة لي بعد موت؛ لقد كان يريد لي أن أعيش حياة باذخة

سعيدة، وأنّ أحقّق بماله كلّ ما حدّثته بأنّي أخطّط للقيام به عند توفّر الميزانيّة الكافية لذلك.

وإكراماً لعشقه الكبير لي، فقد استمتعتُ بكلّ ما اشتهيتُ أن أستمتع به كي تسعد روحه المقدّسة التي أثق أنّها تراقبني دون انقطاع، وتزهو بفرحي وسعادتي وحبّي الخالد له.

النّسيان الثّالث عشر

المستشفى

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"أكفرُ بالجسد الذي يسجن الرّوح"
"قلبه محيط قد غرقت فيه أسرار الدّنيا"
"ما يحويه قلبي من حبّ هو هديتي الخاصّة من الله"
"الحكمة هي صوت الجبناء في معظم الأحيان"
"لا معنى للحكمة إن كانت تقتضي أن نتخلى عن سعادتنا لصالح غيرنا"
"حبيبي مخلوق من رحم الأحلام"
"أنا مخلوقة من عناد الحبّ"

لقد قرّر الضّحّاك أن تعود بهاء إلى غرفتها في بيته بعد شهر كامل لها في المستشفى، هي لم تستيقظ، وطبيبها المعالج يؤكّد أنّها لن تستيقظ أبداً في يوم من الأيّام، وأنّ السّرطان سيأكل آخر ما تبقى من وجودها.

لكنّه يرفض أن يصدّق ذلك، ويؤمن بشيء واحد لا غير، وهو أنّ بهاء سوف تنتصر على الموت لأجله، وهو يصدّق حدسه، ويثق في حبّ بهاء له.

يسعده أن يرعاها، وقد سمح لأصدقائه الأربعة بأن يزوروها في أيّ وقت يشاؤون ذلك كي تأنس بوجودهم معها، حتى ولو كانت في غيبوبة تأخذها إلى البعيد، فكلّ منهم يجلس إليها بعض الوقت على التّناوب، ويحدّثها عنه وعن حياته، وهو يحدّثها كذلك عن تفاصيل صداقة خمستهم، إنّها صداقة عمرها عقود طويلة، قاسمها المشترك الأكبر هو الوحدة والغربة والألم والحيرة وحبّ الحياة وحلاوة المعشر وحبّ الأدب وممارسته سرّاً وعلانيّة.

لكن عندما تزورها سكرتيرته باربرا، فهو يرفض أن يسمح لها بأن تكلّم بهاء على انفراد؛ لأنّه يدرك تماماً أنّها ستمطرها بتفاصيل كاذبة عن عشق مزعوم بينها وبينه، وهو من يرفض أن تزعجها تلك السّكرتيرة المغرمة به وبأمواله بقصصها التّرّهات حتى ولو روتها لها بلغتها الإنجليزيّة الرّكيكة؛ لأنّها لا تعرف اللّغة العربيّة لتروي أكاذيبها وحقائقها بها.

لكن عندما يكون مع بهاء في خلوة دون زيارة أحد أصدقائه الأربعة لها، فهو يحمّمها بمساعدة باربرا، ويبدّل ملابسها، ويمشّط شعرها، ويبدّل لها أمصال الدّواء والغذاء، ويغيّر أكياس فضلاتها الطّبيعيّة، ويتأكّد مرّة تلو الأخرى أنّ أجهزة التّنفّس والإنعاش وتشغيل القلب صناعيّاً تعمل كما يجب، ويضع لها الورود في زهريتها الجميلة، ويقرأ لها بعضاً من جملها القصيرة المكتوبة على ورق نجوم "الأوريغامي" اللاّمعة، ويمسّد على شعرها الأحمر القصير حتى تمتلئ روحه فرحاً بها، محاولاً أن يبعد عن نفسه التّفكير في حنقه على حظّه اللّئيم الذي يحبس حبيبته في الغيبوبة، ويحرمه منها، في حين حبيبات الرّجال الآخرين مستيقظات للحبّ والحياة والفرح.

*****

يتابع الضّحّاك المقالات الطّبيّة والتّقارير وأوراق المؤتمرات والأخبار والأبحاث والأفلام المصوّرة المعنيّة بموضوع الغيبوبة، وينتقي منها كلّ ما يؤكّد له ولغيره أنّ الكثيرين ممّن دخلوا في غيبوبة أطالت أم قصرت استيقظوا منها بعد حين في تمام صحتهم واتّزانهم الجسديّ والصّحيّ والذّهنيّ، ويروي لبهاء ولأصدقائه الأربعة ولباربرا تلك القصص المفرحة عمّن استيقظوا من الغيبوبة على الرّغم من يأس الأطبّاء والنّاس من ذلك.

لكنّه يخفي عنهم جميعاً تلك القصص المؤسفة عن مرضى آخرين ظلّوا عالقين في غيبوبة لعقود طويلة؛ لأنّه يخشى أن تقتدي بهاء بهم، وتتمادى في سباتها، وهو لا يتحمّل فكرة حرمانه منها للمزيد من الوقت، ولا يطيق أن يرى تلك النّظرة المشكّكة التي يراها في عيني باربرا التي تؤمن بأنّها النّهاية لحبيبته النّائمة وفق ما يقوله الأطبّاء المعالجون لها.

وعندما يشعر بحاجة كبيرة إلى البكاء قهراً من حبيبته بهاء التي تصمّم على أن تحبس ذاتها في غيبوبتها، فهو يهرب إلى الحمّام، ويبكي هناك بحرقة دون أن تراه باربرا، فتتشمتْ بدموعه على امرأة لم تترك له منها سوى مخطوطة عملاقة من الحكايات التي تستحقّ أن تُنحر مع سبق الإصرار والتّرصّد؛ لأنّها موجعة أكثر ممّا يمكن أن يُحتمل.

*****

الضّحّاك يشعر اليوم بتعاسة شديدة؛ فها هو الشّهر الثّالث ينقضي، وبهاء ما تزال في غيبوبتها التي يطلق الطّبيب عليها صفة النّهاية، ويصمّم هو على تسميتها باسم الإجازة؛ لأنّه مصمّم على أنّها سوف تستيقظ أنّى شاءتْ ذلك عندما تشعر بأنّها قد أخذت قسطاً وافراً من الرّاحة الاختياريّة التي تقرّر شكلها ونوعها وزمنها وفق رغبتها وحاجتها؛ فلا بدّ أنّها ما تزال عنيدة صعبة المراس قويّة الشّكيمة كما كانت دوماً في طفولتها التّعسة المعذّبة، لقد كانت تواجه الدّنيا بصدر مستعد لأيّ عذاب، وكانت تمدّ لسانها سخرية لكلّ من يلقّبها بالحمراء الملعونة، ويخالها الآن تمدّ لسانها لمرض السّرطان ساخرة منه ؛ فحبيبته الحمراء لا يمكن أن تستسلم لمرض سفيه مثل مرض السّرطان.

ما يزال يقرأ لها ما كتبتْ في نجومها اللّامعة، وما يزال يحدّثها عن اشتياقه لها، وكثيراً ما يسمع الموسيقى معها، يختارها على ذوقه؛ فهو لا يعرف ما هو ذوقها الخاصّ في الموسيقى الكلاسيكيّة العالميّة.

عندما كانا صغيرين في الميتم كانت المتع جميعها محرّمة عليهما وعلى أطفال الميتم أجمعين، بما في ذلك متعة سماع الموسيقى، أمّا عزفها فكان ضرباً من المستحيل.

لكنّه يستطيع أن يخمّن أنّها ستحبّ ما يختار لها من موسيقى؛ لأنّه يختار لها الموسيقى التي تحرّك أحاسيسه التي ترتبط وشائجها بها.

لقد كتب عدّة فصول من روايتهما المشتركة "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وصنع أجمل حياة وتفاصيل فيها، فطرد منها الأشرار والألم والوجع والحرمان، واختار لها أجمل نهاية، لكن عليها أن تستيقظ من غيبوبتها ليعيشا النّهاية السّعيدة التي اختارها نهاية لروايته.

أمّا مخطوطتها فما تزال على قيد الحياة على الرّغم من أنّه فكّر أكثر من مرّة في تمزيق الباقي منها، وإطعامها لنيران المدفأة كي يحرق ماضيها الأسود عن بكرة أبيه، لكنّه ما يزال راغباً في أن يقرأ المزيد من فصول حياتها المعذّبة كما كتبتها هي؛ ليرى مقدار اختلافها وانزياحها عن الواقع الحقيقيّ الذي عاشته على امتداد نصف قرن، وعرف تفاصيله من صديقتها هدى.

أمّا الدّافع الحقيقي لإبقائه على المخطوطة على ذمّة القراءة؛ فهو خوفه من أن يكون إعدامه لها طالع شؤم على بهاء؛ فقد أرعبه خاطر عبث به، وألقى في روعه أنّ حبيبته ستموت إنْ أحرق مخطوطتها آخر ما تبقى لها من ماضيها ومن ذاكرتها المتهالكة.

إنّه يشعر بالتّعاسة لحظة تلو أخرى، حتى أنّها تكاد تشكّل صوت قرع قلبه؛ لذلك عليه أن يكتب عن السّعادة؛ لعلّه يخدع نفسه بخداعه للقرّاء الذين يأمل أنّهم يصدّقون كلّ ما يكتب لهم من ترّهات التّفاؤل، وروحه تختنق بحزنه ويأسه، وبكلماته المزيفة التي ينزفها أسىً على بوابة الانتظار.

يقرّر أن تكون مقالته في هذا الأسبوع عن السّعادة، ويفكّر في أن يكتب فيها كلمة واحدة لا غير، وهي بهاء؛ فهي معنى السّعادة عنده، لكنّه يتراجع عن الفكرة؛ فمن سيبالي بامرأة قد هربت إلى الصّمت، وتركته وحيداً في انتظارها يكتب رواية لها، ويمشّط شعرها، ويسمع موسيقى بلورتها الزّجاجيّة، ويفتح نجومها اللّامعة الملوّنة. من سيصدّق كلمات رجل تعصيه حبيبته؟ وتتجاهل نداءاته المكرورة لها؟

*****

كتب الضّحّاك مقالته الأسبوعيّة بصعوبة وبطء كاد يصدّه عن ذلك، لكنّه عاد، وصمّم على كتابتها كي لا يخذل صديقه رئيس تحرير مجلة المدينة، وعندما انتهى منها قرأها على نفسه أكثر من مرّة؛ لعلّها تبثّ في نفسه بعض التّفاؤل والتّحفيز على الصّبر في محنة انتظاره الملعون.

*****

إنّه الشّهر الرّابع الذي تقضيه بهاء في سباتها الصّامت المصرّ على رقدته، والضّحّاك ليس أقلّ عناداً من هذا السّبات في انتظار أن تستيقظ، وتكون له بعد طول حرمان وقطيعة، لا يعنيه كثيراً إن كانت تذكره أم لا، المهمّ أنّ تكون إلى جانبه ومعه.

الأطبّاء المشرفون على حالتها وافقوه على نقلها إلى بيته لإيمانهم بـأنّ لا أمل لها في الحياة، والموت في انتظارها سواء أبقيت في المستشـفى أم نقلـها إلى بيته، أمّا سكرتيرته باربرا، فهي تحـرص علـى أن تلفـت نظـره باسـتمرار إلى الانخفاض الحادّ والمستمرّ في وزن بهـاء، إلى جانـب تتبّعهـا للشّـحوب الـذي يعلو وجهها، ولتلك الهالات السّوداء التي تزعم أنّها تطوّق عينيهـا، أمّـا هـو فلا يرى في وجه بهاء إلّا قمراً أحمرَ يرقد بهدوء وسكينة دون حراك.

النّسيان الرّابع عشر
ثابت السّرديّ

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"في قلبي من الحبّ ما يكفي لأن أعيش عاشقة لألف دهر"
"الألم مادّة من المواد الأساسيّة المكوّنة للحبّ"
"أنْ تتألّم بشدّة يعني أنّكَ تحبّ بصدق"
"القلب تضنيه مسافات الفراق"
"الاطلاع على تهافت الحياة يدفع الرّوح إلى الهروب إلى السّوامق"
"كيف يمكن أن تكون رحيماً مع النّاس، وقاسياً مع نفسكَ؟"
"خذلان المحبّ هو ارتداد عن صورة الكمال"

كتبت العاشقة: حتى الآن لم أجد أيّ عمل يقبل بي، وما أزال أنفق من الأموال التي تركها لي وفا ذيب بعد أن استمتعتُ بها أيّما استمتاع، لقد عشتُ لأوّل مرّة في حياتي في حريّة وفرح وبحبوحة بفضل أمواله، وشعرتُ بأنّني أعيش أخيراً في مكان قد يكون وطناً لي، وأنا أجد ما أعتاش به دون ذل أو إهانة أو معاناة.

أفتقد وفا ذيب بشدّة، وأحلم بحبّ حقيقيّ آخر يقوده القدر لي لأعرف طعم الاستقرار والأسرة والهناء والخطوات الثّابتة نحو المستقبل.

*****

كتبت العاشقة: عرّفتني الأقدار دون قصد على سليم نزيل غرفة رقم ٤٨ في إحدى مستشفيات العاصمة، في لقائنا الأوّل لم يبتسم لي، وخيّل لي للحظات أنّه لا يراني، وقفتُ أمامه كمعاقبة أو تائهة أنتظر كلمة أو إيماءة

منه إلى أن شرع يحدثني بمقدار غريب من التحدّي والإصرار الذي ينعى بجزن جسده المتقضّب تحت ملاءة بيضاء صغيرة.

سليم ليس قصة من بنات أفكاري، وليس جريح ثورة تحوّل اسمه إلى رقم غرفة في مستشفى ناءٍ عن وطنه، بل هو شاب حُكم عليه جوراً أن يلزم الفراش طوال عمره بقدمين حزينتين قد تقلّصتا وضمرتا حدّ القصور، فبدتا كقدمي طفل صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره، مع الكثير من القروح والنّدوب.

سليم ذو الملامح الكسيرة، وذو العينين الغائرتين في جمجمة لا تقوى رقبته على حملها، سُرقتْ رجولته وإنسانيته كاملة في لحظة، السّارق هو طلقة واحدة لا غير من عدوّ غاشم، هي طلقة اقتنصتْ سعادته، وقطعتْ حبله الشّوكيّ بإثم متعمّد، واستقرّتْ في عظام ظهره بوقاحة صفيقة.

شهور طويلة أمضاها مابين اليقظة والغيبوبة، رأى فيها قوافل شهداء تمدّ الأيدي إليه؛ لتزفّه إلى أرض الأرواح حيث تنتظره الزّغاريد والتّهليلات والتّكبيرات، حاول بكلّ قوّته أن يمدّ يديه إليها، لكنّه عجز عن ذلك؛ فقد غادرته القدرة على الحركة وللأبد، وأصبح حبيس واقعه الجديد.

عندما استيقظ من غيبوبته وجد نفسه مشلولاً لا يقوى على شيء غير الحزن، وعلى تحريك ثقيل ليده اليسرى لا غير؛ فاحترف الصّمت والتّحديق في الفراغ حتى أتقنه، واعترافاً منه بالتّقدير ليده اليسرى التي تمرّدت على استحياء على الشّلل، فقد أهداها متعة يوميّة طويلة تتلخّص في نحت أخشاب شجر الزّيتون، وصنع تماثيل لوجوه باسمة سعيدة.

تحوّل سليم إلى صانع أفراح خشبيّة، وانحسرتْ حياته في حفر الخشب، ومتابعة رسائل الأصدقاء المفترضين عبر (الإنترنت).

تمنّيت من كلّ قلبي أن يبكي سليم لأنتحب بلا خجل رأفة به، لكنّه لم يفعل ذلك، وأخذ يمازحني، ويضحك بأريحيّة عجيبة، وطلب مني أن أرافقه في جولة في المدينة بعد أن يُشفى، فوعدته بذلك إرضاء لحزنه وألمي، فابتسم لي، وقد فهم معنى موافقتي المتحسّرة عليه، وقال لي بهدوء متربّص: يا صديقتي، أنا أعرف أنّني عاجز إلى الأبد، لكّني سأكون بالتّأكيد في ركب العائدين ولو كنتُ محمولاً على الأعناق، أنا عائد. صدّقيني.

لقد تعرّفت في المستشفى ذاته على ثابت، لقد التقيتُ به وهو يدرّج بهدوء وابتسامة عميقة، ويكابد ألمه المضني وهو حبيس استثنائيّ في مقعد رماديّ متحرّك، كان عندها يزور حجرات المرضى في مستشفى العاصمة متعاظماً على وجع عظامه المندكّة، ومصمّماً على أن يكون البلسم الجميل للمرضى الذين صادقهم جميعاً، وغدا زائرهم اليوميّ الثّابت، وبات يتناوب على زيارتهم والاطمئنان عليه، وعلى مرافقتهم طوعاً ولطفاً في درب المرض والوجع حتى يتشافوا، ويغادروا المستشفى، ناسياً أو متناسياً ببراعة عظامه المحطّمة في جسده بسبب حادث سير قاصم هاجمه، ولاكه، وكسّر عظامه، وكاد يجرّه إلى دنيا الظّلام حيث الموت.

كان حادثاً مدبّراً من مخابرات العدوّ لاغتياله، وشطب اسمه من مشهد المقاومة، فلا يمكن أن يحتمل العدوّ شخصيّة ثابتة في المقاومة وحقوق العودة مثل شخصيته الفذّة العنيدة.

كان المخطّط يقتضي أن يموت في هذا الحادث، وأن تنتهي أسطورته النّضاليّة، لكنّه نجا من الحادث بأعجوبة بعد أن تحطّمت عظامه، ورقد أشهراً في مستشفى المدينة التي كان يزورها لأجل المشاركة في لقاء شعبيّ عن حقّ المهجّرين في العودة إلى وطنهم.

عندما قابلته لفت نظري أمران في هذا الرّجل المحطّم العظام؛ أوّلاً ابتسامته العملاقة على الرّغم من الألم الجسدي الذي يربض عليه، وثانياً قدرته على القصّ والسّرد والاستدعاء إلى درجة أنّني نسيت يومها سليم الذي كنتُ قد أتيت إلى المستشفى لزيارته، ونسيتُ كذلك مواعيدي وارتباطاتي المزعومة، وظللتُ أتبرّد في ظلّ ابتسامته وسرده لساعات طويلة حتى جاء المساء، وبدأ موظفو الأمن في المستشفى يطلبون من الزّوار مغادرة المستشفى لانتهاء ساعات زيارة المرضى.

منذ هذا اللّقاء أسميته ثابت السّرديّ؛ لأنّه يملك عوالم سرديّة لا تنضب؛ حتى ليظنّ من يسمعه يتكلّم أنّه يقرأ بهدوء ودعة وثقة ونظام من كتاب مفتوح أمامه، ولا يتصوّر أنّه يتكلّم من محفوظه وفكره وعصارة خبراته وثقافته ونضاله ومعرفته الدّقيقة بتفاصيل المقاومة ورجالاتها وأبطالها؛ فهو أشبه ما يكون بمجرّة بقوّة كونيّة عملاقة قادرة على ابتلاع مجرّات وأفلاك ونجوم وكواكب؛ فمن يعرفه يدرك تماماً ما يتوافر عليه من ثقافة وحسّ وتجارب وخبرات، وهو في الوقت ذاته قادر على استيعاب أصغر البشر حجوماً فكريّة وثقافيّة، والتّعامل معهم بمنطق الرّحمة والاستدراج.

إنّه باختصار رجل يحبّ النّاس، والنّاس لا تملك إلّا أنّ تحبّه؛ فهو حاوٍ مدهش، ومن جرابه يُخرج سرداً شيقاً لا ينضب، فهو من نادر البشر الذين لا يعرف من يحادثونهم معنى الملّل أو بطء سير الزّمن؛ فالزّمن ملك حديثه بكلّ ما في الكلمة من معنى.

بطيئاً قد تشافى ثابت السّرديّ من بعض كسوره، وخرج من المستشفى على عكّازتين ليكمل علاجه في البيت، عندها توثّقت صداقتي معه، وطفقنا نقضي الأوقات سويّاً، وعندما أخذني في جولة في بعض مجموعاته

الفوتوغرافيّة من الصّور، اكتشفتُ أنّي قابلته في يوم ما قبل سنوات طويلة؛ هو يكبرني بأقل من عقد، لكنّه دخل عالم النّضال والكتابة عن القضايا الوطنيّة منذ طفولته عندما تشرّد مع أسرته في منافي الأرض جميعها.

عندما لبّى دعوة لتقديم محاضرة في تخصّصه في إحدى الفعاليّات الثّقافيّة الشّهيرة في عاصمة عربيّة، كنتُ موجودة في هذه الفعاليّة مع صديقين لي مغرمين بالمؤتمرات الشّعبيّة والوطنيّة، ويسافران لحضور ما تيسّر لهما منها، ويصحبون معهم ما استطاعوا من أصدقائهم لحضور هذه المؤتمرات ليعتادوا العراك الفكريّ والمران العقليّ والجدليّ.

وفي ليلة من ليالي المؤتمر الذي عُقدت جلساته جميعها في اللّيل هرباً من حرارة النّهار الصّيفيّ في تلك العاصمة رأيت ثابتاً عن قرب، كان عندها يقف في ساحة من ساحات المكان، ويطلق العنان لحديث ما مع فتاة جميلة ممشوقة القوام والحضور والاتّساق الجسديّ، كانتْ ترتدي ثوباً ذهبيّاً فاضحاً، وتختال بجسدها المُشتهى من كلّ رجل تقع عيناه عليها، كان يناجيها باستغراق ممطوط، كان يحدّثها، وكانت تسمعه، ولا شيء آخر في العالم يعنيهما غير ذلك في تلك اللحّظة. هذا ما قدّرت أنّه حالهما.

لا أعرف لماذا بقيت صورة ثابت عالقة في ذهني من ذلك الوقت، ولا أستطيع أن أقدّر سبب رغبتي المراهقة في أن أحدّثه بإسهاب في تلك اللّحظة، ربّما لأنّه كان وسيماً كسنبلة، ورشيقاً مثل سيف، أو ربما لأنّ بريق عينيه كان يغازل الصّمت، أو ربما لأنّ ضوء المساء المنعكس على وجهه وهبه جلال أيقونة أوغاريتيّة مقدّسة، أو ربما لأنّ فكرة النّضال عن الوطن كانت تغريني بالاقتراب منه، وأنا الغريبة في وطني، المتنكرة له، وهو المتنكّر لي.

عندها كان هادئ الابتسامة، وتلك المرأة كانت تستأثر به بعدائيّة واضحة لكلّ امرأة تحاول الاقتراب منه. فكّرت عندها في لحظة مجازفة وتهوّر أن أقترب منه لأحدّثه، لكنّني تراجعتُ عن ذلك؛ لأنّني خشيتُ أن يتجاهلني؛ لأنّني لا أملك حكاية مثيرة لأحدّثه بها مثل تلك المرأة الجميلة التي تسرق اللّحظات اللّذيذة في حديثها معه.

خمّنت أنّني سأخسر هذه المعركة بكلّ تأكيد؛ فلابدّ أنّه أذكى من أن يتجاهل امرأة وافرة الأنوثة مثل تلك المرأة الصّارخة الأنوثة والتّعرّي والغنج لأجل امرأة حمراء مثلي. هكذا قدّرتْ، وهكذا خمّنتْ، فقرّرتْ أن أكرهه من تلك اللّحظة، لا لشيء إلّا لأنّه لا يجيد أن يرى المرأة الكامنة في حمرتي.

ونسيتُ هذه القصّة تماماً إلى أن التقيتُ به مرّة أخرى في المستشفى، عندها تذكرتُه، وابتسمتُ له، وسامحته إكراماً للّذة الغريبة التي أستوقدها في روحي في تلك اللّيلة الصّيفيّة الحارّة الموغلة في غيرتي، ومن ثم بدأتُ أقرأ ما يكتبُ في الصّحف والمجلّات السّياسيّة المتخصّصة عن قضيّة وطنه، وآفاق النّضال لأجل التّحرير الحتميّ لوطنه من الاحتلال مهما طال الزّمن.

عندما التقيتُ به صدفة في مستشفى العاصمة، لم يكن منتصباً مثل سيف كما رأيته في أوّل مرّة قابلته فيها، بل كان محطّم العظام مثل خبز جاف في كيس من خيش أو قنّب، لكنّ ذلك لم يسرق شيئاً من سحره وانتصاب روحه، وشموخ أنفه، وسامق اعتزازه، ونبرة صوته الواثقة المجلجلة.

بعد عدّة زيارات له استحوذتُ على اهتمامه وانتباهه، لكنّ ذلك لم يطل، ولم يثمر فرحاً أكبر، فسرعان ما جاءته أوامر صارمة من إدارته النّضاليّة كي يلتحق بهم في نضالهم المقدّس لأجل قضيته العادلة المعلّقة في

الحرمان والظّلم والتّجاهـل منـذ سـبعة عقـود ونيـف، حاولـتُ أن أفاوضـه طويلاً على قلبي مقابل أن لا يسافر، لكن نداء واجبه كان أقوى من عرضـي عليه، وسرعان ما طار بعيداً قريباً، وصـمّ أذنيـه دون صـوت عشـقي، ودون صوت قلبه، ووهـب ذاتـه وأذنيـه المصـغيتين لصـوت واحـد، وهـو صـوت الوطن الذي لا يموت في ضمائر أمثاله من عشّاق أوطانهم.

ثابت يملك قلباً كبيراً، لكنّه على الرّغم مـن ذلـك هـو صـغير جـدّاً؛ فهـو يتسع لكلّ العالم، لحبّهم ولعونهم، لكّنه لا يتسع لأيّ حقد أو ضـغينة أوكـره أو مكيدة . هو يملك عقلاً بناءّ ومبدعاً وخلاقـاً يسـتطيع أن يتعامـل مـع أيّ قضية أو موضوع مهما عظم وصـعب، لكنّـه يصـاب بـالعجز التّـام إزاء أيّ قذارة أو قرف يسمى تطاحن أو تكالب أو صراع أو مؤامرة.

فهو يملك روحاً شفّافة مأسورة لعينين تعشـقان الجمـال؛ لـذلك عينـاه لا تريان إلّا جمال الحرّيـة، وأحـلام الصّـفاء الخالـد، وأطيـاف السّـعادة والحنّـو والعطاء. هو يملك أذنـين تعشـقان عزيـف ملكـوت السّـموات والأصـوات الجميلة والموسيقى الخالدة وتغاريد طيور الحرّيّة.

هو رجل يمتطي حلمـه؛ ليبحـث عـن عـالم يتسـع لقلبـه حيـث لا ألم أو مكيدة أو قسوة، هو القوي الـذي لطالمـا احتـوى آلامـي، وسمـع شـكواي، وضمّد أحزاني النّازفة بقوة، وأنـا لم أهديـه مـني سـوى الكلمـات؛ لكـن لا بأس في ذلك؛ فهو أعظم رجل يتذوّق كلمة، ويسمع حرفاً، وينـزف عبـارة، فهو ليس إلّا لغة؛ لذلك هو يهجرني الآن جرياً خلف لغتـه العظمـى، وهـي وطنه.

الآن سيهجر كلماتي، ويترك صـوري، سـيطلّق أمـاكني وأزمـاني وبحـري وسمائي وجهـي، ويـورثني صـوره وكتبـه ونمارقـه وأشـياءه الأثـيرة وأرقـام

هواتفه وأحلامه وآلامه، ويحلّق نحو السّماء مأسوراً فقط لحلم النّضال والتّحرير.

لطالما كتبتُ الرّسائل لثابت، وكان يجد وقتاً مسروقاً ليكتب لي ردّاً طويلاً على كلّ حرف أكتبه له؛ فهو كان يعلم أنّني أعشق الكلمة، وأعشق كلماته بشكل خاصّ.

هو عبر في روحي، ولم يفكّر في أن يعبر في جسدي؛ لعلّه كان مأسوراً بحقّ لفكرة الوطن، والانشغال به، وهذا ما كان يزيدني عشقاً وتولّعاً به؛ فافتتانه بجسد الوطن جعلني أفتتن أكثر بعفّته التي صنعها خصّيصاً من أجلي، وهو الرّجل الذي حدّثني عن ماضيه الذي يؤرّخه بالنّساء والمغامرات معهنّ.

لكنّه أراد أن يخصّني بحبّه العفيف كي يرسم في وجداني الصّور الطّاهرة التي يحضّر نفسه لها، كتبتُ له مرّة في رحلة من رحلاتي رسالة إلكترونيّة طويلة استغرقتُ في كتابتها رحلة بحريّة من أوّل المحيط إلى آخره، عندها كانت هناك طبول حرب تُقرع في المنطقة، وكان الجميع ينتظر حرباً أو أكثر، والوحش العالميّ يريد أن ينقضّ على المنطقة بحجّة الدّفاع عن الحرّيات، فيما عينه على نفط العرب وثرواتهم، وأنا كنتُ أفكّر في شيء واحد، وهو أن ألحق به، لأناضل معه، وأكسب شرف الميتة الجليلة.

كتبتُ له بشوق مائيّ هادر: ثابت، يقولون إنّ الحبّ الكبير لا يكون إلّا في زمن الحربّ والموت؛ لذلك هناك دائماً متسع لرسالة عشق حتى ولو كانت الظّروف السّياسيّة قلقة في المنطقة ، والمظاهرات الدّاميّة تشلّ الكثير من عواصمها، في حين يتهيّأ الجميع للمزيد من المذابح والحروب والويلات؛ لذلك أكتبُ لكَ، وأبدأ باسم عشقي لكَ. تساميتَ، لا شريك لكَ في قلبي.

يقولون إنّ الشّرق سيصبح مشـارق، وإنّ الغـرب سيصـبح مغـارب، وإنّ الدّنيا ستغادر فلا تعود، وإنّ الرّحمة ستدير ظهرهـا للبشـر، فـلا يكـون لهـم معين ولا نصير، ويزعمون أنّ القيامة غـداً، وأنّ الجنّـة والنّـار دون خـرائط، وأنّ الذّاهب غير عائد، وأنّ العائد غـير بـاق، وأنـا مـالي في هـذا العـالم إلّـا صحيفة واحدة أقابل بها الرّب في الجّحيم مكتوبٌ فيها: أحبّكَ يا ثابت.

هل سيقرأ الرّب في حبّي لكَ في صحيفتي؟ وأنتَ أيّها المعاند النّزق لم تعـرف ذلك بعد، إذن أعلمكَ بنبئي قبل أن تتباعد بنا الأرض أكثر، وينادي المنـادي أن كونوا تراباً، فأكونُ وتكون، ويظلُّ حبّي لكَ حيّاً لا يموت".

*****

كتبـت العاشـقة: لكنّـه لم يـردّ علـى هـذه الرّسـالة، لأوّل مـرّة يتجاهـل رسائلي، ولا يردّ عليها، لأسابيع طويلة لم أتلقَ أيّ رسالة منه، إلى أن جاءتني تلك الرّسالة الورقيّة في يد أحد رفاقه من المناضلين، لقد زارنـي علـى حـين غرّة وعلى استحياء وحذر وقلق، وأعطـاني الرّسـالة الورقيّـة، وأخبرنـي أنّ ثابتاً قد أُستشهد على أرض الوطن كمـا اشـتهى دائمـاً، لقـد طرحـتُ عليـه سيلاً من الأسئلة حول تفاصيل استشـهاده، لكنّـه تحفّـظ في إجاباتـه حفاظـاً على أسرار نضاليّة، واكتفى بأنّ قال لي إنّه قد قضى نحبه بطلاً معتليـاً كتفـي المجد والخلود والنّضال، وسلّمني رسـالته قـائلاً لـي: إنّ ثابتـاً طلـب منّـي أن أوصل لك هـذه الرّسـالة إن أُستشـهد في أيّ لحظـة كانـت. وهـا أنـذا أنفّـذ وصيّته كما طلب منّي.

غادر الشّاب شقتي الصّغيرة، وترك لي إرثـاً ضـئيلاً مـن ثابـت لا يتعـدّى قصيدة عاشقة ممهورة باسم ثابت السّرديّ ابن الوطن.

لقد كانتَ قصيدته ذات أنف مرفوع تماماً مثل أنفه الـذي لا ينكسـر أبـداً، لا بدّ أنّه قد كتبها لي، وهو يسير نحو الموت منتشياً بخيلائه المعهودة المثيرة.

إكراماً لقصيدته ذات الكبرياء الشّامخ طهوتها في الماء المغلي حتى تمزّقـت، ثم شربتها كي تتمتّع أعماقي بكلّ كلمة كتبها لي، ولا تسـرق النّوائـب هـذه الكلمات من يدي بعد أن سقيتها لجسدي كي يمتصّها حتى الثّمالة.

لقد عاش ثابت السّرديّ بطلاً، واختار أن يموت بطـلاً، مـات مثـل سـنبلة رافعة الرّأس، كما عاش زيتونة شامخة ضاربة في الأرض؛ لذلك لم أملـك إلّـا أن أسميّه منذ ذلك اليوم باسم الشّهيد ثابت السّرديّ الذي أقرأ الفاتحة علـى روحه كلّما قرع اسمه ذاكرتي أو قلبي.

وظللتُ لا أعرف كيف أُستشهد، أو أين دُفن، كأنّه اختـار أن تكـون قصّـته قطعة فسيفساء في قصّة شـعبه الممتـدّة لسـبعين عامـاً مـن الجفـاف واليبـاس والقحط والضّنك، وهي قصّة قدريّة واحدة تتلخّص في أنّ أبناء شـعبه كـانوا يعيشون في سلام، كانت أحلامهم قيد أنملة من حيواتهم، لم يحـاربوا بشـراً في يوم، لم يكرهوا بشراً في يـوم، لم يكونـوا صـيارفة أو قتلـة أو تجّـار مـوت أو دمار، بل كانوا زرّاعاً وبناة وعابدين.

الحياة عندهم كانت تنحصـر في البنـاء والامتـداد والإخـلاص لتفاصـيل حياتهم البسـيطة حيـث العمـل ليـل نهـار، وانتظـار المواسـم، والمشـاركة في الأفـراح والأتـراح، وتربيـة الأبنـاء، ومعاونـة الجـيران، ومجاملـة الأقـارب والأنسباء، ثم جاءهم السّخط والغضب وأيام العـذاب علـي أيـدي شـرذمة من الجائعين الغرباء المحتلّين الذين جمعهم الموت والجوع والتّشرّد، فجاؤوا إلى أرضهم تحميهم الأسـلحة والعصـابات وجيش الانتـداب والإرادة الدوليـة الغاشمة التي صمّت آذانها عن أبسط مبادئ العدالة الدوليـة، وتواطـأت مـع

تلك العصابات في أكبر سرقة في التّاريخ؛ إذ هـي أوّل مـرة يُسـرق فيهـا بلـد كامل!

ومن يومها أصبحت حكايـات شـعبه تـتلخّص في: التّشـريد، والحرمـان، والظّلـم، والقسـوة، والسّـجن، والتّعـذيب، والإبـادة الجماعيّـة، والمـوت، والعنصـريّة، والفـراق في ظـلّ السّـجن أو النّفـي أو القتـل أو التّرهيـب والملاحقة.

هذه هي حكاية ثابت السّرديّ، وحكاية شعبه التي تتلخّص في أن لا تكـون لهـم حكايـة سـوى حكايـة كابوسـيّة واحـدة، اسمهـا العـذاب والرّحيـل والانتظار. لكنّه دفع عمره ثمناً ليغيّر نهاية هذه القصّة، لتصـبح النّهايـة هـي التّحرير، ولا شيء غير التّحرير.

النّسيان الخامس عشر

الجحيم

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الحياة هي الفرصة الوحيدة للفرح الحقيقيّ"
"التّمنّي أجمل رياضة للنّفس الكسيرة"
"الحبّ دون تواصل أسخف اللّعب على الإطلاق"
"قلب لا يثمّن هدايا العشق هو قلب أخرق"
"بالحبّ يصبح صوت المحبوب ترنيمة من ترنيمات الوجود"
"لحظات الحبّ كنوز لا يجوز هدرها"
"الحرمان هو الشّيطان الأكبر في عالم الحبّ"

كتبت العاشقة: غدا هناك في قلبي قبران طاهران اسمهما وفا ذيب وثابت السّرديّ، وخلا ذلك لا شيء سوى الخوف من القادم ونقودي التي تكاد تفنى، وأنا أبحث عن أيّ وظيفة كانت لأعتاش منها، والأبواب جميعها تُغلق في وجهي دون رحمة بي.

قرّرتُ أن أحضر ذلك المهرجان السّنويّ في المدينة لعلّي أهرب من أحزاني ومخاوفي، ذهبتُ إليه وحدي لأسمع غناء ذلك المطرب المشرقيّ الذي وُلد في كندا من أمّ إفريقيّة وأبّ عربيّ، وملأ الدّنيا غناء بصوته الشّجيّ الحنون الذي لطالما حكره على الأغاني الوطنيّة والإنسانيّة والدّينيّة التي راقت لقطاع كبير من الجماهير العربيّة والعالميّة، وهو من يستطيع الغناء باللّغة العربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة.

عندما سمعتُ غناءه لم أعرف كيف تسلّل سحر صوته إلى قلبي، فذقتُ في لحظة واحدة معنى الجمال واللّذة شهقات الرّجولة وخليط رائحة رذاذ الأمطار والحنطة والأرض المبتلّة والعجين الخامر وطلع النّخيل.

رجولته المضمّخة بالشّجن سحرتني، عندها حصلتُ على موهبة رائعة واستثنائيّة، وهي سماع صوته بقلبي، وهي هبة لم أحصل عليها من قبل؛ فقد جرّبت أن أسمع بقلبي، وأن أرى بأذني، وأن أتنفّس بعيني، وقد نجحتُ في كلّ ذلك.

اسمه يراع طرب، وقد طار إليّ عندما انتهى من غنائه، وهو من كان يراقبني طوال فترة غنائه. قال لي بعد دقائق من لقائه بي، إنّه يعشقني، وأنّه على ميعاد معي، وأنّ عنده أغنية شهيرة اسمها "حبيبتي المجهولة"، وأهداني مجموعة عملاقة من الأقراص المدمجة التي تحتوي على معظم أغانيه وألحانه وموسيقاه؛ فقد اكتشفتُ أنّه عازف على أكثر من آلة وتريّة فلكلوريّة إلى جانب أنّه مطرب شهير، ومؤّلف لمعظم أغانيه. شعرت حينها أنّ هديته هذه تردّني إلى دهشتي من جديد.

عندما عدتُ إلى شقتي، أخذتُ الأقراص في نزهة مسائيّة في سيارتي، وانطلقتُ مع صوته نحو البعيد، وكان ما توقعّت، لقد كان ذلك الصّوت الجميل الحنون امتداداً لكلّ مراقص روحي ودهشتي الفردوسيّة.

سمعتُ أغانيه الواحدة تلو الأخرى، لكن أغنية "لا أنساكِ" هي من أعادتني إلى تجربة المتعة من جديد، ذلك الصّوت الحزين الجميل الغريق المغرق استحضر الافتتان كلّه في لحظة واحدة، كان تميمتي ضدّ انشطار نفسي، وكان ضياعي في ذاتي، وكان حقيقتي التي لا أعرف لها اسماً إلّا أنّني أعبد هذا الصّوت الجميل، وأعبد هذه الأغنية الرّائعة.

أنا أعشق صوت هذا المطرب؛ لأنه قادر في لحظة على أن يختزلني في اللاّ اختزال، وأن يراقصني، وأن يصفعني، وأن يبكيني، وأن يحضنني، وأن

يقبّلني، وأن يمسّد على شعري. وأعشق كذلك أغانيه؛ فهي باردة وحارة في آن، خشنة وزلقة في لحظة، وممكنة ومستحيلة في الأوقات جميعها.

خشيتُ أن يطول انتظاري له، لكنّه سرعان ما اتّصل بي، لنعيش تفاصيل الحبّ على عجل قبل أن يدفعني دفعاً لأعيش وحدي تفاصيل التوجّد والحزن والفقد؛ فقد اكتشفتُ أنّه يعشق النّساء بطريقة عشقه للموسيقى والألحان والكلمات؛ أيّ يعشق أن يجرّب الواحدة منها تلو الأخرى، وأن يجد نفسه في متناقضات النّساء؛ لذلك عندما عزف نغمي، ابتعد عني، وذبل حبّه لي.

حاولتُ كثيراً أن أستردّه، أو أن أكون نغمة جديدة في مقطوعاته الموسيقيّة، لكنّني فشلتُ في ذلك؛ لأنّني اكتشفتُ أنّه لا يكرّر لحنه مرتين، عندها قبلتُ بالبعاد والمسافات النّائية، ووزّعت أغنيته "حبيبتي المجهولة" على كلّ من أعرف من نساء؛ لعلّ إحداهنّ ترغب في أن تكون مقطوعته الموسيقيّة المقبلة.

لكن ثريّاً مشرقيّاً لوطيّاً سبق المقطوعات النّسائيّة الأخرى إليه، واتّخذه له، وأعلى كعبه في امبراطوريّة ثروته، وأستحدث له مشاريع إعلاميّة وفنيّة لأجل أن يبقيه إلى جانبه؛ فما كان يستطيع أن يفارقه، أو يستغني عن فنونه في الشّذوذ الجنسيّ، بعد أن هجر الأغاني الوطنيّة والدّينيّة والإنسانيّة التي كان يتكسّب منها، ويزعم أنّه سفيرها لما تحمله له من شهرة وجماهيريّة ودخل عريض، وتخلّى عنها جميعاً لصالح شذوذه الذي فتح له كنز علي بابا والألف شاذّ.

*****

كتبت العاشقة: كان يمكن أن تتغيّر أقداري كما تغيّرت أقدار صديقتي هدى لو لم أقابل عيسى الإقباليّ الذي كنتُ آمل أن ينقذني من ضياعي وإفلاسي بعد أن مات آخر نقد أملكه ممّا ورّثني وفا ذيب بعد موته، ووجدتُ نفسي دون دخل أو وظيفة أو أيّ معين أو أمل.

ظننتُ حينما قابلته أنّي سأحظى بفرصة جديدة للحياة النّظيفة كما حظيت هدى بها منذ أشهر عندما قابلتْ رجلاً اسمه همّام، وتزوّجتْ به، وانتقلتْ إلى حياته، بعد أن خلعتْ حياتها السّابقة بكلّ ما فيها من نكسات؛ فقد أوهمني وجهه السّمح الهادئ بأنّي أكاد أحظى بميناء نجاة لسفينتي التّائهة في المجهول.

تعرّفتُ عليه عن طريق امرأة خمسينيّة قابلتها في فضاء مؤسسّات العمل الخيريّ، هي امرأة تحبّ أن تساعد الآخرين في قضاء حوائجهم، وللأمانة والصّدق هي طيّبة القلب، وحنون، وكريمة الاستضافة، وجميلة المعشر على الرّغم من قبح سحنتها، إلّا أنّها تعشق السّرقة من الفقراء والمعدمين والمساكين؛ فهي ترى في ذلك متعة كبيرة لها، وهي ترى رجلاً أو امرأة بعرض حائط يتمرّغ في الحزن باكياً لخسارة القليل من المال، في حين تنفق على لذائذ بطنها الكبير المترهّل ما يكفي لستر عشرة بيوت فضحها الفقر والعوز.

لم تكن تسرق إلّا من الفقراء لتحرّق قلوبهم، وتستمتع بسفاهة بكائهم على فتات المال على حدّ تعبيرها، لكنّها لم ترفض في يوم مساعدة أيّ فقير ليجد وظيفة كريمة أو شبه كريمة أو دون أيّ ذرة كرامة كي يسدّ بها رمقه ورمق أسرته ومن يعيل؛ لذلك رحّبت بمساعدتي كي أحظى بوظيفة في

الشّركة الخدماتيّة التي يملكها صديقها الحاجّ الإقبـاليّ، ويـديرها ابنـه البكـر الحاجّ الدّكتور عيسى الإقباليّ.

أخبرتها بأنّني لا أملك أيّ شهادات دراسيّة، لكنّني أملك خـبرة مقبولـة في العمل في المؤسسّات الخيريّة وفي المؤسّسات الدّعائيّة، ورغبة جـادّة في العمـل والاجتهـاد، وموهبّـة خاصّـة في الكتابـة الوظيفيّـة والإبداعيّـة، ومسـتعدة للإخلاص لعملي كي أعيش حياة كريمة وشريفة.

عيسى الإقباليّ قبل بتوظيفي بمجرّد أن وقعت عيناه على حمرتي التي تشـبه حمرته المشبعة بصّحة واضحة والمهندمة بملابس دينيّة حريريّة مقصّبة، بعـد أن كرّر أكثر من مرّة قول "ما شاء الله، تبارك الله فيما خلق"؛ فهو كان يجيـد ذكـر الله، إلّا أنّه لا يخشى غضبه عليه، ولا يستحضره في أيّ عمل يقوم به.

البقعة السّوداء في جبينه إمارته على كثرة السّجود والصّـلاة هـي أوّل مـا لفتت نظري وأنا أطالع وجهه الذي يتدارى جزء منه خلف صـورّة كـبيرة في إطار ذهبيّ مزخرف يضعه علـى مكتبـه بشـكل استعراضـيّ فـجّ في مواجهـة الرّائي، كانت الصّورة لأسرته حيث زوجته المحجّبة المتلفّحة بالسّواد تقف إلى جانبه، وتحمل أصغر أطفالها، وهـو يحمـل طفـلاً آخـر يبـدو في الرّابعـة مـن عمره، ويقف أمامهما طفل سمين مثل عجل، وطفلة أقل سمنـة منـه، وفتـاة نحيفة سمراء مثل أمّها، وعلى رأسها حجاب أبيض مائل إلى الصّفرة.

عندما انتبه إلى اهتمامي بالصّورة، قال لي، وهو يقرّب الصّـورة مـني ومـن صديقتي اللّصة الحنون: هذه صورة أسـرتي؛ زوجـتي وأبنـائي أحمـد وحسـين وعلي وخديجة وفاطمة، ثم انثال يعدّد على مسامعنا محاسن زوجتـه الشّـريفة العفيفة الأصيلة وفضائل أبنائه الذين يصرّ على أنّهم حجّاج صـغار، وأنّهـم

قد ورثوا عن أبيهم وجدّهم النّسب العربيّ الأصيل، والصّلاح، والذّكر الطّيب، والثّروة الكبيرة، وحبّ العلم والعلماء.

أصغيتُ لكلامه بذل وأنا اليتيمة اللّقيطة المضيّعة النّسب والأصل، في حين ضحكتْ صديقتي اللّصة ضحكة غير محتشمة وهي تسمع كلامه؛ لأنّها كانت تعرف أنّه يملك هوايتها ذاتها؛ فهو أيضاً يحبّ السّرقة بأنواعها جميعها؛ فقد سرق النّسب العربيّ الأصيل، وهو هجين مشكوك في نسبه، كما هو مشكوك في نسب أبيه ونسب جدّه من قبله، فقد جاؤوا إلى المكان مواليًا منذ أزمان، ثم تشعّبوا بعد أن تزوّجوا من جواري الوالي، وفي غمضة عين غدوا أشرافاً بحسب ونسب، وفيما بعد سرق جدّه المال والشّهرة والسّلطة من سيده الذي كان يعمل عنده خادماً لكلابه، ومن ثمّ أصبح وريثه الوحيد عندما احترقت أسرته كاملة في حريق عظيم أتى على جزء كبير من مزارعه وبيوته.

عيسى الإقباليّ سرق شهاداته الكثيرة بمنطق الشّراء الحرّ، وبنى شركته على حطام شركائه الذين أفلسهم جميعاً، وشرّدهم في الأرض، ونكب أسرهم، وبعد ذلك عكف نفسه على مال الأيتام والأرامل والأوقاف والمساجد والمبرّات والجمعيّات الخيريّة يسرق منها بشتى الطّرق والحيل تحت ستار التّدين والصّلاح والخير.

لقد اشترط عيسى الإقباليّ أن أتحجّب كي أنال وظيفة سكرتيرته الشّخصيّة، وقد وافقتُ على شرطه مباشرة حتى قبل أن أسمع خطبته عن السّترة والعفاف والحجاب والفتنة ودرء الشّبهات، وخلع عليّ لقب الحاجّة بهاء دون أن أحجّ، أو أن أسير في دروب التّوبة والصّلاح.

لكن حجابه المفروض عليّ قسراً لم يستر سوى شَعْري، لكنّه فضح عرضي، ونهش لحمي؛ فسرعان ما غدوتْ خليلة شرعيّة له بورقة زواج سريّ أسماها زواج شرعيّ على طريقة الأسلاف، وما دريتُ كيف كان الأسلاف يتزوّجون، وما عناني دربهم في ذلك، كلّ ما عناني في الأمر أن أحصل على مال وبيت يسترني بعد أن أصبحت الزّوجة السّريّة للحاجّ النّبيل الأصيل وفق زعمه، وربما أحصل على طفل منه يدخلني إلى نعيم الأمومة وعظمتها، ويجعلني حرّة بالتّسرّي، لكنّه كان يأبى الإنجاب منّي، ويصمّم على أن تكون خلواته بي للمتعة فقط.

أنا كنتُ في حاجة إلى أيّ فرصة للتّطهّر، ومستعدّة لأن أكون زوجة لأيّ رجل يمكن أن ينقذني من الضّياع، وأن يهبني أيّ حطام جدران يمكن أن نسميه بيتاً ولو على سبيل المجاز، وعيسى الإقباليّ التقطني عندما اصطاد أمنيتي الحلم بأن تكون لي أسرة وبيت، في حين تشبّثتُ به على أمل أن ينقذني من إفلاسي وفقري وتيهي وخوفي العظيم من كلّ شيء حولي.

قبلت بالزّواج المغشوش الذي عرضه عليّ على ما فيه من شذوذ وكذب وافتراء على الشّرائع والحقائق على أمل أن أكون ملكاً لرجل واحد، وإن كان ما يزال يؤمن بأنّ نساء الدّنيا هنّ مِلكٌ ليمنه بشريعة ما صنعها بنفسه، وله أن يغير على جسد من بغى منهنّ بمنطق قطّاع الطّرق والشّطار والعيارين، لكنّه عندما أراد أن يتاجر بي، ويعرضني على أسياده من الأشراف المزوّرين والصّالحين الملفّقين، قرّرتُ أن أعمل لحسابي الشّخصيّ، وأن أربّي زبائني الخاصّين من أصدقائه الذين يملكون جميعاً علامات سجود سوداء في جباههم العريضة،كما يملك هو علامة مثلها.

كتبت العاشـقة: القـرار الأمثـل في علاقـتي بـعيسى الإقبـاليّ كـان قـرار خلعه، والعمل لحسابي بعد أن عملـت لحسـابه بـالإكراه والتّهديـد والوعيـد لعدّة مرّات، فتوسّـعت تجارتـه، وزادت ثروتـه، ودخـل شـريكاً في مشـاريع مريبة فيها قتل ودعارة وسلاح ومخدرات وأنواع الشّطارة جميعها، وليس فيها سهم واحد من سهام الخير والنّماء والصّلاح.

خلعت حجابه المفروض عليّ، ورددتُ عليه لقب الحاجّة الذي وهبـه لـي بالمجان كي لا يتدنّس اللّقـب بـي، وانطلقـت أثـري بـي ولـي، والتجـأت إلى أصدقائه المتنفّذين كي يحموني منه، ويرفعوا وصايته الجبريّة عنّـي، ويسـكتوه عن زعمه بأنّني زوجته بورقة زواج عرفيّ تشرعن سفاحنا.

لقد نصرني أولئك الأصدقاء المتنفّذون على عيسى الإقباليّ، ولجموه عنّي، وتفانوا في إرضائي، والإنفاق عليّ ببذخ، حتى غدوت المرأة المتنفّذة في حيـاة شـبكات المتـاجرة بالـدّين والمسـاكين والأبريـاء واليتـامى والأرامـل والمستضعفين.

لقد طالت يدي حتى غدوت قادرة علـى تغـيير قـرار حزبـيّ في حـزبهم، كما أصبحتُ قادرة على اتّخـاذ أخطـر القـرارات في المدينـة وفي غيرهـا مـن المدن المجاورة، وربطتني علاقات مهمّة مع كثير من النّساء الأسرار في حيوات رجـالات المنطقـة المستشـيخين، بعـد أن اكتشـفتُ أنّ تلكـم المومسـات الشّرعيّات هنّ الأرقام الصّعبة في المعـادلات جميعهـا، كمـا أنّهـنّ الآمـرات الحقيقيّات.

وفيمـا بعـد حاولـتُ أن أصـل إلى النّسـاء السّـريّات العالميّـات، لكـنّني لم أستطع ذلك؛ فقد كانت تنقصني الكثير من المؤهّلات العالميّة لأصل إلى تلكم

النّساء؛ فأنا كنتُ أتنفّذ بأنوثتي وجسدي، وهنّ كنّ متنفّذات بالجهات السّياديّة العالميّة التي ترسم الأدوار والدّروب والأهداف لهنّ.

اكتفيتُ بالحجم الإقليميّ الذي حظيتُ به في خارطة النّساء الأسرار، وتناسيتُ طموحي بأن أصبح عالميّة النّشاط، وأخذت بنصيحة أحد تجّار الدّين الذي همس في أذني ذات صفو وإخلاص، وقال لي: الكبار بدؤوا ينزعجون منكِ، عليكِ أن تبتعدي، وإلّا داسوكِ بأقدامهم.

*****

كتبت العاشقة: قرّرتُ أن أنسحب سريعاً من عوالم تجّار الدّين قبل أن ينصبوا المشنقة لي، وأعددتُ العدّة للهرب السّريع منهم، وظهور صلاح خير النّورانيّ عجّل في انسحابي من تلكم العوالم، لا أعرف كيف قادته الدّروب إليّ، إلّا أنّني قابلته في حفل دينيّ لإحدى شركات المتّحدين، لم يكن يملك علامة سجود سوداء في جبينه، وخلتُ أنّه عضو جديد في عالم التّجارة بالدّين، لكن عندما تحدّثتُ إليه، على الرّغم من حيائه الشّديد، اكتشفتُ أنّه رجل طاهر من حفظة القرآن الكريم، وإنّما أتى إلى هذا المكان متطوّعاً لأجل خدمة الأيتام والأرامل والمساكين؛ فهو يتحرّق شوقاً لعون النّاس، ونور وجهه يصدّق كلّ كلمة يقولها.

لم يكن تاجراً من تجّار الأرض والحياة، لكنّه كان تاجراً من تجّار الآخرة؛ فكلّ ما يفعله يقوم به لأجل تجارته هذه التي يصفها بأنّها تجارة لا تبور؛ لأنّها تجارة مع الله، حتى عندما عرض عليّ أن أتزوّج به كان يبغي من ذلك أن يستر امرأة جميلة سيئة السّمعة والتّاريخ والحظّ، لكنّها تريد أن تصبح امرأة صالحة طاهرة، وتحظى ببنات وبنين.

كنتُ أتمنّى أن أضع يدي في يده، وأن أسير معه في دربه لا ألوي على المستنقع الكبير الذي خلفي، وأن أمزّق شرنقة اللّعنة عن حياتي، لكنّني أبيتُ أن أفعل ذلك؛ لأنّني سأحطّمه لو أصبحتُ رفيقة دربه، فهو كان يسير في درب القضاء الشّرعيّ، وعلى وشك أن يصبح قاضياً شرعيّاً، وقد يرتقي بعد ذلك إلى مناصب أرفع، وزواجه من امرأة مثلي سوف يحطّم مستقبله، ويهدر فرصه على الرّغم من إيماني الكامل بأنّ من سيعيبون عليه الزّواج بي هم ممّن يهرعون إلى جسدي ليروي عطشهم؛ فهم يحترفون قذف قذراتهم على غيرهم ليوهموا أنفسهم وغيرهم بأنّهم دون خطايا أو آثام أو فضائح.

ما أزال أذكر تلك اللّيلة التي حدّثني فيه أحد زبائني الأفّاقين عن غضبه على ابنه، وطرده له من البيت؛ لأنّه يريد أن يحلق لحيته التي هي رمز جليل من رموز الدّين. كان الزّبون الغاضب عندها يتقطّع غضباً وهو يقصّ عليّ جناية ابنه ولحيته تقطر من شراب الويسكي الذي أسقطه عليها، وهو يعبّه عبّاً بانفعال، ويحفّز جسده الخائر ليستيقظ لدقائق كي يقطف لذة من جسدي ثمن ما دفعه نظير هذه اللّيلة الحمراء، لكن جسده خانه، وآثر أن يسلمه لنوم هانئ طويل قضاه على سجّادة غرفة نومي، وهو يشخر مثل خنزير بريّ مختنق بما أكل من الزّبالة.

ليلتها تذكّرتُ المعلّم أفراح الرّمليّ الذي كان يضربنا على أصابعنا بعصاه المعدنيّة الطّويلة إن كتبنا أيّ موضوع تعبير دون أن نفتتح الصّفحة الأولى بكتابة البسملة في أعلاها، وكان يصمّم على تجميد الحصّة إلى حين الانتهاء من رفع الآذان، وكان ينطّ إلى الاستحمام بعد اغتصابه المكرور لي؛ لأنّه يكره أن يكون على جنابة، ويحبّ أن يظلّ على طهارة، وهو من اختار

عقوبة الجلد العلنيّ لطالبة في الميتم؛ لأنّها تقول إنّ الغناء ليس خطيئة تغضب الرّب، وتريد أن تصبح ممثّلة مسرح عندما تكبر.

*****

كتبت العاشقة: رحلتُ عن عالم صلاح خير النّوراني دون رجعة إليه، وأعفيته من أن يقاسمني حظوظي السّوداء، وبقيتُ أتابع أخباره عن بعد، وهو يرتقي في سلك القضاء الشّرعيّ بفضل نزاهته وعلمه وإخلاصه، وعلمتُ من زبون من زبائني القضاة المرتشين الذي يحبّون أن يتمرّغوا في أحضان المومسات أنّه قد أصبح مستشاراً أوّل في جهة شرعيّة أمميّة، وأنّه قد سافر إلى مقرّ هذه الجهة في دول إسلاميّة ما.

لقد فرحتُ لأجله فرحاً كبيراً، وظللتُ أتمنّى أن يتذكّر وعده لي بأن يتصدّق باسمي من ماله الحلال كي تدركني رحمة الصّدقة التي لا يمكن أن تُقبل من مال حرام مثل مالي.

وأخال أنّه يبرّ بوعده لي؛ فهو لا ينكث وعده، ولا يردّ طلب ملهوف، لاسيما إن كان هذا الملهوف هو امرأة حمراء معذّبة أحبّها حبّاً عميقاً مخلصاً، وأراد أن ينجب منها طفلاً عنيداً أبيّاً يشبه ذلك الطّفل الصّغير الذي كان يملك أجرأ كلمة "لا" في الدّنيا؛ لقد أحضروه إلى الميتم بعد أن مات والداه بقذيفة عدوّ في مخيم منكود من مخيمات العذاب في شتات ما، كان يرفض أن ينصاع لأيّ أمر فيه إذلال له، ويصمّم على موقفه على الرّغم من تعذيب المشرفات له، وتنكيلهنّ به حتى مات جوعاً وهو محبوس في قبو الميتم، وما استطاع أحد منّا أن ينقذه، أو أن يحتجّ على مصيره خوفاً من أن يؤول إلى ما آل إليه.

كتبت العاشقة: عندما قابلت فوزاً أبو صفرة ظننتُ أنّني قابلت صلاح خير النّورانيّ مرّة أخرى، لكن بعد سنوات من العذاب والوجع؛ لقد كان يزعم أنّه يحبّني حبّاً عظيماً مثل حبّ صلاح خير النّورانيّ لي، وأنّه على استعداد كذلك لأن ينسى تاريخي ورجالي وعملي المشؤوم على أن أخلص له، وأن أرحل معه إلى وطنه البعيد، وأنا كنتُ مستعدّة لذلك؛ فهو كان يبدو مقنعاً لي أكثر من صلاح خير النّورانيّ؛ لأنّه غريب عن المكان، ويستطيع أن يهبني بداية جديدة في بلد بعيد دون أن أرى زبائني في الدّروب والمحافل واللّقاءات.

قرّرتُ أن آخذ قراراً جريئاً، وأن أهجر دار البغاء التي أسّستها على أرقى طراز لأجل الطّبقة المخمليّة في المجتمع، واستقطبتُ لها جميلات المومسات، وسيّدات الأشراف المزوّرات ليمارسن فيها هوايتهنّ في التّردّي والسّقوط والتّعهّر، وقدّمتُ فيها مغريات كبيرة كي أجذب إليها أهل القلم والصّحافة والكتابة والفكر تقديراً منّي للقلم والكتابة اللّذين أعشقهما على الرّغم من انشغالي عنهما بعوالمي الحمراء التي تشبه لوني المحزون.

وقبلتُ في دار البغاء الخاصّة بي الكثير من الضّائعات في الدّرب اللّواتي لا يجدن مكاناً يأويهنّ، فآويتهنّ مقابل إتاوة شهريّة يدفعنها لي على أن أترك لهنّ أرباحهنّ من أعمالهنّ دون أن أسلبهنّ ما يدّخرن منها؛ كي يستطعن في يوم ما أن يفتحن مشاريع صغيرة بعيدة عن عوالم الدّعارة والمومسات والسّقوط.

لطالما شعرتُ أنّ هذه الدّار صورة طبق الأصل عن الميتم الذي فقدت إنسانيتي وبراءتي فيه؛ فكلا المكانين يبيعان أعراض الفتيات العاجزات عن الدّفاع عن أنفسهنّ، إلّا أنّ للميتم أثم السّبق في تلويث الفتيات، وسبّة

تعهيرهنّ وهنّ من وُلدنَ نقيّات طاهرات مثل حبّات مطـر السّـماء، في حـين أنا أفخر أنّ داري لم تجرّ أيّ منكوبة إلى هذا الدّرب الجهنّمـيّ، وأنّهـا لم تأكـل في يوم عرق عاملة فيها، ولم تعبّد أيّ واحدة بالسّـخرة، فكـلّ واحـدة مـنهنّ تأخذ أجرها موفوراً كما تطلب دون نقصان أو غـبن، وتعمـل وفـق قـدرتها وطاقتها ورغبتها.

*****

كتبت العاشقة: لكنّني لم أغلق دار الدّعارة لأسافر مع فـوز أبـو صـفرة، بل لأكون مومساً خاصّة لذلك المناضل الشّهير الذي جاء لاجئـاً سياسـياً إلى مدينتي بعد أن استقوى عليه رفاقه في الثّورة، وطردوه من بلده، وجرّدوه مـن منصبه السّياسيّ، فتحوّل مـن أحـد رجـالات وطنـه إلى قطـب مـن أقطـاب المعارضة في الخارج.

لقد جاء إلى المدينة برفقة شاحنتين من المال المسـروق مـن بلـده، ثـم بعـد ذلك أصبح عنقاء السّياسة في المكان، وسـيطر علـى البلـد ومـن فيهـا بحزبـه السّياسيّ العابر للدّول والقـارات الـذي شـكّله بمالـه المسـروق حتـى لُقّـب بالامبراطور.

لقد تعرّفت عليه عندما قدّمني له فوز أبو صفرة كـي أتوسّـط لـه بـأن يهبـه وظيفة دبلوماسيّة في بلد ما، وقـد توسّـطت لـه بمـا أراد، وقـد حصـل علـى الوظيفة التي يريدها في ملحقيّة دبلوماسيّة بعيدة في أقاصـي الأرض علـى أن يتركني له، وقد قبل بهذه المقايضة دون تفكير، وقبلتُ بهـا كـذلك؛ لأنّـني لا أريد أن أكون الخاسرة الوحيدة في هذه المقايضة الرّخيصة.

الإمبراطور لم يحبسني عليه، بـل جعلـني لـه ولأصـدقائه ولضـيوفه ولمـن يهوى أن يجاملهم من الرّجال، وأن يجرّهم إلى حزبه، وقد كنتُ خـير رسـول

له في رسائله الحزبيّة، فاقتربتُ أكثر مـن السّاسـة والسّياسـيين، فاكتشـفتُ أنّ الجميـع يمارسـون السّياسـة في كـلّ يـوم؛ وأكـبر سياسـة في مـدينتي أن تـدبّر معاشكَ لتظلّ على قيد الحياة بعد رحلة سيزيفيّة مضـنية مـن الصّـباح حتـى المساء.

واكتشفتُ من جديد أنّ نساء سرّيات هنّ مَنْ يشاركن في إدارة هـذا العـالم العجيب، وأنّهنّ من يقسّمن الغنائم مـع الكبـار، وهـنّ كـذلك مـن يقسّـمن الويلات على المغضوب عليهم، وأنّهنّ من يرسلن الأبريـاء إلى المعـتقلات أو إلى الموت.

ومن جديد همس لي هامس أمين: ابتعدي عن الخطوط الأماميّة مـن عـالم السّياسة؛ فهذا المكان ليس مكانكِ.

وقبل أن أقرّر الانسحاب من هذا العالم كان مُحبّ وهبـات يمـدّ لـي يـده كي يجذبني إلى عالمه حيث تجارة المخدّرات والسّلاح والرّقيـق الأبـيض؛ وقـد راق لي أن أذهب إلى عالمه؛ لأنّه الأكثر وسامة فيمن خادنتُ، والأرق طباعـاً فيهم ما لم يغضب، ويقرّر الانتقام، والأكثـر صـدقاً في كـلّ مـن قابلـتُ مـن رجال مزيّفين؛ فقد كان يفتخر بأنّه تـاجر سـلاح ومخـدرات ونسـاء، ويقـدّم نفسه لمن يتعرّف عليه بقوله: أنا القوّاد الأكبر محبّ وهبات.

لقد طالت رفقتي لـمحبّ وهبات، فامتدّت لسنوات طويلة؛ فقد كان حلـو المعشر، سـهل الطّبـاع، واضـح الأفعـال والـدّوافع، ولا يجـنح إلى الغـيرة أو الأثرة، إنّما يتعامل معي كما يتعامل مـع نسـائه جمـيعهنّ؛ فمـن يـدفع أكثـر يحصل على المرأة التي يريدها، حتى ولو كانت خليلته الخاصّـة، وهـذا الأمـر كان يروق لي؛ لأنّه يغرقني في عطايا الزّبـائن الأثريـاء الـذين يـدلّلوني أيّمـا تدليل؛ لأنّني محظيّة القوّاد الأكبر.

كتبت العاشقة: بعد سنوات طويلة من علاقتي مع محبّ وهبات بدأت تتحوّل الآصرة الآثمة التي تربطني به إلى رفقة درب طويل، بعد أن أخمد الاعتياد ما يتّقد في جسده لي من شهوة، ووجدتُ نفسي أختار له النّساء اللّواتي أقدّر أنّهنّ سيرقن له وفق خبرتي الطّويلة به، لاسيما عندما يسكر، ويرغب في امرأة جامحة متمرّسة في عالم الجنس، وقادرة على أن تحلّق به في عوالم هذيانه، وأن تتعاطى بشكل مرضٍ مع شذوذه وشطحات أفكاره.

قمتُ بهذا الدّور لأشهر طويلة، إلى أن قرّرتُ أن أنقطع عنه في شقّتي، وأن أقصر علاقاتي ونشاطي على عملي الفرديّ الصّغير دون صخب أو شراكات أو عوالم متدخلة؛ فقد بدأت أفقد قدرتي على تمثيل الفرح والشّبق، وإعطاء الفرح للزّبائن وفي نفسي ينبوع ألم لا يجفّ، على أنّني ما أزال أجد في نفسي رغبة في أن أصل إلى عوالم النّساء السّريّات الأعظم في هذا العالم؛ فهذا الأمر فيه الكثير من النّداء الخفي الذي يصعب مقاومته على امرأة مثلي خسرت كلّ شيء في مقامراتها المتكرّرة، وهي لا تفتأ تحمل قطعة النّرد في كفّ يدها، وتفكّر في مقامرة جديدة.

إلّا أنّني قرّرتُ بحزم أن أعود إلى عالم مقامراتي الصّغيرة والمأمونة كي أشعر ببعض السّلام والرّاحة، وأجد لي وقتاً مسروقاً منّي كي أمارس هوايتي السّريّة المقدّسة، وهي الكتابة، على أنّ أظلّ على علاقة موصولة مع زبائني المفضّلين ليؤمنوا لي الدّخل المطلوب لأستمر في حياتي شبه المرفّهة، وأنا مَنْ لم تدّخر ثروة من مغامراتها الماضية؛ فأولئك الذين يعطونني بسخاء، إنّما يمصّونني باحتراف أيضاً بطرق كثيرة مقابل ما أعطوني.

في هذه الفترة من حياتي قرّرتُ أن أصنع لي ضحاكاً خاصّاً بي، واكتفيتُ بأن أكتب لهذا الضّحّاك المتخيّل، ثم تطوّرت المتعة والألعوبة إلى درجة أنّ الضّحّاك المتخيّل غدا شخصيّة حقيقيّة تعيش معي في شقّتي، وتحدّثني، وتتشاجر معي أحياناً، وتغاضبني عندما يأتي الزّبائن إليّ، وتخرج من شقّتي غاضبة، وتصكّ الباب خلفها حنقاً على سلوكياتي، ولا تعود إلى مشاركتي سريري إلّا عندما يخرج الزّبائن من شقتي.

وفي يوم ما خرج الضّحّاك المتخيّل من شقّتي غاضباً، ولم يعد أبداً، ولم أسعَ إلى أن أبحث عنه؛ فقد اكتفيتُ بأن اخترعته من جديد على الورق، وهجرتُ عادة الحديث معه التي بدأت تريب زبائني بي، وينعتوني بالمجنونة الحمراء، عندما يرونني أكّلم الفراغ، وأتشاجر معه، وأحبسه في المطبخ.

*****

كتبت العاشقة: لكنّ هملان أبو الهيبات كان خير من يروق له صحبة امرأة مثلي تعيش على تخوم الجنون والعقل؛ فأنا طِلْبته، ومن غيري من النّساء من تستطيع أن تفهم ذلك الانشطار الذي يعيشه في ذاته وحياته وتفكيره وسلوكه؟ فهو مخنّث الأعضاء والسّلوك، وعلى الرّغم ذلك يعيش في جلباب الرّجولة الذي فرضه والده عليه منذ كان صغيراً، فظلّ يعلن أنّه رجل، ويتكتّم على تكوينه الخنثى وميله نحو عالم الأنوثة، وبقيت أثوابه النسّائيّة الجميلة، وملابسه الدّاخليّة الأنثويّة الحريريّة، وأدوات زينته وعطوره حبيسة أدراج غرفته الخاصّة، إلى أن يرتدي ملابسه النّسائيّة سرّاً، ويلتقط صوراً له بها، ويخرج في جولات سريّة في شوارع المدينة في ساعات متأخّرة في اللّيل ليحظى بتحرّشات جنسيّة تلهب فيه جذوة الأنوثة التي يصمّم والده

على دفنها في أعماقه لصالح حياة رجل هو لم يستطع أن يكونـه في يـوم مـن الأيام.

لقد زوّجه أبوه عنوة من إحدى قريباته كي يحفظ إرث العائلة مـن التّفتـت بين أيدي الغرباء، ففضحته على رأس الأشـهاد عنـدما خرجـتْ مـن غرفـة نومهما تصرخ مفجّعة مـن جسـده الملـبس، وصـمّمت علـى الطّـلاق منـه، وأخذت منه الكثير من المال مقابل أن تتستّر على ما رأتْ، ولا تفضحه أمـام العشيرة، وتخبرهم بسره الخنثى.

بعد تلك الحادث ترك قريته حيث عشيرته العريضة، وانتقـل إلى الحيـاة في المدينة ليمثّل حزبه العشائريّ الذي كوّنه والده ليكون غطاء لـه يخفـي خلفـه عمله في تهريب السّلاح عبر قريتهم الحدوديّة، لكنّه أصيب بلوثة ملازمـة لـه اسمها إثبات أنّه رجل أمـام النّـاس كـي لا يجلـب العـار إلى والـده ورجـال عشيرته؛ لذلك بات يتنقّل من امرأة إلى أخرى، ويصاحبهنّ حتى اشـتهر أنّـه ماجن زّناء نجس الذّيل، وهـذه الشّـهرة كانـت تسـعده لأنّهـا تعـني لـه شـيئاً واحداً، وهو أنّه رجل فحل على الرّغم ممّا ظلّت طليقته تشيعه في القرية بـين نسائها عن جسده الملعون، وهي تشكّك في قدرته على إتيـان أيّ أنثـى، ولـو كانت أنثى أرنب.

كان يعاني كثيراً، وهو يمثّل الرّجولة على ما يشـتري مـن نسـاء، وروحـه تتوق إلى أن يعيش تفاصيل الأنوثة، وأن يلفت نظر الرّجال إليـه، وأن ينجـو من استغلال نسائه له اللّواتي كان يدفع لهنّ الكثير من المال كي يتواطأن معه في ترّهات رجولته التي لا وجود لها إلّا فيما يطلقه من شـائعات عنهـا وعـن فتوحاتها المؤزّرة.

عندما قابلتُـه، وتعرّفـتُ عليـه، وتلقّفتـه مـن يـدي زميلـة لـي في مهنتنـا الشّيطانيّة، وجدتُ معـه متعـة عجيبـة، فأنـا لم أتسـتّر عليـه كمـا يبغـي مـن علاقتنا، بل عشتُ معه تفاصيل انفصامه البيولوجيّ والنّفسـيّ، فلـم أعاملـه بوصفه رجلاً خنثى، أو رجلاً عنينـاً، أو امـرأة مسـخاً، أو ذاتـاً تضـمّ ذاتـين متناقضتين، بل عاملته بوصـفه امـرأة مخنوقـة جـبراً في جسـد رجـل تصـمّم القبيلة على بقائه على قيد الحياة، وعلى قتل المرأة فيه؛ لذلك أصبح صديقتي المفضّلة التي أشاركها تفاصيل الحياة، وأعيش معها ما تتمنّـى أن تمارسـه مـن ارتواء المرأة بذاتها.

في شقتي كان يلبس ملابسه النّسائيّة التي ابتاعهـا مـن أرقـى دور الأزيـاء، ويضع زينته كاملة، ويتعطّر بعطري النّسائيّ المفضّل "السحر القاتـل"، ويسـرّح شـعره، ويزيّنـه بـورود كريسـتاليّة برّاقـة، ويشـاهد معـي أفلامـاً رومانسـيّة، ويساعدني في تنظيف المطبخ، ويلمّع أرضـيّة الحمّـام، وينشـر الغسـيل علـى حبال شرفتي الصّغيرة.

أمّا عندما أخرج معه أمام النّاس، فأتظاهر معه بأنّـه رجـل كامـل الفحولـة، وأتغنّج له، كأنّه حلم أيّ امرأة، فيغدق عليّ بماله بكرم رجـل مبتلـى وامـرأة صديقة محبّة تشكر صديقتها على ما تقدّمه لها من عون ودعم ومحبّة خالصة.

مع الوقت بات هملان أبو الهيبات صديقتي المفضّلة بعد صديقتي التّاريخيّـة هدى التي قلّما تزورني في شـقّتي لـتحفّظ زوجهـا علـى علاقتهـا بـي لسـوء سمعتي دون أن يعرف طبيعة عملي الملعون الذي أكسب لقمة عيشي منه.

وأصبح من هواياتي الحميمة أن أتابع تصـريحاته السّياسـيّة الخطـيرة حـول ضرورة التّعايش السّلميّ مع العدوّ بدل طحنه؛ لأنّ السّلام الحقيقـيّ يصـنعه الرّجال الحقيقيون، وهو يـرى نفسـه رجـلاً حقيقيّـاً؛ لـذلك يطالـب بسـلام

الرّجال الأشاوس الذي يعدّ نفسه واحداً منهم بامتياز بشهادة لائحة كبيرة من المومسات وشهادتي الجيدة.

تصريحاته الطّويلة المشحونة بالأكاذيب كانت تضحّكني حتى تنسيني ذلك الوجع الذي بدأ ينبتُ في ثديي الأيسر، وتحمّسني كي أطلب منه أن ينظّف بلاط حمّامي عندما يعود إلى شقتي، ويخلع رجولته المطالبة بسلام الذّل والهوان مع العدوّ، ويلبس أنوثته الكسيحة التي ترضى بتنظيف حمام مومس في درجة الاعتزال بسبب التّقادم.

سرعان ما فقدتُ هملان أبو الهيبات الذي تقلّد منصباً دبلوماسيّاً في بلد أوروبيّ، وسافر نحو البعيد، لقد طلب منّي أن أسافر معه؛ لأكون رفيقته الدّائمة في سفره، لكنّني ما وجدتُ في نفسي طاقة للسّفر، ولبس المزيد من الأقنعة؛ لذلك آثرتُ أن أودّعه على مضض، وأن أتابع تصريحاته الذّليلة مرّة تلو الأخرى، إلى أن تمّ إعفاؤه من وظيفته الدّبلوماسيّة بسبب زواجه المثليّ من صديق له تعرّف عليه في عمله في أوروبا، وقد رأيت صوراً له في الإعلام يقبّل فيه زوجه على الملأ، ويصرّح بأنّه يعيش أجمل أيام حياته، وأنّهما قد قدّما أوراقاً لتبنّي طفل صغير لتشكيل نواة لأسرتهما السّعيدة التي تبلورت من زواج رجل بآخر في إطار العلاقات المثليّة.

شعرتُ بسعادة غامرة؛ لأنّ هملان أبو الهيبات وجد السّعادة التي ينشدها أخيراً، وكفّ عن تصريحاته الرّعديدة المطالبة بالسّلام مع العدوّ، وترك حزب أبيه الذي سرعان ما نقل أمر تمثيله إلى ابن آخر من أبناء العائلة، اسمه هملان أيضاً، وله غرام جامح بمضاجعة المومسات وإطلاق التّصريحات التي تحضّ على السّلام مع العدوّ. في حين ظللتُ أطلق اسم هملان على أيّ شيء خنثى أو جبان .

كتبت العاشقة: سرعان ما صدفتُ حالم الورديّ وجنان الطّويل في العوالم الافتراضيّة عبر المراسلات الإلكترونيّة في الشّبكة العنكبوتيّة، لا أعرف من منهما صدفته أوّلاً، لكن كليهما عاش معي التّجربة ذاتها في الوقت نفسه؛ فكلاهما كان عشيقي الافتراضي في آن، إلّا أنّ التّفاصيل كانت مختلفة تماماً؛ فحالم الورديّ الذي كان يسمّى نفسه بهذا الاسم، ويرفض أن يخبرني باسمه الحقيقيّ كان على درجة رفيعة من الثّقافة والعلم والفلسفة والفكر والرّؤية، لكنّه كان يصمّم على التّجاهل والتّغافل، وتمثيل دور الغرّ الجاهل الحوشيّ الذي لا يريد سوى أن يستغرق معي في الكلام البذيء والأفكار الجنسيّة الشّاذة، ويعرض علي لوحاته الجنسيّة التي يفخر بها فخراً مديداً.

كان يروقه أن نغوص في عوالمه الغريبة التّكوين والتّخيّل، وأنا جاريته في ذلك؛ لأنّ الأمر راق لي؛ فهو يرى الحياة بشكل مختلف، ويرى الجنس بشكل مفارق، حتى العذاب يراه بشكل استثنائيّ، ويتألّم بشكل مختلف.

فيما بعد اكتشفتُ أنّه لا يرسم فقط، بل ويعزف على الكمان والعود والنّاي، ويكتب الشّعر والنّثر والمقالات الفلسفيّة، والدّراسات الإيروتيكيّة المعمّقة لا سيما في الآداب المقارنة والمذاهب الفكريّة.

وعندما تجاوبتُ معه بإرسال صور لي في وضعيات جنسيّة مثيرة وفق ما يطلبه، ومن ثم إرسال تسجيلات فيديو إباحيّة لي، أخذ يشاركني في آرائه الفكريّة، ويحدّثني عن مفاهيمه مع إصراره على أنّه جاهل، وغير متعلّم، وغير مثقّف.

رفض تماماً أن يرسل لي صورته الشّخصيّة، ورفض أن يكلّمني هاتفيّاً لأسمع صوته وفق طلبي الدّائم منه، واكتفى بأن يرسل لي الرّسائل

الإلكترونيّة الطّويلة، وأن يدخل معي في محاورات الكترونيّة طويلة أحياناً تمتدّ من ليل إلى ليل، ومن نهار إلى نهار، ثم بات يرسل لي بكثافة صوراً عن اللّوحات الإيروتيكيّة التي يرسمها، ثم المقطوعات الموسيقيّة التي يؤلّفها، أو يختارها من أجمل كلاسيكيّات الموسيقى في العالم، وفيما بعد طفق يرسل لي نسخاً الكترونيّة من الكتب الجنسيّة التي يبحر فيها، لاسيما الكتب الجنسيّة العربيّة التّراثيّة، مثل: الوشّاح في فوائد النّكاح، ورشف الزّلال من السّحر الحلال لجلال الدّين السّيوطيّ، وديوان أبي حُكيمة لأبي حكيمة راشد بن إسحاق، ونزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب لصاحبه شهاب الدّين أحمد التّيفاشي، ورجوع الشّيخ إلى صباه في القوة على الباه لأحمد بن سليمان، وتحفة العروس ومتعة النّفوس لأبي عبد الله التّيجانيّ، وغيرها.

لقد أخذني حالم الورديّ إلى عوالم أخرى للجسد حيث التّفنن في اكتشافها، والمتعة بها، دون قوادة أو عهر أو نخاسة، فهو يؤمن بعظمة الجسد عندما يجيد لعبته الكونيّة، ويتفرّغ لها، ويجد فيها متعته، وسرّ وجوده، ويرى المرأة التي تدرك قدسيّة جسدها القادر على فعل الجنس هي امتداد لربّات الجنس اللّواتي كنّ يُعبدن في الزّمن الغابر؛ لأنّهنّ يقدّمن أجسادهنّ للمعابد ولطارقيها لأجل استمرار دورة الحياة بفعلهنّ المقدّس، وهو الجنس؛ لذلك يُطلق عليهنّ لقب "البغايا المقدّسات" تكريماً لهنّ على دورهنّ في استمراريّة دورة الحياة والوجود والتّناسل؛ لذلك شُيّدت المعابد لعبادة أعضائهنّ الجنسيّة، فكرّسن ريع ما يجنين من البغاء لأجل معابدهنّ؛ فهي ريوع مقدّسة ومباركة من مردود نشاطهنّ الجنسيّ، وتبرّعهنّ بأجسادهنّ لقاصديها.

عندما توثّقتْ صداقتي بحالم الورديّ أطلق عليّ لقب "البغي المقدسّة"، وطلب منّي أن أعطيه رقم حسابي البنكيّ لأجل أن يحوّل لي بعض المال

لقاء خدماتي الجنسيّة الإلكترونيّة، لكنّني رفضتُ ذلك، وعددتُ ما أقدّمه له متعاً جنسيّة لي أحاولُ أن أقاربَ فيها عوالم المخبولين والمعاتيه وأهل الصّبوة والمجذوبين إلى أسرار الجسد وتفانين الجنس. وذهبتُ معه كلّ مذهب أراده في شحطات عالمه الجنسيّ العجيب لأستمتع بما يستمتع به من جنوح وتماهي مع عوالم أخرى.

الأمر برمّته كان يعطيني لذة الاكتشاف والانبهار والفتح، كأنّني لم أمارس الجنس في حياتي، حتى أنّني كنتُ أتمنّى أن أرى جسد حالم الورديّ، وأن أمارس الجنس معه وفق جنونه وخبله ووله به، حتى لو فعل ذلك، وهو يخفي وجهه بقناع أسود كما اشترط عليّ أن نفعل في يوم ما إن التقينا ذات مضاجعة.

وكنتُ أتمادى في التّخيّل، فأتصوّر أنّ حالم الورديّ ليس إلّا الضّحّاك المتخيّل الذي رسمته في خيالي، ثم وهبته الحياة، وعاش معي في شقّتي، إلى أن غادره مغاضباً لي، أو أنّه مجرّد وهم أتخيّله بسبب فوضى الجنس التي أعيشها في حياتي، لكنّني عندما كنتُ أجد رسائلنا الالكترونيّة محفوظة على جهاز حاسوبي المحمول كنتُ أتأكّد أنّ حالم الورديّ شخصيّة حقيقيّة متنكّرة، وليس مجرّد وهم من أوهامي.

وفي نهاية المطاف بعد أن تعبتُ من التّخمينات استقررتُ على عدّ حالم الورديّ حالة شبق الكترونيّة مهووسة وجدتْ بغيتها عندي، وليس مجرّد رجل التقى بي اتّفاقاً في العالم الافتراضيّ، لا سيما أنّني كنتُ أسمّي نفسي في صفحتي الإلكترونيّة باسم "عشتار الحمراء".

لعلّه زبون من زبائني قد راقه أن ألاعبه لعبة الجنس الافتراضيّ، بعد أن أبدعتُ معه في لعبة الجنس الحقيقيّ في زمن ما، وفي مكان ما؛ فجسدي

وعطاياه قد تبعثرتْ في أيدي الغرباء من الرّجال الذين لا أعرف حتى أسماء معظمهم.

في يوم ما أصررتُ على حالم الورديّ كي يخبرني بحقيقة من يكون، لكنّه رفض أن يستجيب لطلبي، وأرسل لي نسخة الكترونيّة مصوّرة من مخطوطة زعم أنّه الوحيد الذي يملكها في الحياة، وقال لي إنّ هذه المخطوطة هي مخطوطة كتاب "الأعظم في سحر الجنس الأكرم"، وأنّ عليّ أن أحتفظ بها إلى أن يخبرني بحقيقة من يكون.

استغرقتُ كثيراً في قراءة المخطوطة المكتوبة بحروف عربيّة قديمة دون تنقيط، وفيها الكثير من الرّموز المجهولة المعنى، لكنّني شعرتُ بمتعة كبيرة، وأنا أقرأ هذه التّهويمات العجيبة عن سحر الجنس، وقدرات الجسد، وكدّتُ أنقل بعض التّرانيم السّحريّة من تلك المخطوطة، إلّا أنّها اختفت من جهاز حاسوبي الذي حفظتها فيه، كما اختفت تماماً من الرّسالة الالكترونيّة التي حُمّلتْ بها.

أرسلتُ أكثر من رسالة إلى حالم الورديّ كي أفهم معنى ما يحدث معي بخصوص مخطوطته العجيبة، لكنّني تفاجأتُ بأنّ رسائله الالكترونيّة التي كتبها لي على امتداد أشهر طويلة قد اختفتْ، وأنّ صفحته الالكترونيّة قد اختفت من الشّبكة العنكبوتيّة!

حاولتُ جاهدة بعد ذلك أن أجده عبر مواقع البحث الإلكترونيّ، لكنّني فقدته بشكل كامل، كما فقدتُ الأمل في أن أجده من جديد بعد أن تبخّر مع تبخّر مخطوطته العجيبة.

كتبت العاشقة: باختفاء حالم الورديّ لم يظلّ لي من رجالي الافتراضيين الممتعين سوى جنان الطّويل الذي كان يفيض عليّ بصور شيخوخته المهترئة، ويرسل لي صوره عارياً، ويستجديني كي أفيض عليه بكلمات الثّناء على جسده الذي لا يمكن أن يروق لنسناسة شبقة محبوسة في قفص منتزه، لكنّني كنتُ أفعل ذلك؛ لأنّه كان يفيض عليّ بالمال دون أن يستطيع أن يهبش من جسدي، ويمتعني بقصصه الدّونكشوتيّة الطّريفة عن مغامراته الجنسيّة مع نساء المعمورة التي يزعم أنّه لفّها بضعة مرّات بحكم أنّه كان مضيف طيران في شبابه قبل أن ينشرخ، ويغدو مجرّد سلسلة قصص عن نساء من كلّ لون وطعم دخل معهنّ في مغامرات، ثم انفصل عنهنّ، أو انفصلن عنه لسبب أو لآخر.

الحقيقة أنّه لم يكن قاصّاً مذهلاً، لكنّه كان يملك مخزوناً عجيباً من المعلومات عن طبائع النّساء واختلاف رغباتهنّ الجنسيّة وفق أعراقهنّ وأصولهنّ، إلى جانب أنّه كان يرسل لي حوالات ماليّة سخيّة نظير مديحي لجسده القبيح، واستمتاعي بقصصه الجنسيّة الشّاذة التي لا يستطيع أن يرويها إلّا لامرأة بعيدة عن عالمه، ولا يعنيها التّجسّس على تفاصيل حياته الأسريّة المعقّدة.

كم تمنّيتُ من أعماق قلبي لو أنّ أحلام يقظتي تصبح حقيقة، ويكون جنان الطّويل ليس إلّا حالم الورديّ في حيلة منه للتّواصل معي، لكن ما كان يمكن أن يكون هو، وهو من يرسل لي صور جسده عارياً ووجه مبتسم لي بفخر، في حين أنّ حالم الورديّ يرفض حتى أن يسمعني صوته السّريّ.

في تصفية نفسيّة سريعة مع ذاتي قرّرتُ أن أعدّ حالم الورديّ وجنان الطّويل والضّحّاك الذي رسمته مجرّد أوهام اخترعها عقلي المريض الذي بدأ يتأثّر بذلك الألم العجيب الذي بدأت أشعر به في ثديي الأيسر.

وهروباً من فكرة المرض التي أخشاها، وفكرة الجنون التي تلاحقني، قرّرتُ أن أغلق حساباتي التّواصليّة الالكترونيّة كي أهرب من هواجسي ومخاوفي ووخز الألم في حلمة ثديي الأيسر.

*****

كتبت العاشقة: عليّ أن أفكّر جدّياً في مراجعة الطّبيب بخصوص ذلك الألم المتنامي في ثديي الأيسر، لكنّني أخاف من المرض؛ لذلك أفضّل أن أقنع نفسي بأنّني في حاجة إلى نقاهة صحيّة في منتجع صحيّ أو رياضيّ في الأرياف حيث يرتاح جسدي، وتهرب نفسي من جحيمها.

ذلك الوسيم الطّويل يخلب لبّي، وأنا أراقبه من بعيد طوال جلوسي بالقرب من البحيرة الصّناعيّة في المنتجع الصّحيّ، أرغب كثيراً في أن أجرّب شبابه المثير الذي لا يتجاوز نصف عمري، وأتخيّل مدى الإثارة التي يملكها بامتداد طوله النّخليّ وهالة شعره البنيّ.

عندما يحاول ملاطفتي والحديث معي أرحّب به، وأهبه كامل اهتمامي كي أسحبه إليّ بعد أن ازداد جاذبيّة في نظري وزرقة عينيه تحمّمني بلججها، وشعره البنّي على شكل ذيل فرس يلهب روحي، أتخيّل أنّه سوف يدعوني إلى السّرير، وهو يتأمّل وجهي، لكنّني أعود، وأتراجع عن أمنياتي الطّائشة عندما يناديني بخالتي، ويسألني إن كنتُ أرغب في أن أحصل على جلسة تدليك صحيّ، وهو خير مَنْ يجيد ذلك في هذا المنتجع الصّحيّ.

لم أوافق على أن يقدّم لي خدمة التّدليك الطّبيّ كي لا أذوب ضعفاً بين يديه، وأنا من تقنع منه بأن يلاطفها بذكورته السّمحة. لكنّه ظلّ مصمّماً على أن يقضي الأوقات معي طوال فترة بقائي في المنتجع إلى أن غادرته.

*****

كانت مفاجأة كبيرة لي عندما فتحتُ باب شقّتي، ووجدتُ وجهه القمريّ مثل وجه طفل يبسم بفرح، ويقول بصوت متحمّس: لقد حصلتُ على عنوانكِ من قسم استقبال المنتجع، وقد أحببتُ أن أحضر للاطمئنان عليكِ. أرجو أن تقبلي منّي هذه الزّهور التي اشتريتها لأجلكِ. إنّها زهور الزّنبق، لا بدّ أنّك تعشقينها؛ فهي بيضاء نقيّة مثلكِ.

لم أظهر له سعادتي بزيارته لي، وأظهرت كآبة منفّرة وأنا أسمح له بالدّخول في شقتي، ثم أقدّم له الحلوى والقهوة، لكنّني كنتُ من داخلي أشعر بفرح غامر، وذلك الشّاب العشرينيّ السّاحق الوسامة يطاردني، ويحاول التّقرّب منّي، وأنا مَنْ أكاد أكون في عمر أمّه أو أخته الكبيرة.

كان يحدّثني بانتشاء، وهو من ظفر بالحديث معي، في حين كنتُ أتلصّص بافتخار على طاقة زهور الزّنبق البيضاء التي رفضتُ أن آخذها منه، فوضعها بحنان فوق زجاج طاولة غرفة المعيشة قبالة الكرسي الذي أجلسه عليه، وجلس باستحياء في كرسي قريب من مكان جلوسي، وأخذ يحدّثني طويلاً، ويقرأ عليّ من محفوظه الشّعريّ الغزليّ بعد أن علم أنّني أعشق الشّعر وأهله، وهو من يجيد أن يترنّم بما يقرأ من الشّعر، ويستحضر دفق مشاعره، وهو يكرّر كلمات العشّاق، ثم يتنفّس الصّعداء بين قصيدة وأخرى، وهو يحاول أن يسبر في ملامحي أثر كلماته على قسماتي، فأصطنع لا مبالاة باردة لعلّها تخفي رغبتي الجامحة في أن أجلس في حضنه القوي، وأن أركن إلى

صدره ذي العضلات البارزة من تحت قميصه القطنيّ، ثم أداعب شعرات ذقنه الزّغب، حتى أطبع قبلة سخينة على زرقة عينيه اللّتين تتّسعان لابتلاع بحر بزوارقه وموانئه وشطآنه.

لكن نظراته البريئة كانت تمنعني من ذلك، فهي كانت تستحضر في ذهني نظرات الابن الذي كنت أتمنّى أن أنجبه من الضحّاك، لا بدّ أنّه كان سيحظى بمثل جسده الجميل الممتدّ ورثة من أبيه، وبمثل عينيه الملوّنتين وبشرته الصّافية ورثة منّي، أمّا شعره البنّي البديع اللّون فسيكون ورثة مجهولة من موروث ما.

الوسيم الطّويل زارني مرّة تلو الأخرى دون إذني، ثم بات يزورني كلّ ليلة بإذني ورضاي وانتظاري له، واكتشفتُ أنّ ما كنتُ أراه في عينيه من براءة طاغية هي أوهام من صنع مخيلتي التي ما تزال تؤمن بفرضيّات الأمومة والبنوّة، وأنّ هذا الشّاب له الكثير من التّجارب الجنسيّة التي حصل على كثير منها بحكم وظيفته في التّدليك التي كانت تمتدّ لتصبح أكثر من ذلك عندما تعرض عليه امرأة شبقة أو سائح باحث عن المتعة أن يحوّل التّدليك إلى غواية مقابل مكافأة ماليّة يدسّها في جيب بنطاله القصير، وهو يخرج من المكان، وقد تتحوّل المكافأة الصّغيرة إلى مكافأة كبيرة إنْ طاوع أولئك الزّبائن الرّجال الذين جاؤوا إليه ليصطادوا فحولته، ويرضوا جوعهم إلى ذكر يضاجعهم، بدل أن يضطروا إلى السّفر إلى أماكن قاصية بحثاً عن الرّجال الشّاذين.

لم تسقط مودتي للوسيم الطّويل عندما أخبرني بتفاصيل مغامراته الجنسيّة، وأدركتُ أنّه يفتح الأبواب لي لأدخل إلى عالمه، ولم أستطع أن أنهره؛ لأنّني

لستُ من عالم خارج عالمه، لكنّني آثرتُ أن أوهم نفسي أنّني أمام شاب غرّ بريء، يستحقّ فرصاً أفضل من تلك التي حصلتُ عليها في الحياة.

بسرعة كبيرة نما بيننا شعور دافئ طاهر مزيج من المتناقضات جميعها التي لا أعرف لها أسماء أو توصيفات، لكنّني أعلم أنّها ممزّقة لذاتي وراحتي؛ فأنا أريد قرب هذا الشّاب الطّيب المفعم حياة ورقة ووسامة وصحّة وشِعراً، وفي الوقت ذاته أريد أن أهرب منه كي لا أجني عليه بتاريخي الأسود العفن، ولا أريد في كلا الحالتين أن يلوثني أكثر، أو أن يدرجني في قوائم تجاربه الجنسيّة الشّاذة بشكل أو بآخر.

لا أعرف إلى أيّ القوى التي تتجاذبني عليّ أن استسلم، إلا أنّ نتائج الفحوصات التي قمتُ بإجرائها لثديي الأيسر حسمت الأمر، وجعلتني أقرّر أن أبتعد عن ذلك الشّاب المفتون بي، ويريد أن يتزوّجني على الرّغم من فارق السّن الكبير بيننا؛ لأنّ عليّ أن أخوض معركة مباغتة مع السّرطان الذي دخل إلى حياتي دون استئذان، وهاجم ثديي الأيسر، واكتشفتُ وجوده هناك في مرحلة متأخّرة من المرض، وعليّ أن أخطو خطوات كبيرة في العلاج كي أتصدّى له دون رفقة أو حبيب أو مغامرات تُفني روحي أكثر فأكثر.

*****

في أوّل جلسة علاج كيميائيّ لي في المستشفى قابلت تلك العجوز الحمراء في غرفة الانتظار، لقد حدّثتني طويلاً عن مرضها، هي مثلي مصابة بسرطان الثّدي الأيسر، وتتلقّى جلسات علاج كيميائيّ. بدتْ لي أنيقة دون ابتذال أو بهرجة، وجميلة جدّاً على الرّغم من أنّها في السّتينيّات من عمرها كما خمّنتُ، وصوتها المبحوح الرّقيق يزيدها جمالاً وأنوثة وجاذبيّة.

لفتت خضرة عينيها نظري، فأنا لم أرَ من قبل حمراء فاتنة بعينين خضراوين سواها، لكن عندما نادتني بابنتي تذكّرتْ الحمراء الأخرى التي تشبهها، إنّها أنا. أتراها تكون أمّي التي التقي بها الآن صدفة بعد أكثر من أربعة عقود من قطيعتها لي؟

لاح في ذهني سؤال لطالما خطر في بالي أن أسأله لأمّي إنْ التقيتُ به، وهو: ما اسمي؟ فأنا لا أعرف لي اسماً غير اسم بهاء التي وهبه الضّحّاك لي، أمّا ذلك الاسم الذي وهبته لي يوم ألقتْ بي في الشّارع، فلا أعرفه، كما لا أعرف لماذا تخلّت عنّي، وخلعتني من حياتها، ونسيتْ أنّها قد أنجبتني، دون أن تنسى أن تهبني جيناتها التي أورثتني مرض سرطان الثّدي الذي أصابها كذلك لأكثر من مرّة كما أخبرتني للتوّ.

ظلّ السّؤال يروغ على لساني دون أن أنطق به، وتذكّرت سريعاً ذلك الحلم الغريب عندما أطلّت عليّ أمّي من كوّتها النّورانيّة عندما اغتصبني أفراح الرّمليّ.

هذه العجوز تملك الوجه ذاته الذي أطلّ عليّ في تلك اللّيلة، ورفضته بإصرار، والآن أنا أرفض أن أرى وجه هذه العجوز التي تذكّرني بأمّ لا حاجة لي بها، وأنا أسير نحو الموت والعدم.

انتصبتُ على قدمي، وغادرتُ مقعدي القريب من تلك العجوز الحمراء مقاطعة حديثها معي دون استئذان منها أو إلقاء تحيّة وداع عليها، ثم غادرتُ الغرفة كلّها، واتّجهتُ إلى القسم الآخر للعلاج الكيميائيّ لأطلب منهم أن يغيّروا موعد جلستي هذه كي لا أصدف هذه العجوز الحمراء مرّة أخرى؛ لأمنع نفسي من أن تحلم بأن تكون أمّي التي تخلّت عنّي بعد أن زرعتني في

دنيا الضّياع، ثم ساقتها الأقدار إليّ في هـذه الأوقـات السّـوداء لنلتقـي عنـد مذبح الموت الذي يقدّ من جسدينا دون رحمة، ويأكل على مهل وتمتّع.

*****

كتبت العاشقة: أنا. . . . .

*****

قبل أن يُكمل الضّحّاك قراءة باقي ما كتبته العاشـقة في فصـل الجحـيم، شعر ببركان ينفجر في داخله، ومزّق باقي صـفحات الفصـل، وجعلـها نتفـاً على الأرض، ثم داسها، وجلس محطّماً في كرسيه المنجّد، ثم انـتفض، وهـو يتخيّل باربرا تجمع هذه الأوراق الممزّقة، وتلصق إحداها بالأخرى، وتقـدّمها لأحد أصدقائه الأربعة ليقرأ ما فيهـا، ويكتشـف أسـرار بهـاء الـتي دفنهـا في صدره، ولم يبح بها لأحد ما.

قفـز مـن مكانـه مثـل الملسـوع، وجمـع الأوراق الممزّقـة علـى الأرض، وأطعمها لنيران مدفأة الغرفة، ووقف يتأمّلها تحـترق، وتـتفحّم، ثـم تتفتّـت، وتخور رماداً على أرض المدفأة المستعرة، وباتت ذاكرته تستدعي صوراً كـثيرة من تسكّعه في شوارع الظّلام حين كان يرفض أن يشتري جسداً أنثويّـاً مهمـا بلغت فتنته، أو نهشته الشّهوة، ويكمل سيره مبتعداً عن فكـرة بشـعة اسمهـا شراء جسد امرأة جائعة منكودة.

النّسيان السّادس عشر
النّجوم اللّامعة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"لماذا عندما يتنفّس يعلو وجيب قلبي"
"ليس هناك أصدق من لحظة انصهار بين عاشقين"
"أنْ تَعشق، وأنْ تُعشق هذه سدرة المنتهى"
"الدّموع أغلى من العشق"
"أشدّ أنواع البخل هو البخل على الذّات بالحبّ"
"لا يقين عندي سوى الموت وحبّك"
"القلب عندما يصبح بيتاً يهب دفئاً أبديّاً"

لأيّام طويلة وجد الضّحّاك صعوبة في أن يتأمّل في وجه بهاء بعد أن قرأ عن جحيمها الذي عاشته طوال فترة شبابها، لا يزعم أنّه ينفر منها، أو أنّه يحتقرها، أو يشعر بأنّها مدنّسة قذرة، بل يخفض عينيه أرضاً، ويتحاشى النّظر في وجهها المحزون بعد أن فهم لغز تلك الدّموع التي تتنزّى من عينيها وهي نائمة، فيمسحها بخشوع من يمسح دموعاً من عيني ملاك.

لقد عانت كثيراً في حياتها، ومزّقتها الحياة أيّما ممزّق، لا لجناية اقترفتها، ولا لإثم اجترحته، أو لنقيصة جُبلت عليها، إنّما لأنّها امرأة حمراء مثيرة يتيمة لا معين لها، أو نصير في مجتمع داعر لا يعرف من الفضيلة إلّا التّشدّق بها.

لقد حاولتْ مرّة تلو الأخرى أن تنزع إلى درب الفضيلة، لكن المجتمع المتوّحش كان يجذبها بقوة إلى الرّذيلة والضّياع. والآن هي وحدها معلّقة في عالم النّسيان والمرض كي تهرب من العذاب وسوق النّخاسة الذي ما استطاعت أن تنجو من غوائله.

كم يشعرُ الآن بذنب ملوّع ؛ لأنّه نكث وعده لها، ولم يهرّبها من الميتم قبل عقود طويلة! كان عليه أن يهرّبها من ميتم الأيتام، ومن ميتم الوطن، وأن يشاركها فيما حصل عليه من حظوظ سعيدة عندما وصل إلى هذه الأرض مع ابن عمّ أبيه، ليعيش حياة كريمة بهيجة لا ينقصها إلّا أن تكون معه.

لقد كان يتنعّم، وهي تعاني، ويتعلّم، وهي تُجهّل، ويطوّف سياحة في البلاد، وهي تتيه في أجساد الرّجال، ويمارس هوايته، وهي تنفّذ أوامر أسيادها النّخاسين، ويحصد النّجاح والتّقدير والتّميّز، وهي تُدفع عن الأبواب محتقرة ملعونة مُعيّرة بخزيها.

هل كانت أقدارها سوف تتغيّر لو أنّها هربت معه إلى الشّوارع؟ أم أنّ حظوظها من الحياة هي أقدارها التي لا يمكن أن تفرّ منها مهما تغيّرت تفاصيل الأحداث؟

تخيّل أيّ شيء إلّا أن يكون هذا هو قدر بهاء التي تليق بها سحائب السّماء ونجومها، وتصلح لأن تكون أيقونة للجمال والصّلاح والملائكيّة والصّفاء، بدل أن تؤول إلى عالم الدّعارة كي تبقى على ذمّة حياة الموت خير منها.

لكنّه يراها على الرّغم ممّا تعرّضت له من دنس وتحريق ما تزال جميلة طاهرة، وهي ترقد في سريرها، وتحلّق في عوالم بعيدة، وتبحث لروحها عن مكان طاهر تسكن فيه.

يشعر أنّه للتّو قد هرب معها من الميتم، وأنّهما ما يزالان طفلين صغيرين حالمين، وأنّ حبيبته قد نامت في سريرها كي ترتاح من إرهاق الجري بعيداً عن المياتم، وعندما تستيقظ سوف تكتشف أنّها لم تكن أكثر من أميرة نائمة

تحلم بكابوس، وتجد في انتظارها أميرها المعشوق الـذي ينتظرهـا علـى بوابـة اليقظة ليطبع قبلة الحياة على شفتيها.

*****

هذا الصّباح كان الضّـحّاك يشـعر بضـيق في روحـه، ولا يملـك أمنيتـه المعتادة في أن تستيقظ بهـاء مـن سـباتها الطّويـل، لا يسـتطيع أن يتقبّلـها إنْ استيقظتْ من نومها، يفضّل أن تظلّ في غيبوبتها لهذا اليوم، ولهـا أن تسـتيقظ في أيّ يوم آخر.

يجلـس إلى جانبهـا في السّـرير، يحـرّك مفتـاح البلـورة الزّجاجيّـة ليسـمع موسيقاها، ويرى ذينك العاشقين يتحاضـنان تحـت الـثّلج المتسـاقط، تنتهـي الموسيقى، ويتوقّف الثّلج الرّقيق عن النّدف داخل البلّـورة، فيقـوم بتحريـك مفتاح التّشغيل من جديد ليسمع الموسيقى التي تنبعث من البلـورة الزّجاجيّـة مرّة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، فيتذكّر شيئاً واحـداً لا ثـاني لـه، وهـو أنّـه يشعر بسخط حارق على بهاء؛ ليس لأنّ حياتها سِفْر من الرّجـال والعشّـاق والتّجارب والعثرات والأخطاء، فهو قـد غفـر لهـا ولنفسـه الـزّلات جميعـاً؛ فالحبّ يجبُّ ما قبله وما بعده، وما يزامنه؛ فلا شيء يصمد مع الحـبّ سـوى الحبّ، لكنّه يشعر هذا المساء بغيرة كبيرة، بعـد أن عـرف أخـيراً قصّـة نجـوم "الأوريغامي" الملوّنة التي يفتحها في كلّ نهار ومساء، ويقرأها على بهـاء ليمتّـع روحها بجملها القصيرة المكثّفة.

لقد أمّل نفسه بأنّها قد أحضرتْ هذه النّجوم معها لأنّها تبحث عنه في كلّ مكان في الدّنيا، وستجده دون شكّ، ولو كان هذا اللّقاء ضرباً من المسـتحيل بعد نصف قرن من البعاد، لكنّه اكتشفَ أنّها كانتْ قد أعدّتها لتهديها لرجـل آخر سواه، فقد أوصتْ على صناعتها، ودفعت أجـراً نظـير ذلـك، وأعـدّتها

لترسلها إلى رجل سواه، ولولا أنّ المرض عاجلها بضربات موجعة في ذاكرتها، فأردى عدداً مهولاً من ذكرياتها في هوّة العدم، لكانتْ قد أرسلت تلك النّجوم إلى حبيبها الأخير في سلسلة عشّاقها.

البارحة فتح بالخطأ على فصل متقدّم من فصول مخطوطتها، فقرأ رسالتها التي كتبتها لرجلها المعشوق: حبيبي تَيْم الله الجزيريّ، لعلّ الله يحبّ الكلمة؛ لذلك يهديها لمن يصطفي من البشر، ولذلك وضعها الله في قلبي وقلبكَ، ولذلك أهديها إليكَ مرّة تلو الأخرى؛ لأنّها أقدس ما نفث الله في روحي.

قرّرتُ أن أهديكَ في بداية هذا العام بعضاً من نفسي المتمرّدة عليّ عبر إهداء كلماتي لكَ. هذا العام سأترك أزماني جميعها في العام الماضي، وسوف آخذكَ معي فقط إلى الزّمن الجديد.

هديتي لكَ لهذا العام تشبهني؛ فهي ظاهرة وخفيّة في آن، صامتة، لكن في داخلها الكلام كلّه، لا أتحدّث الآن عن الكتب المرفقة برسالتي هذه، بعد أن حرصتُ على أن أهديها لكَ لعلمي بمدى محبّتك للكتب، لكنّني أتحدّث بكلّ تأكيد عن هديتي الواضحة الخفيّة، فما أمامكَ الآن ليس صندوقاً ملوّناً من صناديق عطري الذي أعشقه، وليس ما فيه مجرّد نجوم ملوّنة، بل هديتي لكَ جزء من أزماني، أعني أزمان قلبي وحبّي لكَ وحبّكَ لي؛ هذه النّجوم مصنوعة خصيصاً لكَ بطريقة الطّي اليابانيّة الشّهيرة (Origami)، عددها ٣٦٥ نجمة، أيّ بعدد أيّام السّنة، كلّ يوم افتحْ واحدة منها فقط، واقرأ ما كتبتُ لكَ في داخلها. هكذا ستكون كلماتي لكَ هي مفكرتكَ الزّمنيّة لمدّة عام لتؤرّخ أزمانكَ بكلماتي.

كلماتي هذه كتبتها لكَ لتخبركَ بعشقي لكَ، أمّا النّجوم فقد اخترتها لكَ من أسطورة وثنيّة من أساطيركم تعتقد أنّ النّجوم هي أرواح من رحلوا عن

الحياة ممّن نحبّهم، فهم يروننا من أماكنهم العلويّة، وينيرون دروبنا، ويضيؤون سماواتنا.

وعندما أموت أريد أن تتذكّر أنّني قد أصبحتُ نجمة في السّماء، وأنّني أرعاكَ ليل نهار.

ملاحظة مهمة: تستطيع أنْ تفتح النّجمة بالطّريقة التّالية: اضغطها نحو الدّاخل، فتعود مسطحة لا منتفخة، فيظهر الشّريط من جانبها، افتحه دون أن تمزّقه، عندها تعود النّجمة شريطاً مستطيلاً تستطيع أن تقرأ ما كتبتُ لكَ فيه.

*****

لقد قرأ الضّحّاك رسالتها هذه أكثر من مرّة، فشعر بغيظ كبير يأكل قلبه، هذه هي المرّة الأولى التي تنهش الغيرة قلبه من رجال بهاء الأوراق، إنّهم مجرّد أوراق لا أكثر؛ وهم في الأصل قد نموا على دارس ذكريات محرقة، ووهبوها جميعاً الألم والخديعة والوجع والخذلان، وهذه جرائم لن يغفرها لهم، لكنّه محزون بحقّ لأنّ ذاكرة بهاء قد رحلتْ في اللّحظات الأخيرة، وهي تنبض بذكريات رجل سواه.

يشعر بأنّه يختنق، ولا يطيق أن يرى وجهها الأحمر الجميل، وهو غارق في سباته الطّويل؛ لذلك مشّط شعرها على عجل، وعلّق لها محاليل جديدة من محاليل الدّواء والطّعام، وبدّل أكياس الفضلات الخاصّة بها، وتأكّد من عمل جهاز التّنفس الصّناعي وجهاز إنعاش القلب، ومسح وجهها ويديها وقدميها بالمعقّم، وترك حجرتها لا يلوي على شيء وراءه كي يمنع نفسه من أن يجهش بالبكاء في حضرتها .

دخل غرفته مهدّماً مهزوماً، وفتح جهاز حاسوبه المحمول كي يكتب مقالته الأسبوعيّة لمجلة المدينة، لعلّه يهرب من ألمه واختناقه، الرّسالة التي وجدها في صندوق بريده الالكتروني ذكّرته بأنّ العام الجديد قد دلف منذ شهرين ونيّف، وهو ما يزال عالقاً في بوابة الانتظار إلى حين تستيقظ بهاء ليحتفل معها ببداية العام الجديد.

الآن فقط انتبه إلى أنّ هناك الكثير من رسائل التّهنئة بالعام الجديد قد وصلتْ إليه عبر صندوق بريده الإلكترونيّ، ولم يردّ عليها، فكّر في أن يرسل رسالة تهنئة جماعيّة لكلّ من أرسل له رسالة تهنئة، ثم عدل عن رأيه هذا ليتفرّغ لكتابة مقالة الأسبوع لعاموده الثّابت في مجلّة المدينة.

حاول أن يغري نفسه بنسيان غضبه، وأن يوهمها بعدم مبالاته بالأمر برّمته، لكنّه أخفق في ذلك، وهو ما يزال يشعر بحرقة في جوفه كلّما تذكّر أن تلك النّجوم الملوّنة قد صُنعت لرجل غيره لتقول له في العام الجديد: أنا أحبّكَ.

لكن ماذا عنه؟ ألن تقول له بهاء في هذا العام الجديد إنّها تعشقه؟ وأنّها ستظلّ إلى جانبه حتى آخر لحظة في حياته؟

ماذا تراه الآن سيكتب للقرّاء من أكاذيب كي ينسى وجعه وغيرته؟ يصمت قليلاً كي يسكّن هزّة قدميه المستنفرتين، ويشرع يكتب مقالته بمناسبة بدء العام الجديد .

*****

أرسل المقالة إلى البريد الإلكترونيّ الخاصّ برئيس تحرير مجلة المدينة، وأغلق جهاز حاسوبه سريعاً حتى قبل أن تصله الرّسالة الإلكترونيّة التّلقائيّة التي تصله على بريده الإلكترونيّ لتؤكّد وصول مقالته إلى مبتغاها.

قرّر سريعاً أن يقضي ليلة فرح تنسيه ما تتجرّعه روحه من ألم، اتّصل سريعاً بأصدقائه الأربعة، ودعاهم إلى تناول طعام العشاء في بيته على شرف ديك روميّ مشوي من إعداده؛ فهو ملك طهو الدّيوك الرّوميّة. قَبِلَ ثلاثة من أصدقائه دعوته على العشاء منشرحين ملهوفين للقائه وللقاء الدّيك الرّوميّ المشوي، أمّا صديقه الرّابع فاعتذر عن عدم قدرته على تلبية الدّعوة؛ لأنّه ما يزال في سياحة مع أسرته خارج المدينة.

سارع الضّحّاك إلى تنفيذ خطّته كي يهرب من ألمه، وقضى ليلته في طبخ ومسامرة وحديث شيّق مع أصدقائه الثّلاثة الذين لم يفتهم أن يدركوا أنّ وراء قهقهاته الهادرة دمعات متوارية بصعوبة خلف عدستي نظارته، وأنّ في عينه المصابة انكساراً بادياً يزيد من تقضّبها.

*****

في منتصف اللّيل وجد نفسه من جديد وحيداً مع غيرته، فكّر أن يذهب إلى غرفة بهاء كي يطمئن عليها، لكنّه ضرب صفحاً عن فكرته هذه؛ لأنّه لا يملك قوّة كافية تجعله يصعد الدّرجات القليلة التي تفصله عن غرفتها في الطّابق الثّاني من بيته.

أشعل مدفأة غرفة مكتبه، وجلس أرضاً بالقرب منها يكرع من زجاجة الويسكي، ومدّ يده في جيبه كيفما اتّفق، فوجد في جيبه بضعة نجوم من نجوم "الأوريغامي"، عدّها غير مبالٍ بها، فوجدها خمساً، أخذ يفتح الواحدة تلو الأخرى، ويقرأ ما كُتب فيها بغيظ وقهر:

"أفكارنا تشبهنا، لكن قلوبنا قد تكون أعظم منّا"

"ما أجمل الطّفل الذي يسكنه!"

"اللّغة الوحيدة الصّادقة في العالم هي لغة الصّمت".

"التّاريخ بدأ عندي منذ التقت عيناي بعينيه "

"من يجيد القسوة في الحبّ لا يستحقّ العيش في أرضه"

كرع المزيد من الويسكي، ومسح ما تساقط منه على لحيته بطرف قميصه الشّتويّ، وسأل نفسه مغيظاً: ماذا يملكُ ذلك الرّجل المجهول لتكتب له آخر عباراتها قبل أن ترحل ذاكرتها؟ لماذا كان آخر من يسكن ذاكرتها المغبونة؟

يقرّر أن يمزّق الصفحات جميعها التي خصّصتها في مخطوطتها لسرد قصّتها مع هذا الرّجل المعشوق، لكنّه يتراجع عن قراره هذا؛ لأنّه يريد أن يعرف سرّ ذلك الرّجل اللّغز الذي عشقته بهاء في جملة من عشقتْ من رجال.

*****

تقلّب في سريره دون أن يستطيع النّوم، هناك نار في جوفه على الرّغم من أنّه حاول أن يطفئها بزجاجة ويسكي كاملة، لكنّها ما تزال متأجّجة، وهناك نار أخرى ممسكة بتلابيب روحه، يشعر بوحدة شوكيّة تخز وجوده، يحتاج لوجود باربرا إلى جانبه، يطلبها عبر هاتفها النّقّال، فتردّ عليه مفزوعة بعد أن أيقظها من لذيذ نومها الدّافئ، يخبرها باكياً أنّه في حاجة إليها، ويطلب منها أن تنتقل للعيش معه في بيته، وعندما يسمع موافقتها القلقة على طلبه المداهم لها، يقول لها بفرح : جهزي حقيبتكِ. نصف ساعة وأصل إلى بيتكِ، لنعود معاً إلى بيتي. لن أتأخّر عليكِ.

في الصّباح لم يمارس الضّحّاك رياضة المشي الـتي يهواهـا، ولم يصـعد إلى غرفة بهاء ليطمئنّ عليها؛ وإنّما لبس ملابس السّباحة الخاصّـة بـه ليسـبح في النّهر البارد الذي يجلس بيته على ضفّته، كان البرد شـديداً علـى الـرّغم مـن دخول فصل الرّبيع، وكانت ما تزال هناك قطع صغيرة من الجليد في النّهـر لم تذبها شمس الرّبيع بعد.

أخذ نفساً عميقاً، وقفز في الماء البارد، فشعر أنّ كـلّ مـا فيـه مـن غضـب وحزن ووجع قد تجمّد في جسده، وأنّ الزّمن علق في لحظة انكمـاش جسـده وروحـه في المـاء البـارد، سـبح قلـيلاً وهـو يرتجـف، ويضـرب المـاء بقدميـه بانفعال، كأنّه يريد أن يرفش الوجع، ويبعده عنه، وهو مَنْ قفز في الماء البـارد كي يتخلّص من حرقته.

تفاجأ بجسد آدميّ يقفز في الماء البارد بالقرب منه، إنّها باربرا تسبح متّجهـة نحوه، وهي مرتدية ملابس سباحتها الزّرقاء، وتخفي شعرها الأشـقر الجميـل تحت قبعة سباحة ورديّة أنيقة، تقترب منه، وفمها ينفث بخاراً من شدّة بـرودة الجوّ، تلتصق به، ثم تأخذه إلى صدرها عنوة، وتقـول لـه وهـي ترتجـف: أنـا أحبّكَ أيّها الضّحّاك.

النّسيان السّابع عشر

الثّورة والأوطان

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الأسوار لا تخلق فضيلة، لكنّها قد تخلق ثورة"
"الحياديّة خيانة مقصودة"
"أنا ثرثارة انتصاراً لإرادة الرّفض"
"القلب الذي لا يعرف الحبّ هو مجرّد مضخة دم من النّوع الرّديء"
"العمر هو الزّمن الباقي لا المنصرم"
"ابتسامة الحبّ شهيّة؛ لأنّها قبلة متوارية"
"الحبّ الحقيقيّ انحياز كامل للمحبوب"

البارحة راقص بهاء طويلاً في حلمه، وفي هذا المساء قرّر أن يحقّق حلمه الرّاقص مع فاتنته الحمراء على الرّغم من استسلامها لغيبوبتها؛ لذلك فقد ألبسها ثوب رقص رائق جميل أبيض اللّون، وضمّها إلى صدره رافعاً جسدها عن الأرض، وشرع يرقص معها، وهو يجرّ آلة تنفّسها ومنعش قلبها، ويحمل معها حاملة رافعة محاليل غذائها ودوائها.

راقصها حتى أعياه التّعب، ثم ركن إلى أريكته المفضّلة، وهي في حضنه كعروس سماويّة طاهرة ترقد في حضنه المعبد المقدّس لها. هي مستسلمة له تماماً، ويكاد يرى ابتسامة باهتة على شفتيها، ويكاد يشعر بوجيب قلبها المضطرب عبر صدرها الملتصق بصدره.

يشدّها أكثر إلى صدره، ويتدثّر بها، ويغفو على الأريكة المنجّدة حتى الصّباح، وهو يطوّقها بذراعيه، كأنّه يخشى أن تغادر حضنه، وهو أسير نومه وتعبه.

في الصّباح كان دفء جسد بهاء الملتصق بجسده يشيع ارتخاء لذيذاً في جوارحه، نقلها سريعاً إلى سريرها في الطّابق العلويّ، وشرع على عجل يبدّل ملابسها، ويمشّط شعرها بعد أن غسل وجهها ويديها وقدميها بماء فاتر وبصابون الصّبّار، فكّ عنها محاليل الدّواء والغذاء الخاصّة باللّيلة الماضية، وهمّ ليغادر غرفة النّوم متوجّهاً إلى المطبخ ليحضر المحاليل الجديدة من الثّلاجة، ليعلقّها لها كي تحصل على غذائها ودوائها.

تأمّل في لحظة خروجه من الحجرة جسد بهاء، فهاله كم بدت نحيلة مقارنة بيوم وصولها إلى هذا البيت، هي الآن ليستْ أكثر من جسد عاجيّ محمّر ضعيف يتمدّد باستسلام في سرير كبير، ويتغطّى بأغطية قرمزيّة مقصّبة بالذّهبيّ اللامع الذي اختاره لها بعناية؛ فهو يعرف أنّها تحبّ التّفاصيل الجميلة، والزّخارف الأنيقة.

إلّا أنّ هناك ابتسامة ما واضحة على محيّاها دعته إلى أن يجلس إلى جانبها في السّرير، فالتصق جذعه بجذعها، فشعر بحرارة جسدها تسريّ في أصابع يديه المرتعشتين، وخال إنّ ابتسامتها اتّسعت أكثر، وأنّ قوّة خرجت من جسدها، وصبّت في روحه، وطبعتْ قُبلة دافئة على وجنيته.

*****

هذا المساء أراد أن ينام وبهاء في حضنه؛ صعد إلى غرفتها مبكّراً، وشمّ رائحتها الجميلة المزيج من المستحيلات وبنفسج الطّفولة ورائحة خشب الصّندل عندما يحترق في آتون العشق، ألصق جسده بجسدها، ومضى يمسّد على شعر رأسها الأحمر الجميل الذي طال كثيراً عن يوم التقى بها، وحملها إلى هذه الغرفة حملاً.

أراد أن يغنّي لحمرائه أغنية من تلك الأغاني الفلكلوريّة التي كان يغنّيها لها في طفولتهما، لكن صوت العزف على البيانو عاجله ليصمت، وليرهف السّمع لما تعزفه باربرا على البيانو من مقطوعة موسيقيّة كلاسيكيّة لعازف شهير في دول اسكندنافيّة، أرهف السّمع أكثر، فأدرك أنّها مقطوعة "الطّاعون"، هي معزوفة حزينة.

لم يسمع باربرا تعزفها من قبل على الرّغم من أنّه لطالما سمعها تعزف مقطوعات فرحة لاسيما بعد مضاجعة مشبعة بينهما.

لقد باتتْ باربرا تهرب إلى صمت غريب بعيد عن طبيعتها، وتتراءى في عينيها كلمات حزينة لا يستطيع أن يعرف معناها بالضّبط، فيتجاهل حالتها خوفاً من أن يدخل معها في صدام ما ، فتترك البيت غاضبة، وهو من لا يستطيع أن يتدبّر أموره دونها؛ فهي من تدير شؤون بيته، ومكتبه، وأعماله، وأبحاثه، وتخلص له إخلاصاً كاملاً.

*****

بهاء سوف تستيقظ من دون شكّ من سباتها الموصول؛ لذلك يقرأ لها من الصّحف والشّبكة العنكبوتيّة كلّ ما تقع عيناه عليه من مواضيع، هو يعرف أنّها لن تتذكّر أيّ كلمة ممّا يقولها لها، لكنّه مصمّم على أن يزوّدها بكلّ جديد، وأن يقرأ لها دون توقّف لعلّ ذلك يحفّز أمراً ما في ذاكرتها، فتستيقظ من سباتها، وتلتفتْ نحوه بعنقها الطّويل المشرئب، وتقول له بصوتها المبحوح المثير: أنتَ الضّحّاك. أنا أعرفكَ.

اليوم استفزّه ذلك المقال عن الثّورة والثّائرين في الشّرق الذي تقوّض، دون أن ترى الأوطان أو الشّعوب أيّ بصيص أمل أو حريّة أو عدالة، لا شيء سوى الموت والجعجعات والنّقيق الموصول دون فائدة أو تحسين،

وذلك العدوّ الكونيّ الذي يلفّ العالم بعلمه الشّرير، ويذبح النّاس باسم الحريّة والدّيمقراطيّة والإخاء يزفّ الموت إلى كلّ مكان يذهب إليه.

قرأ المقالة كاملة على بهاء، لكنّها لم ترق له لما تحوي من أحلام ورديّة تجهل الدّرب الأسود الذي تنجرف الأوطان نحوه بسرعة ماء يهوي في دوّامة أزليّة.

محا الضّحّاك المقالة التي قرأها لبهاء عن سطح الذّاكرة في جهاز حاسوبه المحمول؛ فهو لم يرغب في أن يقرأ أكثر عن الثّورات والثّائرين والموت والكذب والخديعة والمؤامرة في الشّرق الدّامي، وآثر أن يقرأ لبهاء في مخطوطتها حيث توّقف عندها في آخر مرّة قرأ لها فيها .

*****

كتبت العاشقة: وصلتُ الأربعين من عمري، وأدركتُ أنّها فرصتي الأخيرة لنشر إبداعاتي القصصيّة والرّوائيّة قبل أن ينقضي الباقي من حياتي، بعد أن انقطعتُ عن الكتابة والنّشر لأكثر من عشرين عاماً.

حملتُ قصتي "ترانيم الوجع" على استحياء، وعرضتها بعد تفكير طويل على رئيس تحرير إحدى المجلات الشّهيرة في المدينة، توقعتُ عندها أن يدسّها في مكتبة على وعد أن يقرأها في وقت ما، وعد قد يتحقّق، وقد لا يتحقّق. لكنّني تفاجأتُ به عندما شرع يقرؤها بصوت مرتفع. كنتُ أتوقع أيّ ردّ إلا أن يقول لي بنبرة جادة لا تسويف فيها: إنّها جيّدة، سأنشرها في العدد القادم من المجلّة. أتوقّع لك مستقبلاً استثنائيّاً إنْ تابعتِ الطّريق.

عندما نُشرت قصّتي في مجلّة "القارئ العصريّ" كدتُ أطير فرحاً، وغالبتُ طويلاً سعادة خرافيّة حفاظاً على وقاري، فغلبتني، وظهرتْ جليّة على

ارتعاشاتي، وانفجرتْ ضحكات مني دون قصد، وغشيني حبور، وأنا أقرأ اسمي مكتوباً بوضوح إلى يسار عنوان قصّتي.

يومها قضيتُ نهاري موزّعة بين فرحة لم أعرف مثلها من قبل، وبين معاودة قراءة اسمي في المجلة التي فتحتها عشرات المرات؛ لأتأكد من أنّ لي مادّة منشورة فيها.

وما تخيلت أبداً أنّ المجلة ستدفع لي مكافأة مالية مقابل قصتي، كانت تلك المكافأة ألذّ ما حصلتُ عليه من مال في حياتي، فهي كانت بمثابة جائزة لا مكافأة لي على عمل إبداعيّ قمتُ بكتابته، على الرّغم من أنّني كنتُ على استعداد لأن أدفع المال مقابل نشر قصّتي في المجلّة.

أنا سعيدة جدّاً الآن بسبب عودتي إلى قلمي المكسور منذ عقدين أو يزيد. هل سأصبح كاتبة مشهورة في يوم ما؟ هل سأستطيع أن أنشر رواياتي الواحدة تلو الأخرى عندما أكتبها؟ هل يمكن أن تنقذني الكتابة من طريق الرّذيلة؟ هل يمكن أن تهبني أجنحة من نور لاخترق الظّلام بها؟ وأنال الحلم البعيد؟ هل يمكن أن أثور بالقلم على نفسي وعلى المجتمع؟ أم أنّ القلم سيكون عبداً لكلّ مستلب لي كما هو حالي؟ هل سوف أثبتُ بالقلم والحرف أنّني ما أزال على قيد الحياة؟ وأنّني ما أزال كائناً حيّاً حرّاً يملك خيارات الرّفض والقبول والتّفاوض والتّنازع والتّمرّد والثّورة الكاملة؟

النّسيان الثّامن عشر
الحبّ الأوّل. . . الحبّ الأخير

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الكتابة معادل موضوعيّ للحبّ"
"خيبة الأمل وطول الانتظار وحرارة الاشتياق جميعها وصفات مؤكدة لسكتات قلبيّة قاتلة"
"الذين لم نعد نحبّهم هم الذين خذلونا"
"الخذلان يعني القطيعة وكسر الحلم"
"المحبّة ليست العطاء فقط، بل هي حسن الاستقبال للعطاء"
"بعض ذكريات الحبّ هي التّاريخ الحقيقيّ الوحيد لبعض البشر"
"أهوج هو الحبّ؛ فهو يردّ أرواحنا إلى طفولتها، وينسى أن يردّ أجسادنا إلى صباها"

عام جديد قد انتهى النّصف الأوّل منه، وبهاء ما تزال مبحرة في سباتها الأزليّ الموحش لروحه، جسدها يتقلّص يوماً بعد يوم، وأطرافها تتيبّس، وشعر رأسها يصبح أطول وأجمل وأكثر هدوءاً واستسلاماً لتلاعب الهواء به، والرّبيع يكاد يغادر المكان، وزرقة ماء النّهر تزداد سحراً، وهي تراوده كي يغترف من دفقها البارد، وهو ينتظر شيئاً واحد لا غير، وهو أن تستيقظ بهاء من سباتها.

الأطبّاء يعجبون لأنّها ما تزال على قيد الحياة، وبقع الدّماء المحتقنة تحت جلدها تتلاشى بدل أن تتزايد كما توقّع الأطبّاء، والجميع يدعو لها بالموت ليريحها من صلبها الطّويل المضني على بوابة الحياة في انتظار السّقوط خارجها، ووحده الضّحّاك من يؤمن بأنّها سوف تستيقظ، وتعيش معه أجمل تفاصيل الحبّ والفرح والحياة؛ لذلك يبذل جهده ليل نهار في الكتابة في روايته "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"؛ لتكون في استقبال حبيبته الحمراء الفاتنة عندما

تستيقظ من سباتها، وتهرع إلى روحه، فتجد الأقدار قد تغيّرت في انتظارهـا؛ فقد كتـب لهـا حيـاة جديـدة في روايتهمـا "أَدْرَكَهَـا النّسـيانُ" لتنسـى تمامـاً أيّ ذكريات مؤلمة عاشتها في الماضي.

روايتهما أصبحت الآن في منتصـفها، أو فيمـا بعـد النّصـف بقليـل، وهـو يكتب فيها ليل نهار كي ينجزها قبل أن تستيقظ بهاء، ويقـرأ علـى أصـدقائه الأربعة ما يكتب منها ليحوّلها من نبوءة إلى حقيقة تسـير علـى ألسـنة النّـاس الطّيبين، فتصبح ترنيمة الفرح المقبلة لحبيبته التي عشقت النّسيان كما عشقها، وها هو الآن يصنع لها من حكاياته تاريخاً آخر لم تعشه، لكنّهـا سـوف تقتنـع بأنّه تاريخها، وسوف تعيش المقبل من مستقبلها بكـلّ فـرح ورضـا وتفـاؤل، ودون ندم أو خجل أو عار.

سكرتيرته باربرا تصـمّم علـى تسـمية بهـاء بالعمّـة بهـاء لتـذكره بعمرهـا السّتيني، في حين هي ما تزال امرأة في منتصف الأربعينيّات مـن عمرهـا ذات جسد آري عملاق ومكتنز، وكلّه شـبق وحـرارة واشـتهاء وحيويّـة ونضـارة ونشاط، لكنّه يتجاهل خبثهـا وتسـمياتها اللّئيمـة، ويصـمّم علـى أن يكتـب باجتهاد في رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" لتكون هديـة الحيـاة لــحبيبته الـتي سـتهجر الموت من أجله، في حين تقـرأ بـاربرا مـا يكتـب في الرّوايـة باهتمـام وغـيرة جارحة لروحها، وتعكّر فرحه بها بسؤالها المعتـاد: كيـف سـتقرأ بهـاء هـذه الرّواية؟ وهي مكتوبة بلغتنا، وهي لا تعرف هذه اللّغة؛ فهي مشـرقيّة عالقـة في اللّغة العربيّة منذ دهر؟

فيبتسم الضّحّاك ابتسامة عريضة مغيظة لها ذات معنى واضح، ويقـول لهـا بصوته الحنون الواثـق: عنـدما تسـتيقظ بهـاء سـتجيد لغـات الـدّنيا جميعهـا؛ فعندما تعود إلـيّ سـتكون ربّـة مـن ربّـات الخلـود المطّلعـات علـى المصـائر

والأسرار، وعندها ستفهم كلّ كلمة أقولها بأيّ لغة قلتها بها، بل ستحفظ أبجديات البشريّة كاملة ما دامتْ تقول لها جملة واحدة لا غير، وهي: الضّحّاك يعشقكِ.

تبرم باربرا شفتيها منزعجة ممّا تسمع، وتتشاغل بقراءة ما بين يديها من مخطوطة رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وتمسح بسريّة بعض الدّمعات التي تطفر من عينيها قهر إرادتها، وهي مَنْ تحاول أن تتمثّل القوّة والتّجلّد أمام ذلك المأفون السّاحر الذي تعشقه، فيهدي عشقها له لامرأة مشرقيّة حمقاء عجوز عالقة في عوالم الموت والنّسيان.

عندما تشعر أنّ الضّحّاك قد تنبّه إلى دموعها الكسيرة الحانقة، تبتسم له ابتسامة آريّة متعجرفة، وتقول له: ألستم تقرؤون القرآن على أرواح موتاكم؟ يجيبها الضّحّاك باستدراج من يتوقّع طبيعة السّؤال المقبل: نعم.

- إذن لماذا لا تقرأ القرآن على بهاء؟

يجيبها الضّحّاك، وهو يرمقها بنظرات متحدّية: بهاء ليست ميّتة، والقرآن ليس للأموات فقط، إنّه لأجل الأحياء، وإن قرأته عليها، فسأقرؤه عليها لأنّها ما تزال على قيد الحياة، لا لأنّها ميتة.

تصمت باربرا من جديد على غيظ، وتهرب من شزر نظرات عينيه بتشاغلها بقراءة ما بين يديها من الصّفحات المكتوبّة ليلة البارحة من رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وتشيح بوجهها عنه كي لا يرى دمعات جديدة طفرتْ من عينيها قهر تماسكها.

*****

اللاجئون والمهاجرون يتدفّقون على المدينة أكثر فأكثر، هم من الجنسيّات والسّحن جميعها، يجمعهم الخوف والتّهجير والرّهبة والضّياع والوجع، وتفرّقهم المآلات والمصائر والأقدار.

الشّعوب هنا منقسمة بين رفضهم والتّرحيب بهم، والسّياسة ترى أنّهم الثّروة المقبلة للشّمال البارد العجوز الذي يحتضر؛ فاللاّجئون هم الشّباب المُجتلب إليهم من الشّرق المدمّر المحترق، وأطفالهم الذين تحملهم الأذرع الآن بحنان مدروس هم من سيدفعون رواتب المتقاعدين العواجيز في العقود المقبلة، فهم من سيكونون المواطنين الشّباب المنتجين في المستقبل القريب؛ لذلك يقبل الجميع على مضض باللاّجئين والمهاجرين، وترحّب السّياسة المحنّكة لقادة أوطانهم بهؤلاء المنكودين المطرودين عن أوطانهم.

أصدقاء الضّحّاك مشغولون بالتّواصل مع المهاجرين واللاّجئين إلى مدينتهم من أوطانهم الأصليّة التي ظنّوا أنّهم تشافوا من زمن من مرض الحنين إليها، لكنّهم اكتشفوا فجأة ودون مقدّمات أنّه يصعب التّشافي من مرض الحنين المزمن للأوطان مهما كانت طاردة لأبنائها.

أمّا الضّحّاك فلا يعرف له وطناً يعنيه أمره سوى حبيبته الحمراء النّائمة، أمّا تلك الجغرافيا القميئة التي تنكّرت له منذ زمن طويل، فهو قد هدم صنمها في روحه، وما عاد يرغب في أن يتذكّر ما تجرّعه فيها من سموم القهر والألم والعذاب والظّلم، بل حتى أنّه بات يجد صعوبة في لفظ الحرف العربيّ بعد أن هجره عقوداً طويلة، وما حاول أن يتذكّره إلّا لأجل بهاء كي يحدّثها بلغتها التي ما عادتْ لغته، كما لم يعد وطنها وطناً له؛ فالأوطان عندما تقسو على القلب المحبّ، وتتواطأ مع اللّصوص والأفّاقين تصبح خائنة رخيصة لا تليق بالنّبلاء.

لقد صدر أخيراً كتابه الملحميّ "مزامير العشّاق في دنيا الأشـواق" في سـبعة أجزاء كبيرة، لقد جمع فيه عدداً كبيراً من ملاحم الحـبّ في مـوروث الشّـرق، وترجمهـا إلى لغتـه الثّلجيّـة الجديـدة، وكتـب علـى هامشـها دراسـة مقارنـة مستفيضــة بــين ملاحــم العشــق في الآداب الغربيّــة والشّــرقيّة المعاصــرة والموروثة، وخرج بثيمات مهمّة مشتركة بين تلك الملاحم الشّعريّة والسّـرديّة المختلفة، وقادته تلـك الثّيمـات المشـتركة إلى حقيقـة كـبرى جليّـة، وهـي أنّ الحبّ هو ربيع النّفس الإنسانيّة، وهاجسها الأكبر.

وصدّر الجزء الأوّل من هذه الملحمة بإهـداء خـاصّ إلى حبيبتـه النّائمـة كتب فيه: إلى بهاء المصلوبة تحت سمـاء القطـب كنجمـة الفينيقـيين ؛ إنسـانة دافئة في زمن الصّقيع الأكبر، وامرأة أسطوريّة تعـيش في مسـاحة المسـتحيل، وفي انتظار ما بعده انتظار، وتخلص للتّذكّر رغم مواجعه، وترسم دفئـاً علـى الصّمت البارد، وتستطيع أن تبتسم ذات حزن ووجع، وأن تخفي الشّـمس في عينيها.

هذا الكتاب الملحميّ -الذي أثبت النّاشر على غلافه الخارجيّ صـورة ربّـة شرقيّة تظفّر شعرها بالزّهور البريّة اليانعة، وتلبس ملابسها الذّهبيّة الجميلـة، وتسـير في سـهول القمـح المصـفّر إلى جانـب حبيبهـا الأمـرد الوسـيم- هـو مشروع حياته، وقد ضحّى بسنين طوال مـن عمـره في سـبيل إنجـازه، وكـان هديته الكبرى للحبّ وللبشريّة إلى جانب مكتبتـه الوَقْـف، لكـنّ فرحـه الآن قد تضاءل بهذا المنجـز العظـيم علـى الـرّغم مـن الاهتمـام المحلـيّ والعـالميّ بصدوره؛ لأنّه منكب على منجز مصيريّ في نظره وإحساسه وإدراكـه، وهـو إنجاز رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" قبل أن تغادر بهاء نومها الطّويل، وتعود إليه.

لقد اعتذر عن حضور الكثير من النّدوات واللقاءات الأكاديميّة والإعلاميّة حول صدور هذا الكتاب المترجم المهمّ، وصبّ اهتمامه على رعاية بهاء والاشتغال على إنجاز روايته الهدية لها، على الرّغم من احتجاج سكرتيرته باربرا على هذا السّلوك، ومحاولتها الدّؤوبة والمخلصة كي يبقى في بؤرة الاهتمام الأكاديميّ والإعلاميّ والنّقديّ بكلّ جديد ينتجه، ويبدع فيه.

لكنّه يتجاهل امتعاضها من سلوكه الانطوائيّ، ويضرب صفحاً عن إلحاحها على قبول الدّعوات الموجّهة إليه لتوقيع كتابه في أكثر من مدينة ثقافة أوروبيّة واسكندنافيّة وبلقانيّة، وينشغل بتحديه الأكبر في تبديل أقدار بهاء المرتبطة بإصدار روايتهما المشتركة "أَدْرَكَهَا النّسيانُ".

لكن ما يقلقه بحقّ، هو ذلك الصّمت الحزين الذي تغرق باربرا فيه، حتى أنّه ما عاد يلمح في عينيها تلك اللامبالاة الجينيّة الباردة، وغدا يلمح دموعاً في ابتسامتها المصنوعة التي تهبها له كلّما رأته يفرط في العناية ببهاء، أو يرجوها أن تعود إليه.

*****

منذ أيام لم يقرأ على بهاء أيّاً من الصّفحات في مخطوطتها، هو يكتفي بأن يراقبها، وأن يضمّها إلى صدره، وهي تذوي يوماً بعد يوم، ويضع الورد الطبيعيّ في شعرها، ويتلمّس معها نسمات الصّيف الدّافئة التي تهبّ عليهما من النّهر محمّلة بضحك المتنزّهين وصخبهم وفرحهم.

هو يهمس لها بالكثير من قصص طفولتهم في الميتم حينما كان أميرها الأوحد في الحياة، ويحدّثها بلوعة عن بحثه الطّويل عنها، ويتغزّل بجمالها الأحمر الذي لم يسرقه المرض، ولم تهدمه السّنون التي قاربت على السّتين؛ فما تزال حبيبته حمراء شابّة يافعة، وإن كانت في السّتين من عمرها.

يتذكّر بتوجّع عندما كانتْ تهمس في أذنه في طفولتهما، وتقول له: لا بشر غيركَ في هذا الكون. عندها كان لا قلب يحنّ عليها سوى قلبه، والآن لا قلب ينتظره سوى قلبها؛ لذلك يقترب من أذنها، ويهمس فيها: لا نساء في الكون سواكِ.

*****

رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" تشغله حتى عن الحزن على صديقين من أصدقائه الأربعة بعد أن توفيا أخيراً بسبب المرض، ورحلا إلى العالم الآخر دون رجعة؛ لقد كانا الأقرب إلى نفسه؛ كان أحدهما النّاقد الأدبيّ المفضّل عنده، والآخر هو فتنة النّحت المعاصر وفق رأيه، ووفق رأي نقّاد عصره ومثّاليه ونحّاتيه.

لم ينتبه لهما وهما يمرضان، ويذويان، ثم يموتان سريعاً على الرّغم من أنّه قد عادهما كثيراً في مرضهما، وأعدّ لهما خلسة الطّعام الشّرقيّ الذي طبخه لهما بنفسه، وهرّبه لهما في المستشفى كي ينعما بأكله، ويتذكّرا حياتهما الماضية وتفاصيلها الحنونة حيث كانت الأم والأهل والأسرة ورفقة الطّفولة قبل أن يسرقهما المهجر، ويطويهما الغياب، ويحكم عليهما بالغربة المؤبّدة طوال عمريهما، ويسرقهما من الفرح الحنون في الشّرق.

سريعاً قد خطفهما الموت، واختزل مرورهما في الحياة في اسمين مكتوبين على شاهدين لقبرين في مقبرة المسلمين في تلك المدينة الباردة على الرّغم من زهور الرّبيع ونسائم ظهيرته الدّافئة.

لم يحضر جنازة صديقه الأوّل؛ لأنّ بهاء كانت تعاني عندها من نوبات خطيرة من توقّف قلبها عن العمل على الرّغم من تشغيله عبر آلة الإنعاش؛ لذلك كان لا يغادر غرفتها مهما كانت الأسباب حتى تجاوزتْ تلك

المشكلة، أمّا عندما تُوفّي صديقه الثّاني، فقد حضر مراسيم دفنه مذهولاً من نفسه لا من الموت الذي خطف صديقيه، فكيف شغلته بهاء عن أن يلاحظ أنّ صديقيه يسيران بسرعة نحو الموت، ويمرضان مرضاً بشدّة، ثم يموتان دون أن يقلقه ذلك، أو يجذبه بعيداً عن قضيته المصيريّة؟ وهي بهاء.

لم يؤنّبْ نفسه كثيراً على ذلك؛ لأنّ لا أحد في الكون يمكنه أن يرعى حبيبته كما يرعاها هو، بل لا أحد معنيّ بأمرها، أو بأمر مرضها، كما هو حاله، كما أنّ صديقيه كانا يملكان الأسرة والأهل والأصدقاء الذين اعتنوا بهما حتى آخر لحظة في حياتهما التي نالا منها كلّ ما يشتهيان إلّا العيش في الوطن الأم.

عندما عاد إلى البيت بعد انتهاء تشيع جنازة صديقه المُتوفّى، فتح بابه بمفتاحه الخاصّ، وخلع قبعته وسترته الكتّانيّة الرّماديّة اللّون، واستدار ليعلّقهما على المشجب الذي يقع إلى يمين باب المنزل.

وجد بصعوبة مكاناً فيه لتعليق سترته وسط الكثير من المعاطف والسّتر المعلّقة، علّقه تماماً إلى جانب معطف أحمر اللّون لبربارا، في حين لا سترة أو معطف معلّق على المشجب لبهاء.

عندما استدار مرّة أخرى في الاتّجاه الآخر، ليدلف إلى بهو البيت، وجد باربرا أمامه تقف متسمّرة دون حراك، رأى في عينيها عتاباً مريراً لم يفهم معناه، لكنّها ظلّت شاخصة دون أن ترمش، ولم تنبس ببنت شفة، ولم تواسه بأيّ كلمة تخفّف عنه مصابه بموت صديقه، وإنّما اقتربتْ سريعة من المشجب، وأخذتْ معطفها الأحمر، ولبسته على عجل وانفعال، وفتحتْ باب البيت، وخرجتْ مسرعة نحو الشّارع.

لم يبق له من صديقيه الحميمين إلّا الألم والذكّرى والمزيد من الفقد، والكثير من المصنّفات النّقديّة والمنحوتات التي تنام على رفوف الزّينة في بيته، وتنتحب معه على الرّاحلين دون عودة، فتشيع في بيته المزيد من الحزن والكآبة ووحشة الحرمان على الرّغم من الضّوء الخاطف للأنظار الذي تشيعه الثّريات في المنزل في محاولة دائمة منه لملء المكان بهجة وأنساً.

الآن أصبح الموت عدوّه الأكبر الذي يشهر في وجهه قواه بعد أن سرق اثنين من أعزّ أصدقائه، وهو مصمّم على يتحدّاه، وأن يمنعه من الوصول إلى صديقيه الآخرين، أو من الوصول إلى حمرائه النّائمة.

يصمّم على أن يخفي أحزانه كما هي عادته؛ إذ لم يجد في حياته من يقطر حزنه في أذنيه؛ لذلك اعتاد على أن يفرغ أحزانه في المشي الطّويل والتنّزه في الحدائق الجميلة، أو في السّفر، والتّجوال في بلاد الله، لكنّه مضطر في هذا الحزن إلى أن يغيّر عاداته، وأن يفرغ حزنه في تنظيف البيت، وفي رعاية بهاء، والاستمرار في كتابة روايتهما، وطهو الطّعام الشّرقيّ اللّذيذ الذي يسعد صديقيه الباقيين له من إرث صديقيه الرّاحلين عن عالم الأحياء في شهر واحد.

صديقاه يحبّان الطّعام الذي يطهوه، وكثيراً ما يطلبان منه أن يعدّ لهما أطباقاً بعينها، فيلبّي طلبهما مسروراً متحمّساً، ويعد بهاء بأنّه سيطهو لها مثل هذا الطّعام الشّهيّ عندما تعود إلى عالم اليقظة، وتستطيع أن تبتلعه.

حتى سكرتيرته بربارا تحبّ الكثير من الأطباق الشّرقيّة التي يطهوها، ويطيب لها أن تخترق الحمية الغذائيّة الصّارمة التي تلتزم بها بكلّ دقّة كي تهرب من شبح مرض السّكريّ الوراثيّ في أسرتها من أجيال، وتأكل من حلواه التي يصنعها في البيت بنهم بادٍ ضاربة عرض الحائط بحميتها المجيدة،

والضّحّاك يشجّعها على ذلك تعبيراً لها عن شكره وتقديره لمساعدتها له في شراء الأثواب الجديدة وقمصان النّوم المناسبة لبهاء بعد أن تقلّص جسدها، وغدا في حجم جسد طفلة يافعة صغيرة بوجه ملائكيّ صامت غارق في الحمرة والنّمش والتّأمّل في الصّمت.

*****

لم يعد الضّحّاك قادراً على أن يكتب مقالته الأسبوعيّة في مجلّة المدينة لانشغاله بعوالمه الدّاخليّة، وقد أعلم صديقه رئيس التّحرير بهذا الأمر، وأخبره بأنّه سيعلّق مقالته الأسبوعيّة إلى إشعار آخر، وسوف يرسل إليه مقالته الأخيرة التي أعدّها للعدد الأسبوعيّ من المجلّة.

لم يبالِ الضّحّاك كثيراً بامتعاض صديقه رئيس التّحرير من قراره هذا الذي سيزعِج الكثير من القرّاء المتابعين لقلمه الذين يروق لهم ما يكتبه، وبضغطه على خانةّ الإرسال في بريده الإلكترونيّ أرسل له المقالة الأخيرة محمّلة في ملف الكترونيّ خاصّ، وأنتظر أن تصله الرّسالة الإلكترونيّة التي تؤكّد له وصول ملفّه إلى الجهة المُرسل إليها.

حدّق الضّحّاك ثانية أو ثانيتين في شاشة جهازه حاسوبه المحمول، وعندما وصلته رسالة التّأكيد بوصول رسالته إلى وجهتها، غادر الحاسوب مسرعاً ميمّماً نحو حجرة بهاء مرقدها المقدّس منذ أشهر طويلة.

النّسيان التّاسع عشر
الوطنيّة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الصّوت والنّظرات والنّبض، جميعها دليل على شيء واحد، وهو الحبّ"
"المحبّ عظيم، والمحبوب هو الأعظم"
"اليوم أيضاً أنا أحبّك"
"الكراهيّة نصف الموت"
"لكن لماذا نملك حياة واحدة فقط؟"
"كفرتُ بقصص العشق، لكنّني أتلوها على نفسي؛ لأتطهّر بها"
"خذلان العشق خيانة مزدوجة"

كتبت العاشقة: كلّ شيء حولي أصبح خاسراً بامتياز؛ المدن والمواطنون والأفكار والأحداث والمذعنون والرّافضون، جميعهم الآن خاسرون، لا شيء هناك في الأفق سوى الخسارة، والجميع ضلّوا الدّرب في متاهة تاريخيّة مخيفة ينزلقون فيها دون مقاومة.

لا تعنيني خسارات التّاريخ والنّاس أجمعين؛ فمنذ زمن طويل أصبحتُ بفعل الحزن والوحدة والمعاناة كائناً لا ينتمي إلّا لنفسه ولذاته ولمعاناته، ولا يحرّكه أيّ صوت في الخارج أيّاً كان؛ لذلك لم يعد يشكّل فارقاً عندي إلى من أنتمي، وأين أسكن، وما اسم جماعتي أو حضارتي، ما دمتُ نكرة مضيّعة فيهم، إلى حدّ أنّني لا أعرف لي اسماً أو نسباً. أنا في هذا العالم ممّن ليس لهم بواكٍ أو ناعون؛ لذلك لا أجيد أن أبكي على أيّ أحد كان.

ما أبكيه الآن أنّني خسرتُ حلمي بأن أكون الرّوائيّة أو الكاتبة المشهورة التي حلمتُ بأن أكونها، لقد سرقتني الدّروب، بل وخسرتُ أحلامي جميعها بأن أكون زوجة أو أمّاً أو حبيبة أو حتى إنسانة آمنة في سربها، قانعة بما تملك

بعد أن خسرتُ نفسي، وأكلتُ بجسدي طويلاً عندما انتهت معظم أموال الثّروة الصّغيرة التي تركها لي وفا ذيب.

لسنين طويلة دفعتُ جسدي مقابل كلّ شيء أكان طعاماً أم مالاً أم شهرة أم امتيازات أم مصالح أم متعة عابرة أم تفريغ غضب أم حزن أم انتقام من الوحدة أم نظير حماية أم تحقيق مصلحة أم نكاية بالسّماء والأرض وما بينهما لقاء وحدتي وحرماني المهلك من راحة بالي وضميري.

وعندما تعبتُ من دفع جسدي لقاء احتياجاتي، وبدأت السّنين تسير بي نحو الشّيخوخة، قرّرتُ أنّه لن يكون عرضي عملتي وعملي في الحياة، وجعلتُ جسدي حكراً على متعتي وجنوني وجموحي وبحثي المسعور عن الحبّ الذي رحل عنّي، ورحلتُ عنه منذ طُرد الضّحّاك من الميتم.

بناء على قراراتي الحاسمة بإيقاف تسليع جسدي وجدتُ نفسي أعمل روائيّة في الظّلّ، وكاتبة مأجورة لمن يريدون أن يكونوا كتّاباً مشاهير رغم أنوف عيهم وقصر باع قدراتهم في الكتابة والإبداع وفي غيرها من فنون النّبل والشّهامة والخير، وبذلك أصبحتُ الرّوائيّة الخاصّة للرّوائيين والكتّاب الملمّعين من الجهات السّياديّة وقوى الضّغط والجذب في مجتمع الكراهية حيث أنتمي بالإكراه.

في البداية لم يؤلمني الأمر كثيراً؛ لأنّ لقمة العيش أهمّ عندي من حروف المداد، فهذه الأولويّة كانت حقيقتي الكبرى في الحياة، حتى وإن انتفض منها المنتفضون من المزورين من الوطنين الغشّاشين أو الكتّاب المشهورين الذين أصبحوا مشهورين بحروفي التي أكتبها لهم.

لكنّني لا أبالي بانتفاضة المنتفضين، أو استنكار المستنكرين أو شجب الشّاجبين، أو خطب الذي يتدثّرون بعباءات الفضيلة ليخفوا تحتها أنهار

الرّذيلة والزّيف والضّياع، كما لا أبالي بتشدّق المتخمين الذين يزعقـون بـأنّ الكلمة أشرف من الجسد.

لا أبالي إن بعتُ كلماتي بالمال؛ ما دمـتُ أجـدُ في جـيبي مـا أقتـات بـه في يومي بدل أن أشتري لقمتي بجسدي الذي لطالما أكلتُ بثمنه في ريعان شـبابي عنـدما تقـاذفني الضّـياع، وعضـنّي الجـوع والإمـلاق، وكنـتُ فريسـة لهـوام الأرض ووحوشها وكواسرها ودوابّها.

وهكذا أصبحتُ لسنين طويلة قلماً مـأجوراً معروفـاً عنـد معظـم الكتّـاب المزوّرين الذين تُكرّس أسماؤهم بوصفهم أدباء من العيار المحترم، لكـنّهم في الحقيقة ليسوا أكثر من زبائن عندي؛ يغمرون جيبي بالأموال، فأغمر أوراقهم بالحكايات والقصص والسّرد والمقالات؛ هم بفضل قلمي الجائع المعـدم قـد أصبحوا كتّاباً مشهورين، وأنا بفضلهم وبفضل فقري وضـعفي لم أغـدُ أكثـر من كاتبة مأجورة يرضيها الكفاف والقليل من المال.

ظللتُ أشعر بأنّني مجرّد مومس نكدة، تعلّق جواهرهـا في رقـاب الخنـازير الذي يفضّلون الرّوث على الكنوز، ويعجزون عـن أن يرفعـوا رقـابهم نحـو الشّمس ليروا النّور، وما استطعتُ أن أقضي على هـذا الهـاجس المتنـامي في أعماقي بأنّ كلماتي جزء من عرضي وشـرفي، وأنّ مـن يشـترونها منّـي هـم عابرون جدد في جسدي، وأنّني ما أزال أتاجر بي مع اختلاف شكل الاتجـار، إلّا أنّ الأجر في المرّات جميعها هو أقلّ ما يمكن أن يكون البيع به.

مرّة واحدة كان الأجـر عـن روايـتي المبيعـة لأحـدهم أكثـر ممّـا تخيّلـتُ أو طلبتُ، وذلك عندما قدّم لي ذلك المشتري وظيفة حكوميّـة في إدارة إعلاميّـة من الإدارات الإعلاميّة في دولة البغضاء والكراهيّـة لقـاء مـا كتبـتُ لـه مـن عمل إبداعيّ، لم أدرك عندها سبب هذا الكـرم الغـامر منـه، فكـلّ مـا كنـتُ

أبغيه هو أجري المتواضع عن الرّواية التي كتبتها له، وما كنتُ أتوقّع أن يهبني وظيفة حكوميّة محترمة بأجر معقول وراتب تقاعديّ يؤمّن لي حياة كريمة في شيخوختي التي بدأت تسير نحوي.

في البداية كدتُ أتعجّل الإجابة عن سؤالي الحائر، فأظنّ أنّ ذلك الرّوائيّ اللّص يملك حفنة شرف بشكل أو بآخر، لكن سرعان ما تدخّلت التّفاصيل لتمنعني من أن أتهمه بالشّرف، لا سمح الله؛ فقد عرفتُ أنّه ضنّ علي بأجر يدفعه لي من جيبه؛ لذلك قرّر أن يدفع أجري من جيب الحكومة والوطن؛ وهو كان خير من يتكلّم عن الوطن والوطنيّة، إذ كانت تعني عنده التّنفّع والاستغلال بأشكاله المتاحة له بحكم وظيفته الإداريّة الحسّاسة في المدينة.

أمّا إن كانت الوطنيّة تعني البذل والعطاء والتّضحية، فهو كان يلقي بها في وجه المساكين والمستضعفين من أبناء الوطن ليدفعوا ثمن وطنيتهم بالإجبار؛ فالقسمة عنده وعند أمثاله من المزورين كانت واضحة تماماً؛ فالوطن لهم، والوطنيّة للفقراء والمنكودين والمستضعفين والشّرفاء وأصحاب الضّمائر الحيّة والذمّم النّظيفة التي لا تُباع ولا تشترى.

أنا لم أكن من أصحاب الذّمم النّظيفة التي لا تُباع ولا تُشترى، بل كنت ممّن يُباعون ويشترون؛ لأنّني فقيرة ووحيدة وأجمل ممّا يجب أن تكون مستضعفة، وهو بسبب قوته وثرائه وبطشه وتنفّذه كان أقوى من أن يكون شريفاً أو صاحب ذمّة نظيفة.

اعتقدتُ أنّ أكبر انتصار حقّقته لنفسي الوطن هو قراري الحازم بوقف الاتّجار بنفسي وعرضي، وحصر البيع والشّراء في كلماتي وإبداعي بعيداً عن جسدي، بعد أن أقنعتُ نفسي أنّ بيع الكلمات والمواقف أقلّ قبحاً ورخصاً من بيع الأجساد والأعراض، وأوهمتُ نفسي بأنّني مقتنعة بهذه

المفاضلة بين بيعين رخيصين لا يمكن أن نفضّل أحدهما على الآخر في التّنخيس والتّسليع.

وأخيراً أصبحتُ صاحبة وظيفة محترمة في الظّاهر، واستطعتُ أن أفكّر في الفضيلة والبحث عن ميناء آمن لحياتي التي لم تنجُ يوماً من العواصف المدمّرة التي جنحتْ بي مرّة تلو الأخرى نحو صخور الرّذيلة .

وقرّرتُ أن أتوقّف عن الكتابة المأجورة لباغي الشّهرة من الكتّاب المزورين، وعندما رفضتُ أن أكتب رواية جديدة لذلك الرّوائيّ الوطنيّ الذي أعطاني أجري وظيفة حكوميّة قام بالانتقام منّي بتحويلي إلى التّقاعد المبكّر من الوظيفة بناء على تنسيباته لوزارة الإعلام حول مرض السّرطان الذي بدأ يغزو ثديي الأيمن بعد أن طردته من ثديي الأيسر، ويجبرني على أخذ الكثير من الإجازات المرضيّة لأجل جلسات العلاج الكيميائيّ.

لم يزعجني قرار التّقاعد المبكّر الذي فرضه عليّ ذلك الكاتب اللّص؛ فقد كنتُ في حاجة إلى السّلام والرّاحة مع راتب تقاعديّ دائم، ولو كان ضئيلاً ما دام هناك تأمين صحيّ شامل طوال العمر، وهو ما أحتاجه لاستكمال علاجي من مرض السّرطان.

*****

كتبت العاشقة: آخرُ ما كتبتُ من عمل أدبيّ مأجور كان هدية خالصة دون أجر لكاتبة مغمورة لا حسّ أدبيّ عندها أو ضمير وظيفيّ أو أكاديميّ، وإن كانت تصمّم على أن تضيف لقب الكاتبة المبدعة إلى مجموع ألقابها المشتراة بالمال وغيره، لكنّها كانتْ لطيفة وكريمة وخدومة في تعاملها معي، وقدّمتْ لي الكثير من التّبرّعات العلاجيّة في منتجعات صحيّة في كثير من

منتجعات العلاج في الوطن وفي خارجه من دول الجوار الشّقيقة وغير الشّقيقة، وذلك بحكم عملها في مجال العمل الطّبيّ الأكاديميّ.

لذلك قرّرتُ أن أردّ لها كرمها عليّ بكرم مماثل له، فكتبتُ لها مقالة نفاق رفيعة المستوى لتماري بها مسؤولاً من مسؤولي الدّولة كي تحصل على امتيازات وظيفيّة جديدة إلى جانب الكثير من الوظائف التي تعمل فيها بأجور عملاقة؛ لأنّها تحمل الكثير من الشّهادات الأكاديميّة العليا الرّفيعة التي اشترتها جميعاً بأموال والداها الموظّف الشّهير في وظيفة حسّاسة في جهاز القضاء في الدّولة لمدّة ربع قرن؛ لقد سرق أموال الشّعب كي يشتري لابنته عدّة شهادات أكاديميّة ومناصب اعتباريّة كي ترثه في سرقة الشّعب الذي يزعم أنّه يتفانى في خدمته.

وحُقّ له أن يفعل ذلك ما دام هدفه شريف صادر من صميم أبوّته الحانية، وهو بيع الوطن لشراء مستلزمات ابنته خاملة الموهبة والضّمير!

لكنّني على الرّغم من ذلك صمّمتُ على أن تكون مقالتي المبيعة لها هدية لها تقديراً لها على فسادها الوراثيّ الذي سمحتْ لي باستثمار بعضه للحصول على علاج لمرضي في منتجعات صحيّة وعلاجيّة باذخة العناية والاهتمام والخبرة الطّبيّة.

وكم ضحكتُ حدّ الاستغراق في البكاء عندما رأيت صورتها في اليوم التّالي في الصّفحة الأولى في الصّحف الرّسميّة جميعها، وهي تبتسم بثغرها الذي يشبه نفور ذيل دجاجة في لحظة تبرّز، وتحت اسمها سطر كامل من الألقاب التي تحملها، وإلى يسار الصّورة مقالتي التي أصبحت ممهورة باسمها، وطاب لي أن أشتمها واشتم والدها رجل القانون اللّص بأقذع الشّتائم حتى أزبد فمي بريقي الذي يخنقني.

كتبت العاشقة: مع طردي المقّنع من العمل تحت اسم التّقاعد المبكّر بسبب المعلوليّة الجسديّة دون أن أُعرض على لجان طبيّة عليا لأجل كتابة تقرير عن حالتي الصّحيّة، قررتُ أن أتقاعد عن أعمال بغائي جميعها الجسديّة والأدبيّة واللّفظيّة بحجّة المعلوليّة الرّوحيّة؛ فأنا لم أعد قادرة على أيّ امتهان جديد لي، كما لم أرضَ بأن أبيع نفسي أكثر مقابل أن أظلّ في الحياة.

الآن لا أريد الحياة أبداً إن كان ثمنها هو جسدي، ولا أريد الحياة إن كان ثمنها كلماتي الذّهبيّة، أريد الآن أن أموت ميتة بخلاف الحياة، أريد أن أموت بكلّ شرف واحترام وهيبة وانتقاء وإصرار وترصّد، أريد أن أموت وأنا أقول لا لكلّ من يريد أن ينهش لحمي أو كلماتي، لن أعطي أحداً منّي أكثر خلا الموت الذي أريد أن أعطيه نفسي بشكل كامل.

قرّرتُ أن ألزم بيتي، وأن أعتزل الدّنيا، وأن أهجر دروبي السّابقة، وأن أسير في دربي الأخير نحو الموت بكامل إرادتي ووحدتي وخطاياي وألمي، لن أفتح بابي لطارق سوى من جاء ليزورني، لا ليشتري بعضي، ويدفع ثمنه مالاً بخساً مهما كثر، ولن أكتب كلماتي إلّا لي، وللإنسان الوحيد الذي لم يطفئ روحي، ولم يسرق بعضي، وكان يجيد أن يضحكني؛ لذلك أسميته الضّحّاك.

سأكتب سيرتي للضّحّاك كي يدرك ما مررتُ به من معاناة، ويعرف كم فقدتُ منّي في الدّرب، سأكتبُ له بكلّ صدق، ولن أكذب عليه، ضاربة صفحاً عن القاعدة الذّهبيّة في مجتمعي حيث الكذب هو المنجاة، والصّدق هو الهلاك، سأكون صادقة إلى حدّ الفناء، وسأنزف بين يديه حتى الموت؛ فأنا أشتهي أن أموت بين يديه، ما دمتُ لم أستطعْ أن عيش معه.

النّسيان العشرون

العابرون

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"لا أحد يعرف كيف تحوّل قلبي من قلب إلى صفحة منسيّة في كتاب"
"هو يجهل فلسفة المطر ومواسم الحبّ"
"هل يمكن للوطن أن يتلخّص في قلب؟"
"هل يمكن أن أغمض عيني، فلا أراكَ؟"
"هل يمكن أن نفسّر الحبّ على اعتباره حادثاً كونيّاً مؤسفاً؟"
"مَنْ خُلق أوّلاً؟ الحبّ أم الألم؟ أم أنّ أحدهما خُلق لأجل الآخر؟"
"عندما نكتب من نحبّهم نحوّلهم إلى مجرّد كلمات"

كتبت العاشقة: عندما هاجم السّرطان ثديي الأيسر أخذتُ الأمر على محمل المزاح وعدم الجدّية؛ فلا يمكن أن تكون المآلات الحزينة القاسية جميعها من نصيبي دون غيري من البشر، لكن عندما انتقل هجومه إلى الثّدي الأيمن، ومن ثم إلى الرّحم أدركتُ أنّه لا يمازحني أبداً، وأنّه مآل جديد من مالآت السّوء في حياتي، لكنّني قرّرتُ في هذه المرّة أن أباغته بموقفي، وأن لا أحاربه، وأن لا أتصدّى له، بل قرّرتُ أن أروي له بعضاً من قصص العابرين في حياتي ليتسلّى بها لعلّه يفارقني، ويكتفي بما في نفسي من خراب، ويقنع بأنّ لا شيء عندي يسلبه منّي أكثر ممّا سلبته الحياة والعابرون منّي.

كنتُ في هذه الفترة قد دخلتُ في مرحلة الصّمت والتّصوّف على طريقتي الخاصّة، كان الله قد بدا لي في أقرب حالته منّي، وأنا اجتهدتُ أن أقترب إليه أكثر؛ لكن بطريقتي الخاصّة لا بطريقة أصحاب التّزوير والنّفاق.

لم أفكّر بالتّطهّر إلّا بطريقتي، واكتفيتُ بغسل جسدي بالملح، ومن ثم بماء الورد لتطهيره ممّا علق به من دنس مَنْ ولغوا فيه من كلاب أنجاس، وبعد ذلك قرّرتُ أن أجعله محرّماً على البشر أجمعين كي أقدّمه للموت طاهراً من كلّ درن أو رجس أو قذارة أو دنس، وفي لحظات آلامي الشّديدة كنتُ أرقص عارية حتى أتلف من التّعب، أرقص، وأرقص، وأرقص، ولا أبالي بأيّ ألم يقرشُ احتمالي، أظلّ أدور وأدور وأدور في حجرتي حتى أهدّ الألم، وأركن إلى الصّمت، فيما أتكوّم أرضاً عاريّة حتى من قدرتي على التّنفّس.

حبستُ نفسي في شقتي الصّغيرة، ولم يزرني فيها إلّا القليل من البشر المخلصين وصديقتي الوحيدة هدى التي حالفها الحظّ أكثر منّي في الحياة؛ فخلعتْ عنها آلام الماضي منذ زمن طويل، وسارت باتّزان في الحياة، وتزوّجتْ، وأنجبتْ، وعاشتْ حياتها بشكل طبيعيّ راضية مرضيّة كما تزعم، ونسيت آلامها مع كلّ مرّة سمعتُ فيها كلمة "ماما" من فم عطريّ صغير طاهر مثل ملاك.

ربما كانت محظوظة أكثر منّي؛ لأنّها كانت امرأة متواضعة الجمال والملكات والإحساس والانتظار، أمّا أنا فكنتُ امرأة ملعونة بالكمّ الهائل المزدحم الذي أملكه من الاحمرار والإثارة والشّهوة والشّبق والجمال والملكات والأمنيات والرّغبات والانتظار الذي كان ينصبّ كلّه اتّجاه الحبّ الكامل الذي لم أحظّ به، واتّجاه الضّحّاك الذي يمّثل لي الحبّ المثاليّ والرّجل الحقيقيّ، وقد ضيّعته الأيام منّي دون أن يكون لي يد في ذلك؛ لذلك حُقّ لي أن أنتقم من الأيام ومن قوانينها الصّارمة كما أشاء ما دامتْ قد حرمتني من مطلبي الوحيد فيها، وهو الحبّ.

كتبت العاشقة: الآن أنا وحدي في لقائي مع السّرطان الذي زارني دون دعوة أو ترحيب، ليس معي إلّا صوفيّتي وزهدي القهريّ وبحر من الألم والنّدم والحيرة دون هادٍ، وما عندي له منّي إلّا جبال من سراب الرّجال العابرين في حياتي، بل في حيواتي، فكلّ رجل في حياتي كان بمثابة حياة جديدة لي، وكنت زمناً أسطوريّاً له.

هل تحبّ الرّجال الرّمال العابرين في السّراب أيّها السّرطان؟ لا بدّ أنّك تشتهي أن تلتهم كلّ ما يمرّ في طريقكَ، وطالما أنّكَ قد وصلتَ إلى ثديي ورحمي، فأنتَ قد وصلتَ تماماً إلى المكان الذي عبروا جميعاً منه، وعليك أن تقف معي على شواهد قبورهم لأحكي لكَ بعض قصصهم، لعلّكَ تقتنع بأنّ لا جدوى من أن تجرّني معكَ إلى العدم؛ فأنا عدم كامل منذ دهور دامية.

لن أحدّثكَ عن الضّحّاك؛ فوحده من لم يعبر في جسدي، ووحده من عبر في روحي؛ لذلك لا حقّ لكَ في أن تعرف قصّته معي. لكن سوف أحدّثكَ عن العابرين في قلب عابر وجسد عابر وفرح عابر وتذكّر عابر. ولكَ وحدكَ أن تبصقهم جميعاً بعد أن يعبروا في مسمعيكَ، كما بصقتْ ذاكرتي الكثير منهم، وما علق بها إلّا أكثرهم توسيخاً لها ولروحي المصلوب على بوابة الامتهان والضّياع.

*****

كتبت العاشقة: لأشهر لم أحصها ظللتُ أروي للسّرطان قصص الرّجال العابرين في تاريخي، وظلّ يسمع قصصهم باهتمام موفور، لم أشترط عليه أن يكفّ عن مهاجمتي ثمناً لقصصي التي أنثرها في حضنه بالمجان، وقدّرتُ أنّه قد

يكرم عليّ بذلك، كما كرمتُ عليه بالحكي الذي لا ينضب، لكنّه كان كعادته خبيثاً لئيماً، واستمرّ يهاجمني، واستمررتُ أسامره وأسلّيه.

*****

كتبت العاشقة: السّرطان صديق من الصّعب التّعايش معه، ومن الأصعب خلعه، ومعاداته، وإدارة ظهر المجنّ له؛ لذلك اتّخذتُ معه موقفاً وسطاً يليق بزهدي وتصوّفي؛ فلم أطلب منه شيئاً، ولم أطمع في شيء يملكه، ولم أرجه أن يرحمني، أو أن يخلي سبيلي، واكتفيتُ بأن كنتُ صديقته ملكة القصص والحكايات التي زهدت في كلّ شيء خلا قصصها والكتابة في رواياتها المخطوطة التي ستهديها في يوم ما لحبيبها الضّحّاك لتكون صكّ غفران لها من خطاياها وزلّاتها وعثراتها.

*****

كتبت العاشقة: أسوأ ما يحدث مع المرأة يا صديقي السّرطان أن لا تعود قادرة على التّمييز بين الرّجال الذين عبروا في جسدها، وتختلط في ذاكرتها صورهم وقبلهم وروائحهم وأنفاسهم وكلماتهم وأفعالهم وأقوالهم ومهازلهم وقبح عريهم.

*****

كتبت العاشقة: من سخرية الزّهد أنّه تلبّسني إلى حدّ أنّني لم أعد أذكر أسماء رجالي العابرين، قليل منهم مَنْ أذكر أسماءهم، والباقون ليسوا أكثر من قصص عبور دون ملامح أو قسمات أو أسماء، هم سراب في درب الوهم والخديعة.

في الماضي كنتُ أحصي رجالي الواحد تلو الواحد في قائمة طويلة أسميتها "العابرين"، لكن عندما طالت القائمة إلى حدّ خنقي مزّقتها، وطرحتها أرضاً، وتبوّلت عليها انتقاماً من العابرين دون إذن في روحي وجسدي وأحلامي.

أمّا الضّحّاك فلم يكن اسماً أضعه في قائمة ما، بل كان الوجود كلّه لطفلة معذّبة تسكن أعماقي اسمها بهاء؛ لذلك كنتُ أتلوه على روحي كلّما شعرت بالخوف والجزع كي تهدأ، وتقرّ يقيناً بأنّ العشق الحقيقيّ لا يستطيع أيّ سرطان أن يقتله.

*****

كتبت العاشقة: الفارس المومياء يا صديقي السّرطان كان أجمل العابرين في حياتي؛ لقد قابلته أوّل مرة في حجرته المبرّدة في المتحف القوميّ، اشتريتُ تذكرة من الدّرجة الخاصّة المرتفعة الثّمن كي أستطيع أن أقترب من تابوته الزّجاجي الشّفّافّ الذي يعرضه للزّائرين بقماط تحنيطه الأبيض.

منذ وقعتْ عيني عليه، وقع في عشقي، ووقعتُ في عشقه، كان يبدو متمسّكاً بهيبته الملكيّة الرّصينة التي تعرض فخراً عريضاً على الرّغم من الشّق الكبير القاتل في جبهته من ضربة فأس صرعته في أرض المعركة.

الرّجل المومياء قضى نحبه فارساً شجاعاً، ومنذ آلاف السّنين يُعرض حتفه وجبهته المفلوقة أمام زائري المتحف من سائر أقطاب الدّنيا.

راق لي وجهه الموميائي الدّقيق البديع النّبيل القسمات، وأحببتُ أن أتحدّى فروسيته وحزمه، فاقتربتُ من تابوته الزّجاجيّ الشّفاف، وقلتُ له: إن كنتَ تعشقني؛ فهيّا اتبعني.

دون تردّد رأيتُ الفارس المومياء يفزّ من ضجعته الملكيّة الألفيّة، ويدفع غطاء تابوته الزّجاجيّ بعيداً عن جسده، ويقول لي بحماس وتأهّب: هيا بنا لنغادر هذا المكان.

*****

كتبت العاشقة: هناك صنف من الرّجال يجوز أن نطلق عليهم اسم بصل الرّجال، لا لأهميتهم في مكونات طبق الحياة؛ بل لأنّهم خُلقوا بصنان مقشعر للأبدان كما هو صنان البصّل عندما يتخمّر، ويُحبس في طبق .

وذلك الرّجل المصنّن من الرّجال الذين عبروا في حياتي، كنتُ أحبّ اللّقاء به؛ لأنّه يستطيع أن يضحّكني دون توقّف بجسده الصّغير الهزيل، ورأسه الكبير الأقرع خلا شعيرات شوكيّة متناثرة على فروة رأسه مثل أشواك متطايرة في أرض جرداء.

كنتُ أنظر إليه على اعتبار أنّه مسخ عبيط من النّوع الرّخيص المتضائل المواهب الذي لا يملك حيلة لإضحاك جمهوره سوى الكشف عن مؤخرته القذرة المشعوعرة ليضحك الأطفال، ويقزّز النّساء الشّهوانيّات.

لم تستمرّ العلاقة بيننا أكثر من زمن تلهي طفلة بقرد مشاكس، ولم يرغب في البقاء معي أكثر من زمن تبرّز ديك في مزبلة.

*****

كتبت العاشقة: ذلك الشّاعر المأفون أنهى كلّ حكاية من حكايات حبّه بانتحار مأساويّ نجا منه بسهولة.

عندما أحبّني، وقرّر الانتحار، حرصتُ على أن لا تتوفّر له فرص النّجاة من انتحاره الاحتجاجيّ على رخصي وتسليعي وفق ما ذكر في رسالة

انتحاره التي كانت سبباً مهمّاً لعبور طائفة جديدة من العشّاق في حياتي، وهي طائفة العشّاق الذين يفضّلون الانتحار نهاية لقصص عشقهم الفاشل في الأحوال جميعها.

*****

كتبت العاشقة: لم أكن أحبّه أو حتى أشتهيه، لكنّني كنتُ متعاطفة مع خسارته لقدميه برصاص العدوّ في مجابهته الشّجاعة لهم؛ لذلك قدّمت جسدي له هدية خالصة تعبيراً له عن تقديري لتضحيته لأذيقه جسد امرأة بعد طول حرمانه منه بسبب إعاقته الشّديدة.

هذه التّجربة عددتها نوعاً خاصّاً من العمل الوطنيّ السّري لدعم مسيرة النّضال والإباء والكرامة، وتحفيز همم المناضلين؛ فحتى البغايا تعشق الفدائيين والمناضلين، ويشرّفها أن تقدّم الدّعم لهم.

*****

كتبت العاشقة: في لحظات سكري أصرّح بشجاعة لا تتوافق مع ضعفي بأنّ هناك مؤامرة كونيّة على الحبّ في أوطاننا حيث ينتهي العشّاق نهايات مفجعة انتقاماً منهم؛ لأنّهم اقترفوا الحبّ بأيّ شكل من الأشكال.

جولة صغيرة على شاشات التّلفزة تكفي لتأكيد نظريتي في التآمر على منجزنا العشقيّ العتيد؛ عشّاقنا جميعاً ينتهون جائعين أو مجانين أو معتقلين أو مقتولين؛ الحبّ في أوطاننا مصيره الموت مع أغلظ عذاب.

*****

كتبت العاشقة: ذلك الوسيم المثير كوّم الله السّحر في سحنته الجميلة وفي جسده البارع البلاغة والفتنة؛ وترك روحه وقلبه ركاماً سخاماً.

حفظ الكثير من الشّعر بطريقة تمثيليّة كي يغـويني، لكـنّني قصّـرتُ الطّريـق عليه، وذهبتُ معه إلى السّرير كما يبغي كي يتوقّف عن قتـل الشّـعر الجميـل بطريقة إلقائه الممجوجة، وزدتُ عليه في أجر ليلتي انتقاماً للشّـعر مـن تلعـثم حروفه وثقل ظلّه.

*****

كتبت العاشقة: الحياة ساحة حرب حدّ التّنـاحر، هـي أكثـر وحشـيّة مـن حلقة صراع رومانيّة بين أسد هصور غضـوب وعبـد عـارٍ حتـى مـن رغبـة المقاومة لأجل المحافظة على حياته.

وفي هذه السّاحة الجهنّميّة أُجـبرت علـى أن أقاتـل فيهـا وحـوش البشـر؛ لأنّني لم أملك حتى حقّ الاستسلام؛ لذلك واجهـتُ عـذابي القـدريّ، وهـو التّمرّغ في وحل الرّجال الوحوش.

*****

كتبت العاشقة: ذلك الشّاب الرّقـراق الصّـفاء اجتهـد مليّـاً كـي يتلـوّث برذيلتي؛ لأنّه أحبّني بصدق، لكنّني صممتُ على أن أنقذه منّـي؛ لأنّـني كنـتُ أراه في سنّ ابني الذي كنتُ سأنجبه من الضّحّاك لو لم تأخـذه الأمـواج بعيـداً عن شاطئي.

*****

كتبت العاشقة: فكّرتُ بأن أتصدّق عليه بجسـدي وبعـض الفـرح المحـرّم عليه؛ لأنّه عاش اليتم مثلي، وحياته سلسلة من الوجع.

هو يعمل سائقاً عند ذلك القصير السّمين الذي كنتُ أبيعه جسدي بطائل المائل، في حين أتصدّق على سائقه المعدم بجسدي بوصف تبرّعي هذا نوع من أنواع رثائي ليتمه.

وفي كثير من الأحيان كانت تتملّكني الرّأفة المتهوّرة، فأضع في يدي ذلك السّائق اليتيم ما أخذته من مال من سيده السّمين الغليظ.

*****

كتبت العاشقة: ذلك الرّجل الثّري الشّهير كان يجيد بحنكته الفطريّة أن يخدع كلّ من يحدّث من بشر، حتى أنّه خدعني لمفارشات كثيرة بيننا، وعندما حدّثته عن حلمي بأن أحظى بطفل ما قبل أن يجفّ رحمي، وينقضي خصبي، عرض علي أن يتبنّى لي صغيراً من الميتم ليكون ابناً لي وله.

وأخفى عنّي أنّ ذلك الطّفل هو في حقيقة الأمر ابنه الذي أنجبه من مسافحة ما، ثم ألقى به في الميتم إلى حين يجد حيلة ما ليردّه إليه دون أن يدري أحد من خصومه الأثرياء أنّه ابنه غير الشّرعيّ.

*****

كتبت العاشقة: هو شعرور صعلوك يزعم أنّه لا يستطيع أنّ يقرض شعره الأعرج إلّا في حضن مضاجعة مشتعلة في حضني، يخلع عليّ فيها درجة ربّة من ربّات السّحر مع مرتبة القداسة والتّبجيل، وعندما تنقضي شهوته منّي، وينفث قشبه في أشعاره المهترئة يسحب درجة الرّبوبيّة منّي، ويهبط بي إلى درجة الكنيف الذي يقضي حاجته فيه، ثم يتقزّز منه، ويفارقه سريعاً نافراً منه حتى قبل أن يستر مؤخرته العارية.

كتبت العاشقة: هو ميّت منذ دهور، لكنّه يصمّم على مضاجعتي ثمناً لماله واهتمامه وخدماته لي؛ وعندما تقرصه وحشة الموات يصمّم على أن أتبوّل عليه كي أيقظه من إغماءته الموصولة ، فأفعل ذلك متحمّسة للانتقام منه ومن أمّته، وأصمّم على أن يزيد لي في أجري مقابل بولي المسكوب عليه بالنّيابة عن الشّعب كلّه؛ لأنّ التّبوّل على الزّبائن مهمّة خارجة عن خصائص عملي التّرفيهيّ.

*****

كتبت العاشقة: مشكلته المتأصّلة في أعماقه ووجوده أنّ أمّه عاشت لأجل سحاقيتها، لقد هجرتْ والده لأجل أن تجعل من شقتها الشّاسعة المساحة مرتعاً لصديقاتها السّحاقيّات.

هو ابنها الوحيد، لكنّها أهملته لصالح متعها الشّاذّة، ومنذ ذلك الوقت أصبحتْ متعته الوحيدة تتمثّل في أن يكتري الرّجال الشّداد ليسافدوا النّساء أمامه، ويستمتع بألمهنّ الجنسيّ في أحضان عالم من الذّكور الفحول، وهو المتفرّج الوحيد على هذا الألم.

*****

كتبت العاشقة: كنتُ أظنّ أنّ الميتم ينحصر داخل أسواره الخانقة فقط، وأنّ المعلّم أفراح الرّمليّ نسيج وحده من أنسجة الظّلام في ذلك المكان الرّهيب، لكنّني اكتشفتُ سريعاً أنّ العالم كلّه ميتم كبير، وأنّ نسخ أفراح الرّمليّ من البشر لا حدود لها، وأنّ من الطّبيعيّ في هذا الميتم أن يغتصب أفراح الرّمليّ وأشباهه مَنْ يشاؤون ومتى يشاؤون من الطّفلات المستضعفات اليتيمات.

ومن حسن طالعي أنّي اعتدتُ على أمثال أفراح الرّمليّ منذ الصّغر؛ فتعلّمتُ منهم أنّ لا أتألّم مهما كان الوجع موغلاً في الرّوح، وأن أداري دموعي عنهم مهما عانيتُ؛ فهي أغلى من أن أسكب طهرها أمام لؤمهم.

*****

كتبت العاشقة: كلماته الولهى وحمرة خدّيه وتسمّره في مكانه عندما يراني كانت أدلّته الخادعة على حبّه الطّاهر لي؛ فهو لم يكن يريد جسدي إلّا زوجة، لا نبلاً وفروسيّة وشرفاً؛ بل لأنّه كان يخطّط أن يستثمر جسدي في إنجاز مشاريع حياته، وأن يقدّمني رشوات مشبعة لمن يبتغي رضاهم ومساعداتهم في انطلاقه الصّاروخيّ نحو القمّة في القوّة والسّيطرة الثّراء دون استحقاق.

*****

كتبت العاشقة: أعجب ما في الرّجال العابرين أنّهم يحبّون أن يورثوني لأصدقائهم ومعارفهم وأسيادهم وعبيدهم؛ كي يثبتوا لهم جميعاً أنّهم أوّل العابرين بي.

*****

كتبت العاشقة: هناك صنف من الرّجال يحبّ ألعاب الإنكار والتّخفّي والاستيهام والخبل، وأنا أجدتُ الانخراط في هذه الألعاب الموسة؛ فأتيح لي أن أقابل وفود الجحيم من رجال اللّعنة؛ لقد قابلتهم جميعاً، وسمحتُ لهم أن يأكلوا من لحمي، وأن يشربوا من دمي، وأن يتبرّدوا بدموعي، وأن تدوس ظلالهم العارية السّوداء ظلّي المسكين الوحيد الذي كان يرى حقائقهم دون تزوير مهما حاولوا الإيغال في ذلك.

قليل منهم من دفع ثمن ذلك كما ينبغي، وكثير منهم مَنْ كانوا يجيدون ألعابهم القذرة أكثر منّي؛ فتبخّروا من حياتي، وتركوا لي دفع فواتير ألعابهم، وقد دفعتها جميعاً باستسلامي للمزيد من الوفود الأخرى من رجال الجحيم.

*****

كتبت العاشقة: بعد خبرتي الطّويلة مع الرّجال مصاصي الرّوح، لم يبقَ عندي منّي ما يكفي إلا للمزيد من الموات.

*****

كتبت العاشقة: من أسوأ الأمراض التي لازمتني في دربي الصّعب أنّني أتمثّل أوهام العاشقين جميعاً، وأتوّجع بأوجاعهم؛ فذلك الفدائيّ الذي أُستشهد قبل أن يزرع قبلة على جبين حبيبته هو بطلي، وذلك العالم الجليل الذي اغتاله الأعادي كي لا يمطر علمه على أبناء جلدته هو فارسي، وأولئك الغارقون في بحار الدّنيا هرباً من الفتك والتّنكيل هم أحلامي.

لا يد لمستْ قلبي من أيدي الذين دنّسوا جسدي وروحي ووجودي، لكن أولئك الذي قبّلوا الحبّ على جبينه بطهارة هم من لامسوا قلبي.

*****

كتبت العاشقة: لستُ متأكدة الآن إلّا من شيء واحد، وهو أنّني قد تناثرت مزقاً في أيدي الرّجال الذي تكالبوا على فقري وضعفي ووحدتي ويتمي وعوزي الدّائم.

*****

كتبت العاشقة: لم أعد أصدّق أنّ هناك رجلاً يستطيع أن يعشقني؛ فكلّ ما خُلق لي من عشق في هذه الحياة هو مُدّخر لي في صدر الضّحّاك.

أمّا الذين زعموا أنّهم عالقون في شرك سحريّ، فلم أنظر إليهم أكثر من نظرة عصفور خائف إلى صيّاد مخادع نثر شباكه، فلم تعلق بها إلا أوراق الخريف المتساقطة وقدما عصفور منكود محزون اسمه حظوظي.

*****

كتبت العاشقة: صديقي السّرطان ضاق ذرعاً بالكثير من رجالي العابرين في السّراب، ولولا أنّه محافظ بطبيعته الرّصينة الفاتكة لمزّق جسدي وروحي بضربة واحدة منهم كي يحرق رجالي الأوهام.

*****

كتبت العاشقة: عندي الكثير من قصص العابرين في لحظاتي العابرة الممجوجة، أريد أن أطلب من السّرطان أن يقضي علي سريعاً بضربة قاتلة منه، لكن دون ألم، فلا طاقة لي بتحمّل المزيد من الوجع. سأكون شهرزاده التي تحكي دون توقّف، وهو من كاد أن ينخدع لي بحيلتي هذه.

لكنّه لم يطق صبراً على سماع ترّهات رجالي العابرين إلى العدم، وصرخ بي آمراً لي بأن أصمتْ إلى الأبد، ثم أشهر سخطه عليّ وعلى أولئك المارقين الأفّاقين العابرين بيّ، وعضّني في ثديي بأنياب من وجع مهلك، فأيقنتُ أنّه لن يسمع بعد الآن أيّاً من قصصي، وأنّ لعبة تسليته بالقصص ليكفّ عن أوجاعي هي لعبة سخيفة لا تروق له كما أمّلتُ نفسي.

معكَ حقّ يا صديقي السّرطان في نفوركَ من ابتذال قصصي؛ فأنـتَ ذوّاق عتيد؛ لا تشتهي من القصص سوى قصص النّبلاء والفرسان والفاتحين والثّوار الأبرار والصّابرين، وقصصي -خلا القليل منها- هي قصص الظّلّ والظّلام والعفن والماء العكر النّجس والأرواح القادمة من الجحيم الكئيب أو المصلوبة على بوّابة انتظار العذاب الذي لا يفنى ولا يُفني.

*****

كتبت العاشقة: صديقي السّرطان، اعذرني لأنّي أخفيتُ عنكَ قصّتي مع الضّحّاك؛ فهو أكثر قداسة عندي من أن أروي حكايته لمن يجلدني بالموت والقهر والوجع؛ إنّه خُلق لعشقي الطّاهر الذي لم تعبث به أقدار الدّرب وخُطى السّالكين فيه.

إنّه رجلي الشّاسع المساحات والمسافات والرّوح، ووحده من أريد أن أركض في دروبه الطّاهرة المنجية.

النّسيان الحادي والعشرون

الدّروب

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الخذلان يجعّد الحبّ، ويخفي الكثير من تفاصيله الجميلة"
"لماذا يجب أن يكون التّقويم بالأيّام؟ لماذا لا يكون التّقويم بالأفراح والمسرّات؟"
"لماذا نبحث باستمرار عن ملائكة في الحبّ على الرّغم من أنّ الملائكة لم تُخلق لتكون بشراً؟"
"حوائج النّفس كلّها تُقضى بتركها إلّا حاجة النّفس إليكَ فلا تُقضى إلّا بأخذها"
"مشكلة الشّيطان الكبرى أنّه عشق أكثر ممّا يجب أن يكون العشق"
"العشق لا يعني التّشابه، بل يعني التّقبّل الكامل للآخر المختلف"
"أجمل ما في الحبّ انحيازه إلى المحبوب"

يدقّق الضّحّاك في تاريخ كتابة بهاء لقصصها عن الرّجال العابرين في حياتها، هذا التّاريخ يتذكّره جيداً؛ لأنّه كان فيه في مدينة وطنه المخلوع منه، ما يزال هذا التّاريخ مطبوعاً على جواز سفره القديم، لا يمكن أن ينساه أبداً؛ فقد حضر فيه شرارة انطلاق إحدى الاعتصامات الكبيرة في المدينة احتجاجاً على الغلاء والفقر وارتفاع الضّرائب والفساد وخنق الحرّيات، وسرعان ما تحوّلت تلك الاعتصامات السّلميّة إلى مواجهات دامية مع جنود مكافحة الشّغب الذين داسوا على المعتصمين دون رحمة، وسحقوا رفضهم ومطالبهم وآمالهم في التّحرّر ممّا هم فيه من ظلم ومعاناة.

حينها أمرته سفارة وطنه الجليديّ بأن يخرج سريعاً من البلد المتداعي حرصاً على سلامته، وقد استجاب لطلبها الآمر المستعجل، ورحل عن المدينة مع مَنْ رحل عنها من أبناء جاليته قبل أن تصبح المدينة ناراً تحرق كلّ من يسير في الدّروب، وتكوي الجميع، وتُفرض الإقامة الجبريّة في البيوت لأكثر من أسبوع.

عندها كان يزور المدينة تلبية لدعوة قدّمها له أديب يملك دار نشر شهيرة في الشّرق، وقد أراد أن يتعاقد معه لأجل ترجمة روايته الأخيرة إلى العربيّة بعد ما حقّقته من شهرة ونجاح، وقد لبّى الدّعوة بحماس، لعلّه يظفر بمعلومة ما توصله إلى بهاء، وتظاهر بالفرح بهذه التّرجمة المرتقبة التي أبرم عقدها مع الأديب النّاشر على عجل دون أن يتوقّف طويلاً في تفاصيل الرّبح والمكاسب، في حين ظلّ يبحث في الوجوه والصّحف عن وجه حبيبته، حتى أنّه ذهب إلى الشّارع البائس حيث يقبع الميتم، فوجده قد تهدّم كما تهدّم الوطن كلّه، ولم يسأل أحداً عن سبب ما آل إليه هذا البناء من تحطّم، واكتفى بأن تمّشى في شارعه لساعتين لعلّ معجزة ما تحدثّ، ويجد الطّفلة الحمراء تجري نحوه هاربة من سجنها في الميتم، لكن ذلك لم يحدث، وغادر دربه وحلمه كسير القلب خائب الأمل.

ظلّ طوال طريق عودته إلى الفندق الذي نزل فيه يرهف السّمع لأصوات تلكم النّساء اللّواتي يتحدّثن العربيّة العاميّة بالطّريقة التي كانت تتحدّث بهاء بها، ما أشدّ شوقه لهذه اللّغة المتوارية في دمه على الرّغم من خصامه الشّديد لمدنها وأهلها وتاريخها!

متعته الوحيدة في هذه المدينة هي أن يشنّف أذنيه لصوت النّساء اللّواتي يلتقي بهنّ في الدّروب، وهو يعود راجلاً إلى الفندق الذي يقيم فيه، ويمنّي نفسه بأن يسمع صوت حبيبته بترنّمها العجيب بكلّ حرف تلفظه، فيغرق -وهو يسمعها- في دلال صوتيّ مفرط قادر على أن يطلق أعمق تأوّه من صدره العاشق لها.

*****

ذلك الأديب المترجم دعاه إلى حفل خاصّ في بيت امرأة زعـم أنّهـا أديبـة شهيرة في المدينة، ومرشّحة لنيل منصب ثقافيّ رسميّ رفيع، وقد وافـق علـى تلبية الدّعوة دون تردّد على أمل أن تكون تلـك المـرأة هـي حبيبتـه المختفيـة باسم سهر قوت القلوب، لكن ما كـاد يصـل إلى بيتهـا، ويـدلف خطـوة إلى داخله من باب حديديّ كبير ملوّن مطعّم بالنّحاس حتى تبخّر أملـه، ووجـد نفسه أمام امرأة ملبسة تبدو مثل مومس من العيار الـرّخيص، بـدل أن تبـدو مثقّفة وأديبة مرهفة محتشّمة كما توقّع أن تكون.

سهرة لساعتين في بيت سهر قوت القلوب جعلته يقتنع بأنّه في بيت قـوّاده مخمليّة، لا في بيت أديبة من أيّ عارٍ كان، لقد حدّثته دون خجل عمّـا تخجـل النّساء الشّريفات عن التّحدّث به، وعرضتْ عليه أن تمتّعه بنفسها أو بإحـدى فتياتها، وقبل أن يعرف ثمن ذلك رفض عرضها، واكتفى بأن يسمع قصـتّها في ذلك المساء عن عالم الذّرّة العربيّ الشّهير الهارب من بلده الذي تمّ اغتيالـه في شقّته دون أن يُعرف الفاعل كما ذكرت محاضـر تحقيـق الشّـرطة، في حـين يعلم الجميع مَنْ قتله ولماذا؛ وهو من جاهر بمعارضـته لنظـام شـرقيّ فاسـد، وكتب أكثر من مقالة عن ذلك، فآل إلى ما آل إليـه أمثالـه مـن الـذين دفعـوا حياتهم ثمناً لآرائهم ومداد أقلامهم.

أمّا حديثها عن عملها الأدبيّ الأخير فلم يسترعِ انتباهـه بقـدر ذرة خـردل، إلّا أنّه ضحك كثيراً حتى دمعت عيناه، وهي تحدّثهم عن رفضها الشّديد لأن تكون مقدّمة لتلك الدّعاية عن مساحيق التّنظيف، وعندما سألته عـن سـبب ضحكه الهستيريّ المداهم للجميع، أجابها ساخراً: من الواضح أنّك تكـرهين النّظافة بأشكالها جميعاً.

في تلك اللّيلة صمّم على أن يعود إلى فندقه مشياً على القدمين كي يتـنفّس هواء نقيّاً بعد أن كاد يختنق في ذلك الماخور الذي اسمـه شـقّة أديبـة شـهيرة، وفي طريق عودته راودته الكثير من بنات اللّيل عن نفسه، فأغدق علـيهنّ بمـا يحمل من مال في جيبه، دون أن يحصل منهنّ علـى شـيء سـوى اسـتغرابهنّ من منحته المجانيّة لهنّ، وجهلهنّ لمعنى قوله لهنّ: أنتنّ الأطهـر في هـذه المدينـة العاهرة.

في الوقت الذي كان الضّحّاك يجوب فيه شوارع المدينـة يبحـث فيهـا عـن صوت بهاء الشّجي ذي البحة العميقة ومخـارج الحـروف المترنّمـة الواضـحة التّفاصيل، كانت هي قد حبستْ نفسها في شقّتها لتمـوت بصـمت وهـدوء، وهي تلعب لعبة الحكي الشّهرزاديّة مع السّـرطان الشّـهريار المتجبّـر عليهـا، لكن ليس من أجل أن تطلب منه فرصة حياة ليوم جديد، بل كي ترجـوه أن يأكل ذاكرتها، وأن يقضي عليها سريعاً كي تنجو ممّـا تعانيـه مـن ألم ووحـدة وحزن.

*****

تساءل الضّحّاك وهو يغلق المخطوطة أتراه مرّ من أمـام شـقّة حبيبتـه دون أن يعرف أنّه قريب منها؟ وهل تراها كانت تجلس على شـرفة شـقّتها، وهـو يتمشّى أمامها في الشّارع دون أن تعرف أنّـه جـاء للبحـث عنهـا؟ أم أنّ كـلّ ذلك لم يحدث، ولم تجمعهما المدينة إلّا عبر أرضـها الجافّـة وسمائهـا الكئيبـة، ودروبها التي لا تلتقي، وذاكرتها التي لا تحمل لهما إلّا الألم والضّنى.

شعر الضّحّاك باختناق كبير، وفكّـر في أن يخـرج للمشـي للتّـرويح عـن نفسه، نظر في السّـاعة، فوجـدها الواحـدة لـيلاً، نظـر في وجـه بهـاء النّائمـة نومتها العجيبة، فوجدها غارقـة في الصّـمت، أوجـس خيفـة مـن أن يتركهـا

وحدها لعلّها تحتاج إليه، نظر في المرآة مفكّراً فيما عليه أن يفعل، فلفت نظره أنّ لحيته أصبحت طويلة حتى كاد طولها يتجاوز اندفاع عظام صدره، وأنّ شعر رأسه أصبح طوله إلى ما بعد منتصف ظهره، فهاله منظره الكئيب المشعوعر، كأنّه حبيس سبات عمره ألف سنة، شعر للحظة أنّه حبيس إلى جانب بهاء منذ دهور، فازداد اختناقه، وقرّر أن يخرج للتّمشّي اللّيليّ في شوارع المدينة على ما في ذلك من خطر من شرور السّكارى والمشرّدين والمجرمين المتوارين في الظّلام.

هبط الدّرج من الطّابق العلويّ نحو الطّابق الأرضيّ في بيته كي يذهب إلى غرفة باربرا، ويطلب منها أن ترعى بهاء إلى حين عودته من جولته اللّيليّة الرّاجلة.

خمّن أنّ باربرا غارقة في النّوم في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل، وأن عليه أن يوقظها من نومها، فاستاء وتحرّج؛ لأنّه سيزعجها إلى هذا الحدّ، لكن لا بدّ له من ذلك، اقترب من باب غرفتها، فوجد الضّوء يتسرّب خارجها من تحت عقب الباب، فاستغرب أن تكون باربرا نائمة، وهي مشعلة أضواء الغرفة، وهي من تحبّذ النّوم على ضوء خافت أو في ظلام دامس.

طرق الباب منتظراً أن تأذن له باربرا بالدّخول بلكنتها الآمرة المتعالية، لكنّه لم يسمع صوتها، إنّما سمع صوت قدمين تقتربان من الباب، ثم يُفتح الباب، فيطلّ منه وجه رجل يعرف ملامحه تماماً، لكنّه لم يتخيّل أن يجده في غرفة باربرا عاري الصّدر، لا يستر جسده إلّا بمنشفة قطنيّة بيضاء يربطها على خصره كي تستر عورته وأعلى فخذيه.

ألجمت الصّدمة فم الضّحّاك، وما درى ما عليه أن يقول، وقد رأى باربرا على السّرير مضطجعة بهدوء وأريحيّة، كأنّها تتعمّد أن يملأ عينيه منها بهذا

الشّكل لتصفع كبرياءه، كما صفع كبرياءها دون توقّف بتلك المشرقيّة العجوز النّائمة التي يفضّلها عليها، ويرفضها مرّة تلو الأخرى لأجلها.

اعتذر الضّحّاك عن طرقه الباب في هذا الوقت المتأخّر، وعاد أدراجه إلى غرفة بهاء مصدوماً ممّا رأى، وصبّ لنفسه كأس ويسكي، وجلس في أريكة قريبة من النّافذة، وأخذ يشرب الويسكي على مهل غير مصدّق لما يرى؛ وزجر نفسه لما تشعر به من صدمة سخيفة؛ فمن الطّبيعيّ أن تدعو باربرا من تريد إلى حجرتها، فهي ليست قاصراً، وليست زوجته أو خطيبته أو حتى خليلته ليستنكر ذلك عليها، من حقّها أن تفعل ما تشاء وبصدق وعلانيّة ووضوح؛ فهي في بلاد الحريّة والاستقلاليّة والإشباع الجسديّ والنّفسيّ والماديّ، حيث لا يُقبل من أحد أن ينكر حقّ الآخر في التّمتع بحرّيته كاملة إن لم تنقص من حرّية غيره من البشر.

لا يعرف الضّحّاك أهو يشعر بالغيرة على باربرا أم أنّ نزعة الدّيك الشّرقيّ قد استيقظت فيه؟ فيريد أن يكون الذّكر الوحيد في قنّ الدّجاج الخاصّ به؟ في كلّ من الحالين هو يرفض أن ينتابه هذا الشّعور الدّيكيّ الأرعن؛ فهو لا يحبّ امرأة سوى بهاء، ولا يريد من نساء الأرض سوى رائحتها وصوتها المبحوح وسحرها الأحمر، بل إنّه في هذه اللّحظة يتمنّى لو استطاع أن يسلب الصّحة من باربرا، وأن يهبها إلى حبيبته، وليذهب ذلك الرّجل الذي رآه في حجرتها إلى الجحيم، أو ليعود إليه، وهو من أتى منه.

*****

ذلك الرّجل الذي رآه في حجرة باربرا هو ذلك اللاجئ المشرقيّ الذي جاء إلى المدينة ضمن دفعات كبيرة من اللاجئين الذين هربوا من المذابح الدّمويّة في بلادهم في الشّرق؛ إنّه أسمر بامتياز، ويحمل شرقيته في ملامحه

جميعها، أمّا ضخامة جسده التي تفوق ضخامة جسد باربرا ، فهي تقارب ضخامة الكثير من أصحاب العرق الآريّ.

لقد رآه أكثر من مرّة برفقة باربرا قبل أن تنتقل للعيش في بيته وفق طلبه لتعينه في رعاية بهاء وإدارة شؤون البيت فضلاً عن قيامها بإدارة شؤون مكتبه على أن يهبها راتباً إضافيّاً مجزياً لقاء ذلك.

لقد ظنّ أنّه مجرّد صديق لها تعرّفت عليه في عملها الجزئيّ في مؤسّسة رعاية اللاجئين والمنكوبين وضحايا النّزاع المسلّح في العالم، وما ظنّ أنّها قد غدت عشيقته التي تأخذه إلى سريرها، ولا تطيق فراقه، وتجلبه إلى بيته لتضاجعه على سرير هو مَنْ وهبه لها كي تنام عليه، لا كي تمارس متعها مع الرّجال عليه.

ذلك اللاجئ المشرقيّ بدا له منقاداً إلى عوالم الثّلج، لم يره ولا مرّة مع أيّ أحد من جلدته، حتى أنّه لم يحاول أن يكلّمه عندما التقى به صدفة في حفل خيريّ لجمع التّبرّعات للاجئين، وتعمّد أن يهجر اللّغة العربيّة، وأن يتحدّث بفتات اللّغة الجديدة التي بدأ يتعلّمها عبر الدّورات الإجباريّة لتعلّم اللّغة التي على كلّ لاجئ أن يلتحق بها على نفقة الدّولة المستضيفة ليحصل على تصريح إقامة مؤقّت وراتب إعانة شهريّ وبعض امتيازات تساعده على العيش الكريم في أقلّ درجاته في هذه البلد.

لم يسمع ذلك اللاجئ يتحدّث عن دياره أو أهله أو شعبه، كأنّه لا ينتمي إليهم، فقط رآه يرقص مع الكثير من النّساء الثّلجيّات اللّواتي حضرن إلى الحفل الخيريّ، ثم انهمك في عبّ الويسكي والفودكا والشّمبانيا المقدّمة مجاناً في الحفل، حتى أنّه لمحه يخفي زجاجة ويسكي صغيرة في الجيب الدّاخليّ لمعطفه.

إنّه وسيم وظريف، ويجيد الضّحك والرّقص ممّا يجعله جذّاباً للكثير من فتيات عالم الثّلج، وسمرته الظّريفة تزيده ملاحة، لكنّه ما تخيّل أنّه سوف ينساق مع باربرا في علاقة خاصّة على الرّغم من أنّها تبدو أكبر منه بعشر سنوات على الأقل أو يزيد.

عنده فضول حقيقيّ ليعرف ما سرّ هذه العلاقة التي تجمعه بها، لكنّه لن يسألها عن ذلك كي لا يعيرها اهتماماً أكبر ممّا تستحقّ، وهي مَنْ جرحت ذكورته المنتفجة عندما أحضرت عشيقها إلى بيته، وهي من تحدّثه دون انقطاع عن حبّها الكبير له، في حين تطعم نفسها لذلك الشّاب الأسمر الشّقيّ الذي يجيد أن يسرق ألباب النّساء في عوالم الثّلج.

*****

في الصّباح الباكر تعمّد –على غير عادته– أن يفطر في مطبخ البيت لا في غرفة بهاء كي يصدف باربرا على مائدة الإفطار مع عشيقها الأسمر، فيحرجهما بوجوده، لكنّه تأخّر في الوصول إلى المطبخ، فأدركها وهي تقف بملابس نومها القصيرة الشّفّافة على باب البيت، وتقبّل فاه مودّعة له، وعندما هبط أوّل درجة من درجات المنزل، أغلقت الباب خلف أسمرها المثير، ورمقت الضّحّاك بنظرة لا مبالاة، ثم ألقت عليه تحيّة الصّباح ببرود، ودلفت إلى المطبخ لتنظّف طاولته، وتغسل الأطباق والأكواب وأدوات الطّعام، فاندارت حول حوض الغسيل الرّخاميّ، وتركته يحملق في ظهرها، وفي خصلات شعرها الأشقر المنسدل على رقبتها وأعلى كتفيها دون أن تحدّثه بأيّ كلمة كانت.

وعندما سمعت صوت خطواته تبتعد عن المطبخ صعوداً لدرجات السّلم الداخليّ في البيت، أدركتْ أنّه ذهب ليرى بهاء على ما في نفسه من انزعاج

وامتعاض، وسرّها أن تحدس أنّه يشعر بغيرة ما، وهي من تحترق بغيرتها هذه ليل نهار دون أن يبالي بها.

*****

لا تعرف باربرا كيف تطوّرت علاقتها بذلك الأسمر الوسيم، لكنّها متأكّدة من أنّها كانت منساقة خلفه لأجل هدف واحد، وهو أن تقوده إلى سريرها في بيت الضّحّاك كي تحرق قلبه كما يحرق روحها، لا تستطيع أن تزعم أنّه سيموت غيرة ممّا سيرى، لكنّه لن يكون بمنأى عن ألم الإهمال والتّجاهل والانزعاج من الشّريك المنافس؛ فكثيراً ما يتعامل الضّحّاك معها على أنّها ملكه الشّخصيّ لا مجرّد سكرتيرته التي اعتاد على العمل معها طوال خمسة عشر عاماً على الرّغم من عنادها وصلفها وصعوبة التّوافق معها في كثير من الأمور، إلّا أنّها مخلصة له، وتحبّه من أعماق قلبها، وتتعامل معه على أنّه فارسها الفضيّ النّبيل.

لكنّه يفضّل عليها تلك الحمراء النّائمة المتآكلة يوماً بعد يوم؛ لذلك عليها أن تحرق قلبه بأسمر من شرقه المتداعي الذي يحبّه على الرّغم من زعمه أنّه يكرهه، فما معنى أن يلعن الشّرق وأهله، ثم يملأ بيته بروح الشّرق وتحفه وخطوطه وآلاته الموسيقيّة؟ وبعد ذلك يحضر تلك الشّرقيّة لتصبح سيدته، وهي مَنْ لا تقوى حتى على أن تتنفّس وحدها دون آلة تنفّس آليّ.

لقد جرحها طويلاً وكثيراً؛ لذلك عليها أن تكيده بهذا الأسمر الفتي الذي يفوقه جمالاً وسحراً وشباباً وفحولة، وإن كانتْ تعلم من أعماق نفسها أنّه من طينة أخرى غير طينة الضّحّاك؛ فهو ليس نبيلاً وكريماً وشهماً مثله، وليس أكثر من وسيم رعديد انتهازيّ يستغلّ النّساء اللّواتي يردن أن يذقن

سمرته بعد أن أتخمن من الشّـقرة البـاردة النّتنـة، ويـردن أن يجـرّبن السّـمرة الجائعة لعلّها تطفئ أوار شبقهنّ الذي لا يعرف ارتواء.

هو يزعم أنّه مفتون بشقرتها وبخبرتها الحياتيّة والجنسـيّة، لكنّهـا تعـرف أنّـه يحبّ الأموال التي تنفقها عليه، ولا يمانع في أن يضاجعها متى شـاءت مـا دام ذلك يبقي يدها مفتوحة يلتقط منها ما يشاء من نقود، كما أنّها تمتّعه بجسـدها الجائع مهما أكل؛ لذلك لم يجد في نفسه ما يمنع أن يزورها في بيت رئيسـها في العمل، ما دام سوف يخرج من عندها بحفنة من المال، وينـام في سـرير دافـئ وثير، ويأكل ألذ الطّعام، دون أن يسـألها عـن سـبب رغبتهـا في أن يلتقيـا في بيته، أو يتحرّج من قبول دعوتها هـذه للـدّخول في منتصـف اللّيـل في بيـت رجل لم يدعـه إلى بيتـه، ولا يعـرف عـن وجـوده فيـه، بـل هـو مـن الخسّـة والوقاحة بما يسمح لـه بـأن يأكـل علـى طاولتـه في الصّـباح، ويشـرب مـن الفودكا الخاصّة به، ثم يغادر بيته بعد أن أخذ حمامـاً دافئـاً في حمّامـه، وحلـق ذقنه بآلة حلاقته، وتعطّر بعطره الذي يخصّصه لتعطير ذقنه بعد حلاقته.

تشعر باربرا أنّها استطاعت فعلاً أن تنـتقم مـن الضّـحّاك بشـكل أو بـآخر بدليل صمته العميق، فهو لا يصمت بهذا الشّكل إلّا عنـدما يكـون منزعجـاً إلى حـدّ الانفجـار أو الاحـتراق، لكنّهـا لم تشـفِ غليـل نفسـها منـه؛ لأنّهـا ازدادتْ حزناً وضياعا بسبب فعلتهـا هـذه؛ فهـي عـادت بـالخواء المـؤلم مـن رحلتها مع جسد الأسمـر الوسـيم الـذي وجـدتْ نفسـها تبحـث فيـه عـن الضّحّاك، لكنّها لم تجد عنده إلّا اللّؤم والاستغلال على خلاف ذلك القاسـي الذي يتجاهلها، ويملك كرماً لا ينضـب، وحنانـاً لا ينتهـي، وشـهامة كافيـة لإسعاد عالمٍ من النّساء.

ليس في ذلك المستغلّ الذي نام البارحة في حضنها من تشابه مع مَنْ تحبّ سوى صوته الشّرقيّ الحزين، ونظراته الملتهبة الجميلة، وأنفاسه الباردة اللّذيذة، وذلك الشّيب الفضيّ الجميل الذي يغزو شعره على الرّغم من حداثة سنّه؛ لذلك فقد داعبت شعره طويلاً، كأنّها تداعب شعر الضّحّاك، وفاتها أن تسمع تفاصيل تلك القصص التي رواها لها عن ذلك الرّعب الذي عاشه في رحلة الهرب من مدينته حتى بلاد البرد، حيث شاب شعر رأسه وشاربه في الطّريق من هول ما عانى بعد أن فقد أمّه وأخته من شدّة البرد، في حين ترك والده جسداً متفحّماً تحت بيتهم المقصوف بقذيفة من إحدى الجهات المتحاربة في بلده، ولم ينجُ من الموت إلّا وقد خسر إنسانيته كاملة، وحقد على البشريّة جمعاء.

لم تهتمّ باربرا بما سمعت من فجائع حياة الوسيم، وتمنّت من قلبها لو يحدّثها عن كتاب ما يثير إعجابه، أو عن فكرة بحث علميّ برق في ذهنه كما كان يفعل الضّحّاك عندما يحضنها إلى صدره العاري، ويحدّثها عن عوالمه الفكريّة والأدبيّة والأكاديميّة بعد ممارسة جنسيّة ملتهبة.

لكنّها حاولت أن تدّعي الاهتمام العميق بما يحدّثها به، ورسمت حزناً إسمنتيّاً على وجهها كي تتظاهر بالاهتمام بمعاناته ومعاناة أبناء شعبه واحتراق أرضه وموت حضارته، وهي من تعلّمت أن تلبس حزناً مُكترى كلّما زارت مؤسّسات إغاثة اللاجئين للعمل فيها بشكل جزئيّ، لكنّها من أعماقها كانت تفكّر ببردّة فعل الضّحّاك عندما يكتشف أنّ هناك رجلاً يضاجعها على سرير في بيته.

النّسيان الثّاني والعشرون

النّساء الحمراوات

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"الرّجل الذي أعشقه هو أقاربي جميعهم"
"وجد وقتاً ليحدّثها عن كلّ شيء، لكنّه نسي أن يقول لها كم يعشقها"
"بعض الحمقى يعتقدون أنّهم يستطيعون استكمال الحبّ من حيث تركوه آخر مرّة"
"كلّما أحبطته الأرض هرب إلى السّماء"
"الأبناء هم كذبتنا الكبرى التي توهمنا بأنّنا سنعيش بعد موتنا"
"كلّ شيء فيه غدا رجلاً، إلّا قلبه فقد ظلّ طفلاً على شكل وجيب"
"الفنّ هو صوت الحرمان"

كان الضّحّاك نائماً على الأريكة في غرفة بهاء وفي حضنه المخطوطة التي قرأ لها فيها حتى غفا في مكانه على حين تعب وإرهاق ودوار، عندما استيقظ وجد باربرا تمشّط شعر بهاء بهدوء وهي شاخصة ذاوية الرّوح، لكنّها في حال أفضل مِنْ حال مَنْ تمشّطها، رأى في عينيها شفقة على بهاء، ورأفة بالحال الذي وصلتْ إليها بعد أن ذاب شحمها، ولم يبق منها سوى الجلد على العظم من شدّة النّحول الذي اعتراها، بعد أن تلاشى أكثر من نصف جسدها.

لم يرقْ للضّحّاك أن تتصدّق باربرا على حبيبته بشفقتها وبرثائها لحالها، وطلب منها أن تعطيه المشط ليقوم هو بنفسه بتمشيط شعرها، فوضعت المشط في يده دون مبالاة، واستدارت لتغادر الغرفة، فسبقها صوت الضّحّاك إلى الباب، وقال لها بصرامة وانزعاج وحدّة: لا أريد أن تستقبلي ذلك الشّاب الوقح في بيتي مرّة أخرى.

صمتتْ باربرا، ولم تنبس ببنت شفه، كأنّها لم تسمع كلمة ممّا قال، وهبطت درجات السّلم الدّاخليّ، وهي مبتسمة على غير عادتها، وهي من أيقنتْ أنّ ناراً ما قد اشتعلت بين أضلع رجلها الفضيّ النّبيل، فلسعتْ روحه، كما تلسع نيران الغيرة قلبها دون توقّف.

*****

هذه أوّل مرّة في حياتها تشعر بمشاعر الحزن والرّثاء تجاه بهاء التي تراها تتحوّل إلى مومياء كئيبة حمراء، لا إلى أميرة جميلة نائمة كما يصفها الضّحّاك، وهي من كرهتها دائماً وأبداً حتى قبل أن تراها، أو أن تقابلها، بل وحاولتْ أن تبعدها ما استطاعتْ عن درب من تحبّ، لكنّها لم تفلح في ذلك.

كان الضّحّاك قد حدّثها في الماضي عن حبيبته الجميلة الضّائعة منه ذات صراحة بعد مضاجعة مفرحة له، وقد ظنّتْ أنّه قد وجدها عندما أخبرها أنّ صديقة عربيّة من الشّرق سوف تزوره في مدينته، وأوكل لها مهمّة حجز تذكرة طيران لحضورها، وحجز غرفة مناسبة لها في فندق من فنادق المدينة في أقرب نقطة من بيته.

يومها اعتقدتْ باربرا أنّ المرأة التي ستزوره في المدينة هي حبيبته المجهولة؛ لذلك حرصتْ على أن تخطئ في ترتيب حجوزات تذاكر الطّيران كي تجد المرأة نفسها في مطار كبير دون تذكرة سفر داخليّة كي تنتقل إلى مدينة الضّحّاك، فتغضب، وتعود أدراجها، ولا يكون اللّقاء أبداً بين العاشقين المحرومين.

وقد نجحت باربرا في مكيدتها هذه التي اكتشفتها المرأة الضّيفة منذ وصلت إلى مطار بلدها، ولم تجد تذكرة داخليّة في انتظارها، فغضبت، وعادتْ أدراجها إلى بيتها، وقطعتْ علاقتها مع صديقها الدّاعي لها بعد جدال طويل

بينهما حول مشكلة الارتباك في حجوزات الطّيران الـذي رأت فيهـا عـدم احترام لها، وعدم جدّية في استقبالها، وخفي عليها أن تكتشف أنّ السّـكرتيرة الغيورة هي من دبّرت الأمور لتؤول إلى ما آلت إليه.

وهكذا استطاعتْ باربرا أن تمنع المرأة المشرقيّة من زيارة حبيبها المتجاهـل لها، لكنّها أدركتْ سريعاً أنّها أخطأت في التّعرّف على غريمتها عندما رأت لا مبالاة الضّحّاك بموضوع إلغاء زيارة صديقته له، وانصباب انزعاجه الحقيقـيّ على خسارة قيمة تذكرة الطّيران التي طلب منها أن تبتاعها لها، واهتمامه بأن يستردّ جزءاً من قيمة التذّكرة التي لم تُستخدم أكثر من اهتمامه بمعرفـة سـبب حدوث هذا اللّبس العجيب الذي أفسد علاقته مع صديقته التي قابلها لأكثـر من مرّة في منتديات ثقافيّة عالميّة.

وظلّت باربرا متحفّزة للتخلّص من حبيبته الضّائعة إن ظهـرتْ في حياتـه على حين غرّة، ولم تتوقّع أبداً أن يجدها مريضة في منتجـع اسـكندنافيّ بـارد، وأن يعود بها لتموت ببطء وهدوء في بيته، ويكتريها هي لتساعده في رعايتهـا إلى حين تستيقظ من موتها الطّويل كما يـزعم الضّـحّاك أنّهـا سـتفعل مهمـا طال بها الدّلال، وهربت في عوالم الغيبوبة.

*****

لطالما كانت باربرا إلى جانـب الضّـحّاك وفي دعمـه، لكنّـه لم يبـال يومـاً بحبّها، ولم يشعر به، ولم يرَ فيها سوى سكرتيرة نشيطة وعشـيقة متاحـة لـه في أيّ وقت شاء دون شروط أو التزام أو ارتباط، وهي مَنْ قبلتْ بهـذا الوضـع المزري كي لا تفقده إنّ ألحّتْ عليه لتصبح علاقتهما أكثـر جدّيـة، وهـي مـن تعرف حجم نفوره من العلاقات الجادة مـع النّسـاء بعـد أن فشـل في زيجاتـه الثّلاث، وفارقهنّ بطلاقات ثلاث أدمت روحـه، وبـدّدت ثروتـه، وجرحـت

كبرياءه، وحرمته من فرصة أن يكون له ابن أو ابنة يرثـان ثروتـه المتواضـعة، ويرثان ما في نفسه ووجدانـه مـن حـبّ للعلـم والعلمـاء والأدب والأدبـاء، ويغدق عليهما بحنان قلبه المتشوّق لأفعال الأبوّة وعطائها، وهو المخلوق مـن الحنان والعطاء، والقادر على وهب حنانه الفيّاض حتى لقطط الجيـران الـتي تهرب إلى بيته طلباً لتدليله لها الذي لا يستطع أحد أن يجاريه فيه.

هي أيضاً أخذت نصيبها من حنانه، لكنّه النّصيب المُتصدّق به، لا المنشـود من الحبّ وعطائه، فقد تعرّفت عليه، وهي حديثة الطّلاق من زوجهـا الـذي كان رفيقها ومساكنها لسنوات طويلة، كان الطّـلاق منـه مؤلمـاً لهـا، وكبّـدها خسائر كبيرة، فوجدت عند الضّحّاك العمل والعـون والـدّعم والمسـاعدة إلى حين تجاوزت محنتها، واستطاعت أن تبني حياتها مـن جديـد بعـد أن تركـت حياتها المحطّمة السّابقة في مدينتها مسـقط رأسـها الـتي هجرتهـا لتهـرب مـن شبح الفشل والانفصال والوحدة.

لقد ساعدها بكلّ شهامة ومحبّة ونبل، وداينها الكثير من المال لـتكتري شـقّة به، ورفض أن يستردّ المال منهـا عنـدما أرادت أن تـردّه إليـه، وأهـداها أثاثـاً أنيقاً لشقتها عندما عرف بحاجتها لذلك، وعجزها عن تأمينه.

لقد كان معينها الحنون، وراعيها الوحيد والأوحد؛ لذلك أحبّته من عميـق قلبها بصدق وإخلاص، في حـين لم يصـل حبّهـا إلى وجدانـه، وظـلّ حبيسـاً خارج اهتمامه المصوب على امرأة واحدة لا غير اسمها بهاء.

*****

عنـدما رأت بهـاء لأوّل مـرّة في حياتهـا عرفـتْ سـرّ افتتـان الضّـحّاك بالحمراوات حتى أنّه تزوّج ثلاثاً منهنّ لمن تكن أيّ مـنهنّ تملـك أيّ خاصـيّة أو مزيّة سوى أنّها حمـراء، وبخـلاف ذلـك لم يكـنّ سـوى زوجـات بـاردات

يحتججن على نمط الضّحّاك في الإنفاق الباذخ على الضّيوف وعلى استقباله لأصدقائه والإنفاق عليهم بسخاء، ويردن أن يعكف نفسه على الإنفاق عليهنّ، وعلى تدليلهنّ والالتصاق بهنّ، وهو المولّع بالإحسان إلى الأصدقاء، وإكرام الضّيوف، والسّفر والتّجوال في أصقاع الأرض ليتعرّف عليها من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين على حدّ تعبيره.

لقد بدأ سيرة أسفاره جوّاباً في أقدام الحضارات، فزار المواخير ودور الدّعارة وأماكن اللّهو والملذّات وطاولات القمار، وذاق مآقي هذه الأماكن، وعرف أفراحها العابرة، ثم انتقل جوّاباً في رأس الحضارات حيث العلم والعلماء والأدب والأدباء والفنون والمسارح والمكتبات والجامعات والمختبرات ومدن الصّناعة والثّقافة والابتكار، فعرف نشوة المعرفة، ثم علق في وسط الحضارة حيث الدّهماء والجماهير والبشر الباحثين عن لقمة العيش وتفاصيل الحياة، وهناك تعلّم الفلسفة، وجرّب إنسانيته مرّة تلو الأخرى.

لكن كلّ ما حصّله من تجارب لم يشفع له عند زوجاته الحمراوات، فانفصلن عنه الواحدة تلو الأخرى، ففارقهنّ سعيداً بالابتعاد عنهّن على الرّغم من أنّهنّ قد استحوذن على معظم ما يملك من ثروة، وظلّ ينتظر حمراءه كي تهبه الحبّ والسّعادة وطفلاً يحمل ملامحهما وإرثهما، ويجسّد أحلامهما، ويهبهما امتداداً جديداً في حياة لئيمة لا تُعطي من يسألها، ولا ترحم من يسترحمها.

*****

"أشهدُ أنّني قد عشتُ" هي الجملة التي كان يردّدها الضّحّاك، وهو يشرب كأسه بارتخاء بعد أن أكل قطعة كبيرة من الفطيرة التي أعدّها لصديقيه

اللّذين دعاهما لتناول طعام العشاء في بيته، كان يقهقه أكثر فأكثر كلّما كـرّر جملته الشّهيرة، ويجاريه صـديقاه بالضّـحك والشّـرب أُنسـاً بصـحبته الدّمثة المحبّبة إلى نفسيهما، في حين تحدّق باربرا في وجهه عبر زجـاج كأسـها، وهـي تعلم علم اليقين أنّه يعيش في أتعس مراحل حياته، وأنّه الآن ليس أكثـر مـن عاشق محزون خائب الأمل قد أعياه الانتظار، وبدأ اليأس يـدبّ في وجدانـه، فيهرب منه إلى الضّحك والحديث والشّرب وطهو الطّعام وإعـداد الحلويّـات الشّرقيّة اللّذيذة.

*****

رفض الضّحّاك أن يغادر صديقاه بيته في منتصف اللّيـل، وصـمّم علـى أن يبيتا ليلتهما عنده، وطلب منهما أن ينتقلا معه إلى غرفة بهاء ليشركوها بهـذه السّهرة النّادرة، فتأنس بوجودهم معها، وتسمع حـديثهما، حتـى وإن كانـت لا تستطيع الحديث، أو المشاركة في الحوار.

ساروا جميعاً إلى غرفتها، وسهروا هنـاك في حضـرتها حتـى الصّـباح وهـي ممدّدة بالقرب منهم في سريرها، وهم يتحدّثون عن بائد أزمانهم في أوطـانهم المتلاشية، تكلّموا طويلاً عـن طفولتهمـا السّعيدة في أحضـان أسـرتيهما، في حين ظلّ الضّحّاك صامتاً، لا يعقّب على مـا يقـولان؛ فهـو لا يملـك ذكـرى طفولة سعيدة واحدة يحدّثهما عنهما سوى حبّـه لـبهاء الـتي ينظـر تباعـاً في وجهها الذي يخال أنّ دموعاً تجري على وجنتيه، وهـي تتـذكّر الآن طفولتهـا العذاب.

لطالما تمنّى الضّحّاك أن تكـون لـه أم تـزوره في منفـاه البـارد، فتحضـر لـه حلوى صنعتها لـه بيـديها الحنـونتين، وتمـلأ بيتـه صـلاة وخشـوعاً وتعبّـداً، وتراقب التزامه بالصّلاة على أوقاتها، وتعيد ترتيب بيته على ذوقها، وتصـنع

له المخلّل والمربّى، وتعلّم صغاره الصّلاة والصّوم، وتحجّب ابنته الصّغيرة، وتزرع بضع شتلات صغيرة في حديقة بيته، وتخيط ملابسه الممزّقة، وتوقظه لصلاة الفجر، وتترك له عند سفرها مصحفاً على سريره، وسجادة صلاة جميلة مزركشة أحضرتها معها من الحجّ أو من العمرة. لطالما تمنّى الحصول على هذه التّفاصيل الصّغيرة الحنونة التي تملأ أعماق الإنسان بالحبّ والعطف والدّفء.

لطالما غبط أصدقاءه الأربعة على هذه التّفاصيل الصّغيرة التي يعيشونها عندما تزورهم أمهاتهم، في حين يعيش هو متسولاً للحبّ من أمهات أصدقائه حتى يغادرن المدينة، ويرجعن إلى ديارهنّ، ويتركن الهدايا والتّفاصيل الصّغيرة لأبنائهنّ، ويتركن له الأسى والشّعور العميق باليتم والحرمان من حنان الأم الذي لا يعوّضه أيّ حنان في الدّنيا.

*****

لم يتذكّر الضّحّاك في تلك اللّيلة أيّ شيء من ذكريات طفولته سوى وجه حبيبته الذي كان يضجّ حيوية وبراءة وجمالاً، فغنّى لها الكثير من الأغاني الشّعبيّة التي كان يغنّيها لها في طفولتهما، وغنّى صديقاه معه، حتى غلبهم الوجد جميعاً، وأصابهم غمّ عظيم، وشربوا حتى سكروا وبكوا، في حين ظلّت باربرا تتأمّلهم دون أن تدري ما يقولون بالعربيّة خلا بعض الكلمات القليلة التي قالوها بلغتها، ثم ابتعدتْ عنهم، وجلست على أريكة بالقرب من النّافذة، وأخذت تنتظر بزوغ الشّمس لتسبح فجراً في ماء النّهر عارية، فتخلع أحزانها هناك بسريّة وصمت دون أن يرى الضّحّاك دموع عشقها له.

حاول الضّحّاك أن يخترع بعض الأكاذيب السّعيدة عن طفولته وطفولة بهاء، وأن يروي لهم تفاصيل قصّة عشق مرّصعة بالأحداث المفرحة، لكنّه

عجز عن ذلك عندما انثالتْ عليه ذكريات حزينة لا قِبَل له بمقارعتها في هذا المساء الذي يشعر فيه بضعف كبير وحزن يأكل قلبه دون رحمة.

*****

في الصّباح عندما استيقظ الضّحّاك من نومه وسكره، كان صديقاه ما يزالان نائمين في مكانهما على الأرائك الوثيرة حيث كانا جالسين في اللّيلة الماضية، حتى باربرا كانت تغطّ في نومها متكوّرة عل نفسها في أريكة بالقرب من النّافذة، وكانت بهاء ما تزال غارقة في سباتها مثل حمامة أسطوريّة حمراء ساقطة في حضن غيمة بيضاء، وهناك حمرة شديدة في وجهها تشبه تلك الحمرة التي تعلوها عندما تبكي بحرقة، أو تضحك باستغراق.

طبع قبلة سخينة مديدة على جبينها الوضيء على الرّغم من شحوبها الشّديد، ومن ثم طبع قبلة أخرى على شفتيها الرّقيقتين، وهمس لها: أحبّكِ اليوم أكثر.

فتح المخطوطة الموجودة بالقرب من رأسها حيث توقّف في القراءة فيها في آخر مرّة، وبدأ يقرأ فيها على حبيبته إلى حين يستيقظ أصدقاؤه من نومهم، ويذهبون جميعاً إلى المطبخ لتناول طعام الإفطار.

النّسيان الثّالث والعشرون

باربرا

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"سأخترع أبجديّة خاصّة بي لأقول لكَ أحبّكَ"
"هو يعرف الله أكثر منّي؛ لذلك يبتسم كثيراً"
"قصص الجبناء جميعها تنتهي بجملة واحدة لا غير: كانت الظّروف أقوى من الحبّ"
"لماذا لا تخبرنا قصص الحبّ بما يحدث مع المحبّين بعد اللّقاء؟"
"الحبّ عند المرأة قضيّة وجود"
"اكتبني كي لا أموت"
"هو يستطيع بجزم أن يضع الحبّ في آخر جداوله، ثمّ يطلب منه أن ينتظره"

مضى أكثر من عام ونصف و الضّحّاك ما يزال يتعبّد في محراب غرفة بهاء في انتظار أن تستيقظ، لا شيء يدلّ على أنّها سوف تغادر هذا النّوم الأبديّ، إلّا أنّ المتعبّد في هيكل عشقها المتنسّك في تَيْم وجودها ما يزال يرعاها نهاراً، وينام على الأريكة بالقرب منها ليلاً، ويقطّع أوقاته في القراءة لها في مخطوطتها، أو في الكتابة في روايتهما التي يريد أن ينجزها قبل أن تستيقظ، لتكون هديته الأولى لها في عالم اليقظة عندما ترتدّ إليه من ذهولها في عوالم الغيبوبة.

باربرا تراقب هذا الموات العجيب بنخز مستمرّ في روحها وعشقها لذلك الذي لا يرى في دنياه سوى تلك المشرقيّة الحمراء المتآكلة يوماً تلو يوم، وتتمنّى من أعماق قلبها لو كانت الآن هي مَنْ تهيم في دنيا العدم، وتتنفّس بآلة تنفّس صناعيّة، وترقد على ذلك السّرير عاجزة عن الحياة كي تحظى باهتمام الضّحّاك وحبّه، كما تحظى بهاء به؛ فلطالما حلمتْ بأن تحوز حبّاً عظيماً يمكن أن يتعاظم إلى هذا الحدّ المهول المفجّع.

قبل أن تكون شاهدة عيان على ما يحدث في هذه الغرفة من وفاء للحبّ ما كانت تعتقد بأنّ العشق يمكن أن يتمدّد في الرّوح والوجود بهذا العنف والاستحواذ، وهي مَنْ كانت تعتقد أنّه ليس أكثر من رفقة سعيدة، ومضاجعات مثيرة مشبعة، لكنّها الآن تعرف عنه أكثر ممّا يعرف عنه الكثير من البشر.

ليس ما تراه من حبّ بين هذين المشرقيين العجيبين هو درسها الوحيد في المحبّة، فهناك دروس أخرى تعلّمتها في مدرسة العشق، وتشبّعتْ بها، حتى شكّلت وجدانها، فحبّها للضّحّاك قد علّمها الكثير من ترانيم الهوى، لقد جعلها هذا العشق تتعاظم على ألمها وفجيعتها وحزنها، وتقرّر أن تكون إلى جانبه، وفي دعمه، حتى ولو اقتضى ذلك أن تتحمّل عذاب مراقبتها له، وهو يذوب ولهاً في انتظار امرأة عجوز لم يبقَ منها إلّا كومة عظام ولحم.

قد يعتقد هذا المشرقيّ الأحمق أنّها هنا لأجل المال، ولأجل الرّاتب الإضافيّ الذي يصرفه لها كلّ شهر نظير إقامتها في بيته، ومساعدتها له في كلّ شؤون حياته، لكن الحقيقة البلجاء هي أنّها هنا لأجل أن تكون في أقرب نقطة منه مهما كلّفها ذلك من ألم ووجع ومعاناة، فهي لا تطيق البعاد عنه، وستظلّ إلى جانبه حتى آخر لحظة من حياتها، لا طمعاً في ماله ووسامته وشهرته وكرمه كما يعتقد، ويعتقد أصدقاؤه المولعون بالأدب والفنون والخرافات والحكايات البالية، بل لأنّها تحبّه كثيراً، ولا تعرف من لغة الحبّ إلّا البقاء إلى جانبه، ودعمه، والإخلاص له، وانتظاره بصبر وحكمة حتى يتجاوز محنته مع تلك النّائمة دون يقظة، ويسلّم بموتها، ويطوي صفحتها، وينتهي الأمر.

كثيراً ما يصفها الضّحّاك ببرود المشاعر وفتور ردود الأفعال، وهـي تعلـم أنّ في وصفه هذا، تجريح لها بقبح البلادة وخمول التّدّفق في الأحاسـيس؛ فهـو في حقيقة الأمر يجهل مقدار الجهد الذي تبذله لتكون في مثل هـذا التّماسـك، وهي تحترق من الدّاخل، وتعجز عـن أن ترتمـي في حضـنه باكيـة، وصـارخة بجملة واحدة لا غير: أنا أحبّكَ. أرجوكَ أبتعد عن هذه المـرأة المغيّبـة، ودعنـا نعيش المقبل من حياتنا في عشق لا ينقضي.

لكنّها تخشى من ردّة فعله، وتحاذر من أيّ سلوك تدفعـه إلى أن يقـوم بـه، فيجرحها أكثر، ويدميها في مقتل، وهـي مـن تعـضّ علـى جراحهـا بحزنهـا، وتربط على نزيفها بصبرها وأملها بأن يشعر بها، وبحبّها العظيم لـه؛ فالحـبّ ليس عملة رائجة في الشّرق فقط، ففي بلدها الثّلجيّ هنـاك حكايـات عشـق خالدة، وقلبها البارد كما يصفه دائماً يحمل عشقاً فياضاً، يجعلها قـادرة علـى أن تشفق على بهاء، وأن تساعد في رعايتهـا علـى الـرّغم مـن أنّهـا غريمتهـا الأزليّة، لكنّها لا تملك إلّا أن ترأف بامرأة معذّبة ستينيّة في مثل عمر أمّها.

*****

عندما كانت باربرا صغيرة لم يكن هناك أحد يعنيه أن يسمع كلامها حـول مشاعرها أو أحاسيسها، على الرّغم من أنّها كانت تملـك والـدين ووالـدتين وأكثر؛ فعندما تطلّق والداها في عامهـا التّاسـع، سـكن كـلّ منهمـا في مدينـة بعيدة عن مدينـة الآخـر، واتّفقـا علـى أن تكـون ابنتهمـا الوحيـدة مناصـفة بينهما، فتأخذها الأم في أيّام الدّوام المدرسـيّة، فتعـيش معهـا في بيتهـا حيـث عشيقها الذي تزوجها فيما بعد، وفي أيّام العطل المدرسـيّة والعطلـة السّـنويّة يأخذها والدها، وتعيش معه في بيته حيـث تتـوالى عليـه العشـيقات الواحـدة تلو الأخرى، إلى أن استقرّ به الحال في مساكنة دائمة مع إحدى صديقاته التي

لا يزعجها أن يخونها مع النّساء من وقت إلى آخر، أو أن يتطوّح في البيت سكرانَ أو مخدوراً.

وفي الأحوال جميعها كان حولها أكثر من أمّ وأكثر من أبّ، ولا أحد منهم يجد في نفسه الرّغبة كي يسمعها، أو يحدّثها عن مشاعرها وعوالمها الدّاخليّة، إلى أن آل بها الحال إلى التّوحّد مع ذاتها، والتّقوقع عليها، والانسحاب نحو عوالمها الدّاخليّة السّحيقة، فغدتْ فتاة صامتة باردة المشاعر، قليلة الاستجابة العاطفيّة لمن حولها، ولا يزعجها أن يُطلق عليها وصف بليدة المشاعر والأحاسيس.

كادتْ تفارق هذا الطّبع عندما قابلتْ حبيبها الذي سرعان ما تزوّجته، لكن الفقد تجذّر في أعماقها من جديد، عندما اضطربتْ علاقتهما، وآلتْ إلى الانفصال المفزع، فشعرت من جديد بوحدة كاملة، وبحاجة إلى البكاء، لكن لا أحد يرغب في أن تبكي في حضنه، أو أن يمسح دموعها، سوى الضّحّاك الذي تعرّفت عليه بالصّدفة عندما بحثت عن عمل إداريّ في الجامعة التي يدرّس فيها، فعرض عليها أن تعمل سكرتيرة خاصّة له على أن يعطيها راتباً يماثل راتب الجامعة مع امتيازاته، فوافقتْ على ذلك، ودخلتْ في حياته بهدوء وسلاسة، إلّا أنّه دخل في حياتها بصخب فرح بقوس قزح، وانتزعها من وحدتها، وساعدها، وكان لها كلّ شيء في الحياة.

هي تعرف أنّه لم يسعَ إليها عاشقاً، وأنّ طبعه الحنون هو من غلب عليه في تعامله معها، وهو من يحبّ مساعدة النّاس، وينفق عليهم بكرم، ويشعر أنّ كلاً منهم هو مسؤوليته الخاصّة التي لا يمكن أن يتخلّى عنها، لكنّها على الرّغم من ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من عشقه، ولم تسعَ إلى وضع حدّ

لفوضى علاقتها به التي تشعّبتْ حتى وصلتْ بها إلى جسده وسريره، إلّا أنّها لم تصل إلى قلبه ومشاعره وأحاسيسه.

*****

عندما حدّثت ذلك الشّاعر الشهير عن مشاعرها الفيّاضة تجاه الضّحّاك بوصفه أحد صديقين مقرّبين إليه حتى نخاعه، ربتَ على كتفها متعاطفاً معها، وطلب منها أن تصبر، وأن تتماسك، لعلّ الأقدار تتدخّل لعونها، ولوضع حدّ للمأساة التي يعيشها كلّ من يسكن في هذا البيت الذي فيه ثلاثة أشخاص يدورون في حلقة حبّ مفرغة تعذّب كلّ من يدور في فلكها.

وقرأ عليها شعراً مترجماً عن شعر عربيّ يحفظه، وشرح لها مضمونه الذي يفيد بأنّ البشر –في غالب– الأحيان يكابدون ما تكابد من إجهاد الدّوران في أفلاك الحبّ حيث الصّداع والدّوخة والألم وانعدام التّوازن، واختلاط المشاعر، ثم مدّ يده نحو وجهها، ومسح الدّموع الكسيرة التي تطفرُ من عينيها على استحياء وحرقة، وردّد باللّغة العربيّة الأشعار التي قرأها عليها مترجمة:

عُلّقْتُهَا عَرَضاً، وَعُلِّقَتْ رَجُلاً
غَيرِي، وَعُلِّقَ أُخرَى غَيرَهَا الرّجُلُ
وَعُلِّقَتْهُ فَتَاةٌ مَا يُحَاوِلُهَا
من أهلها مَيّتٌ يهذي بِهَا وَهِلُ
وَعُلِّقَتْنِي أُخَيْرَى مَا تُلائِمُنِي
فَاجتَمَعَ الحُبّ حُبّ كُلُّهُ تَبِلُ،
وَمَحْبُولٌ وَمُحْتَبِلُ

*****

في الماضي حاولتْ أن تتقرّب أكثر من عوالم الضّحّاك، فاشترت ثوباً مشرقيّاً جميلاً، والتحقتْ بدورة لتعلّم اللّغة العربيّة كي تتحدّث معه بلغته؛ لعلّها تقترب منه أكثر، فتعلّمتْ أن تقول كلمة "أحبّك" بالعربيّة، لكن ذلك لم يرقْ للضّحّاك، وطلب منها أن لا تلبس الثّوب المشرقيّ أمامه، وأنْ لا تحدّثه بالعربيّة، وأن تتحدّث معه بلغة عوالم الثّلج التي يحبّها.

لكنّها اليوم تريد أن تجرّب طريقة أخرى للاقتراب منه؛ لعلّها تظفر بقلبه بعد طول تمنّع وجفاء، ولأنّه يحبّ النّساء الحمراوات، فقد قرّرتْ أن تصبغ شعرها الأشقر باللّون الأحمر، وأن تضع في عينيها عدستين بلون أخضر حشائشيّ، وأن تسرّح شعرها ليبدو بمثل هيئة شعر بهاء، وأن تقول له بملء فيها "أحبّك" باللّغة العربيّة.

إن كانْ الضّحّاك يحبّ الحمراوات، فتستطيع أن تكون حمراء لا شقراء من أجله، وتستطيع كذلك أن تتعلّم لغته لأجل أن تهمس له بها، وتستطيع أن تحبس نفسها في بيته إلى الأبد دون خروج أو زيارات، ما دام الاعتكاف الطّويل في هذا المنزل يروق له، وينشّط العشق في أوصاله، ويدعوه إلى أن يكون إلى جانب تلك المرأة الهاربة منه نحو العدم.

أمّا الكتابة الإبداعيّة التي يحبّها، ويروق له أنّ حبيبته تتقنها، ويقتل الباقي من عمره في قراءة ما كتبتْ له، فلن تستطيع أن تحترفها كي تنال اهتمامه وإعجابه، فهي لم تُخلق لتكون روائيّة أو قاصّة أو مبدعة في أيّ حقل من حقول الكتابة، إلّا أنّها تتحرّق من أعماقها لمعرفة ما كتبتْ تلك الحمراء في مخطوطتها المكتوبة بالعربيّة، وما سبب إصرار الضّحّاك على أن يكتب رواية باسمه واسمها؟

لقد قرأتْ كلّ فصل أنجزه الضّحّاك في رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" التي يكتب فيها بشكل يوميّ، وقد راق لها ما ألفتْ فيها من تفاصيل جميلة، ولغة جذّابة، وأحداث آسرة مصنوعة بحبكة سرديّة ذكيّة ومبتكرة، وإنْ ساءها أن تقرأ فيها نبوءة عودة غريمتها إلى الحياة، وانفكاكها من الموت والصّمت والعجز.

لكن الفضول يحرّضها كثيراً لتعرف ما هو مكتوب في مخطوطة بهاء، ولماذا قام الضّحّاك بتمزيق صفحات منها، وألقى بها في نار المدفئة؟ وماذا كان فيها من أسرار خطيرة أراد أن يقتلها؟

ليتها تجيد العربيّة لتستطيع أن تقرأ ما هو مكتوب في تلك المخطوطة، وتعرف ما علاقتها بمرض بهاء، وما فيها من أسرار يمكن أن تبعث الحياة فيها من جديد إنْ استمرّ الضّحّاك في قراءة ما هو مكتوب فيها.

*****

لن يستمرّ صمت باربرا؛ لذلك قرّرتْ أن تقوم بخطوات حقيقيّة في حربها لأجل قلبها وحبّها مادامت غريمتها أضعف من أن تدافع عن نفسها، أو أن تشنّ حرباً عليها، فرتّبت الأمر بسريّة وحذر واهتمام لأجل أن تقنع صديقيْ الضّحّاك بأنّ من الواجب عرض حالة بهاء على لجنة طبيّة عليا متخصّصة للبتّ في حالتها، وقد استطاعت أن تضغط على الضّحّاك بمساعدة صديقيه المخلصين لإقناعه بذلك، فنزل عند رغبتهم مكرهاً مُخَجّلاً، وقد كانت النّتيجة النّهائيّة للجنة أنّ بهاء في حكم الميتة، ولا أمل في أن تستيقظ، ومن الواجب فصل أجهزة الإنعاش والتّغذية والتّنفس عنها لتمضي في درب الموت، وترتاح من عذابها.

لكنّ الضّحّاك رفض أن يقبل بتقرير هذه اللّجنة المتخصّصة، وطالبها بأن تغادر بيته دون أن يجرؤ أيّ من أعضائها على إضافة أيّ كلمة أخرى، فخرجوا من بيته ناكسي الرّؤوس، في حين صمت الصّديقان، ومن ثمّ تشاغل أحدهما بإشعال الغليون الخاصّ به، وجلس الآخر على الأريكة محدّقاً في البعيد.

اقتربتْ باربرا بحذر من الضّحّاك، ونظرتْ في عينيه باستعطاف، وحاولتْ أن تمسك بيده لتواسيه، لكنّه أبعد يده عنها، وواراها خلف ظهره، ونظر إليها بغضب وحنق، وقال لها بصوت مرتعش منفعل: بهاء لن تموت، وأنتِ لن تصبحي بهائي حتى ولو صبغتِ شعركِ باللّون الأحمر، أو أخفيتِ لون عينيكِ خلف عدستين خضراوين. هيا اغربي عن وجهي. لا أريد أن أراكِ في هذا البيت.

*****

وقف الضّحّاك على الدّرجة الأخيرة من درجات سلّم البيت، وحدّق في باربرا، وهي تحمل حقيبتها، وتسير بانكسار نحو باب البيت، توقّفت بالقرب من الطّاولة الزّجاجيّة، ووضعتْ مفتاحاً على سطحها، ثم قالتْ بصوت حزين كسير وهي تشرق بدموعها دون أن تلتفت نحوه: هذا هو مفتاح بيتكَ. لن أحتاج إليه بعد الآن.

تنفّست الصّعداء، وخطت خطوتين نحو الباب، فطار الضّحّاك نحوها، وضمّها إليه من ناحية ظهرها، وشدّها إلى جسده، وهمس في أذنها بتضرّع: أرجوكِ لا تغادري البيت، لا تتركيني وحيداً مع أحزاني. أحتاجكَ إلى جانبي. سامحيني على كلّ ما قلته لكِ من كلام قاسٍ.

كان الصّديق الشّاعر يراقب من أعلى درجات السّلم ما يـدور في الطّـابق السّفليّ بين الضّحّاك وباربرا، وينقل تفاصيله إلى صديقه الذي يقف بـالقرب منه، ولا يستطيع أن يتبيّن ما يحدث، ثم أنشد معلّقاً على ما يحدث:

أنا قاضي العشق والعشق قاتلي وقاضي قضاة العشق قاتله الهوى

فردّ صديقه عليه قائلاً، وهو ينفث الدّخان من فمه بعد أن أخذ نفساً عميقـاً من غليونه:

فزعـتُ إلى الـدّموع فلـم تجـبني وفقـد الـدّمع عنـد الحـزن داءُ

ومـا قصـرتُ في جـزع، ولكـن إذا غلـب الأسـى ذهـب البكـاءُ

النّسيان الرّابع والعشرون
تَيْمُ الله الجزيريّ

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"لا تعاويذ جالبة للحبّ، هو يأتي وفق مزاجه الخاصّ"
"يخوّفونا من الحبّ، لكن لا أحد يخوّفنا من الكره"
"الحبّ هو الدّيانة الأهم في تاريخ البشريّة"
"إنّه فيلسوف في الحياة، لكنّه غاب عن معظم دروس العشق"
"القلب عندما يعشق يصبح قدّيساً منبوذاً متشرّداً"
"الأشياء جميعها لها طعم مختلف في طبق الحبّ"
"اليوم أيضاً أحبّكَ كثيراً"

كتبت العاشقة: لم يكرم السّرطان عليّ كما تخيّلتُ، واشتدّ تنكيله بي حتى أصبح الألم لا يُطاق، ولا يمكن التّعامل معه بمنطق الزّهد والتّصوّف والقصّ وسرد القصص، وبات من المتعذّر علي أن ألمس ثديي أو بطني دون أن أنوح كثكلى من شدّة الألم، وبات القيح والنّزيف صديقيّ الجديدين؛ فالقيح يتفجّر من حلمتي صدري، والدّم والصّديد ينزلقان من رحمي في طوفان مستمرّ يصفّي دمائي، ويدوّخني، ويفقدني اتّزاني، ويهدّ حيلي، ويجعل مغادرتي لسريري حتى ولو لقضاء حاجة مغامرة كبرى غير مأمونة النّتائج.

قرّرتُ أن أعامل السّرطان بمنطق السّادة الحّكام في دول السّقوط والانهيار، وأنا خبيرة بأولئك السّادة أرباب الخيانة والتّآمر؛ ولذلك قرّرتُ أن أتآمر على مرض السّرطان، وأن أنقض اتّفاقيتي معه حول السّرد وتسليته به، وأن

أطير إلى بلاد فيها تقدّم طبيّ كبير في معالجة السّرطان؛ ليكون أطبّاؤه حلفائي في حربي مع هذا المرض الشّرس المتوحّش.

لم يلزمني الكثير من التّفكير كي أصل إلى هذه الخطّة الدّفاعيّة الجديدة عبر تغيير الحلفاء والاستراتيجيّات والأولويّات وأسلحة الهجوم؛ فأنا تلميذة نجيبة تحسن توظيف ما تعيشه في عوالم الخراب ومدن الموت كي تقتنص لها فرصة هزيلة للحياة والاستمرار.

الآن أشعر أنّني متّسقة مع كلّ ما حولي وداخلي؛ فأنا نخرة ومتعبة وخائنة ومهزومة، مثل كلّ ما حولي من أوطان ورموز وتاريخ ومآلات وبشر وأزمان. والسّرطان صديقي الخائن مثلنا جميعاً مهزوم مهما زعم أنّه منتصر مسيطر.

*****

كتبت العاشقة: أنا الآن امرأة وحيدة في نهاية العقد الرّابع من عمرها في معركة مع الفقر والسّرطان والتّيه، أنا امرأة محكوم عليها بالموت حزناً وجزعاً، لكنّني حسمتُ أمري، وقرّرتُ أن أدافع عن أنوثتي المُهاجمة، وأن أسافر إلى تلك المدينة البعيدة كي أتلقّى العلاج في ذلك المستشفى الشّهير عالميّاً في علاج الحالات المتقدّمة في سرطان الثّدي والرّحم.

لقد هربتُ من مدينتي خوفاً من استئصال ثديي، واخترتُ العلاج في هذه المدينة الشّهيرة تاريخيّاً وجماليّاً بعد أن عرفتُ أنّ عندهم علاجاً ناجعاً لحالات السّرطان المشابهة لحالتي دون استئصال ثديي ورحمي، وحرماني من رموز أنوثتي التي تنتظر الضّحّاك بشهوة كاملة؛ فأنا لا أزال أحلم بطفل منه.

لقد حصلتُ على هذه الفرصّة العلاجيّة النّادرة عبر صديقتي الأديبة السّارقة المزوّرة التي طبّقت الآفاق شهرة برواياتها وقصصها ونصوصها، وهي لم تكتب حرفاً واحداً ممّا نشرتْ من إبداعات اشترتها منّي بزهيد المال. وقد سرقتْ لي منحة العلاج هذه من امرأة أخرى منكودة أفقر منّي، وليس عندها ما تقدّمه لتلك السّارقة كي تقنعها برحمتها. وقد قبلتُ هذه المنحة المسروقة من امرأة طحنها الفقر والمرض انتصاراً لنفسي، وانحيازاً إلى منطق اللّصوص الذي يسود كلّ شيء حولي؛ فلا فائدة لنزاهتي المتأخّرة في عالم الأوغاد اللّصوص الذين سرقوا كل شيء بما في ذلك الأوطان المسكينة والأقوات المنشودة.

فلا عجب أن أسرق منحة علاجي من امرأة أخرى فقيرة منكودة، مادامت البدائل أمامي معدومة، والدّرب الوحيد المتاح أمام الجميع هو السّرقة والحرابة، وليس أمامي للعلاج والهروب من الألم سوى سرقتهما من غيري من البشر، حتى ولو كان يعني ذلك أن تموت تلك المرأة الفقيرة المريضة، وأظفر أنا بالحياة والصّحة.

إلّا أنّني أريد أن أحارب مرض السّرطان بعيداً عن عالمي الموبوء المتهاوي الذي أشتمّ رائحة العفن في كلّ مكان فيه، وأراه يتصدّع من الأساس حتى السّقف إيذاناً بقرب سقوطه.

*****

كتبت العاشقة: أنذرُ نفسي منذ هذه اللّحظة لأجل كتابة باقي مخطوطة روايتي، ولا أدري إن كان الموت سوف يمهلني حتى أنتهي منها بعد أن بدأتْ أتلقّى طوعاً عذابات جرعات العلاج الكيميائيّ بطريقة خاصّة ابتكرها أطبّاء هذا المستشفى الغرائبيّ الذين يؤمنون بالعلم، ويطبّقون أحدث طرائقه

واكتشافاته، ثـم يسـجدون لتمثـال مسـخ منصـوب علـى بوابـة المستشـفى، ويطلبون البركات منه.

أشعر بقلق ودوار عبثيّ ملازم يرنّحني في خضـمّ محـاولتي الجـادّة في الثّقـة بأولئك الأطبّاء الذين يعيشـون انفصـاماً غريبـاً مدهشـاً؛ فرؤوسـهم علميّـة متقدّمة، في حين أنّ قناعاتهم متخلّفة رجعيّة تصدّق أنّ الإله يسـكن الشّـجر والطّير والحيوانات والظّواهر الطّبيعيّة، ويتجلّى فيهـا، وينتقـل مـن كـائن إلى كائن طريداً شريداً باحثاً عن مكان يحلّ فيه أكان جسـد أرقـى المخلوقـات أم أحقرها.

أبذل جهداً كبيراً كي أصدّق أنّ ذلـك الممـرّض الـذي يتبـوّل في الخـلاء، ويمسح برازه بالحائط، ويبصق في الطّرقات، ويمسح مخاطه بطرف كمّ قميصـه الملوّن الرّقيق، يغسل يديه بالكحول عندما يضع يديه على جسـدي، ويمسـح جلدي بالمعقّم ليغرز إبرته المعالجة فيه.

*****

كتبت العاشقة: وأنا في ذلك الصّمت الموجع في دنيـا العـلاج الكيميـائيّ أهيم في أصقاع الذّكريات، وأتذكر يوم كنتُ عالقة في مقعدي في الطّائرة التي تشقّ طريقها السّماويّ نحو تلك المدينة الغريبة عنّـي، وفي يـدي أحمـل قلمـي لأرسم به ما اتّفق من أشكال هندسيّة وتعرّجـات وانحنـاءات تـروح وتجـيء على الورق دون معيق أو معنى.

ساعات وقلمي يركض على الورق راسماً دون هدىً، عندما أُعلـن عـن وصولنا إلى وجهتنا كانت يدي ملطّخة بالحبر الأزرق اللّـامع الملتصـق بيـدي من الخطوط التي نقشتها على الورقـة دون وعـي؛ إنّهـا أقـرب مـا تكـون إلى رسم "الماندالا".

تأمّلت الصّورة التي شكّلتها خطوطي الدّاهلة، فكدتُ أرى فيها صورة وجه ذكوريّ بهاريّ السّمرة مرسوم بخطوط متتالية رائقة بصبر خطوط رسومات "الماندالا"، وعندما قرصني وجع في حلمتي صدري، وأصابتني برودة القيح الذي انبعث منهما، واخترق قماش حمّالة ثديي، ورشح إلى ملابسي الخارجيّة، قفز إلى ذهني ذلك الحلم الغريب الذي استدعاه ذلك الوجه الذكوريّ الأسمر الذي تراءى لي في لوحة "الماندالا" التي رسمتها خطوط قلمي، وهي تعبث في دنيا القلق طوال رحلتي الطّويلة من مدينة اللّصوص التي أسكنها حتى قلب مطار هذه المدينة التي شددتُ رحالي إليها طلباً للعلاج.

*****

كتبت العاشقة: لقد نسيتُ ذلك الحلم وذلك الوجه الأسمر البهاريّ، وانصبّ وعيي وحلمي ووجودي كلّه على التّصدّي للسّرطان.

كان الأمر أصعب ممّا تخيّلت، وعندما أصاب نزيف قاتل رحمي، لم يجد الأطبّاء بدّاً من استئصال رحمي لينقذوني من الموت المداهم.

هم صمّموا على هذا الإجراء، وسارعوا إليه دون موافقتي على اعتباره إجراء أخير ووحيد لإنقاذي من نزيف الرّحم المفاجئ الذي لن يتوقّف قبل أن ينضح دم جسدي كلّه إلى خارجه، في حين دخلتُ في غيبوبة بسبب شدّة النّزيف الذي أصابني.

*****

كتبت العاشقة: من سخرية القدر وجبروت سلطته أن يختار الطّبيب تَيْم الله الجزيريّ كي يستأصل رحمي دون أطبّاء العالم أجمعين.

عندما ساءت حالتي، وأغميّ عليّ بسبب النّزيف الشّديد في رحمي، وبدأت أحتضر، كان طاقم الأطبّاء المشرفين على حالتي في صراع مع الزّمن لإنقاذي؛ لذلك استدعوا أشهر طبيب متخصّص في المدينة بحالتي، وكان تَيْم الله الجزيريّ هو هذا الطّبيب الأشهر.

بعد معاينته السّريعة لحالتي توّصل إلى ما توصّلوا إليه من ضرورة إجراء عمليّة عاجلة لاستئصال رحمي قبل أن يصفّي نزيف السّرطان دمّي، ويعصر روحي. وهذا ما كان.

*****

لقد أنقذ تَيْم الله حياتي، لكنّه ذبح أنوثتي، هو دون الرّجال الذين مرّوا في التّاريخ منذ الخليقة مَنْ اختاره القدر ليذبح أنوثتي، ويلقي بها في مزبلة الأشلاء. وقد أطاع القدر بي دون رحمة منه أو شفقة.

ليلة خلعه لرحمي من أغوار أنوثتي كانت الأنوار في كلّ مكان حولي تنير الفضاءات والأرواح، إلّا روحي التي كانت غارقة في الظّلام واليأس والهزيمة، الجميع أدركهم العيد بأنواره البهيّة وبتفاؤله بانتصار النّور على الظّلام، وانتصار الخير على الشّر، إلّا روحي الطّفلة بهاء التي في نهاية العقد الرّابع من ضياعها ووحدتها، فقد ظلّتْ عالقة في الظّلام تعيش خريف الطّقس وخريف العمر والوحدة والوهن، بعد أن رحل النّور عن روحها، وفي البعيد كانت تسمع نواقيس المعابد تعزف فرحها واستبشارها بالعام الجديد.

*****

كتبت العاشقة: عندما استيقظتُ من مخدّر العمليّة كنتُ قد أصبحتُ أنثى خسرتْ دليل أنوثتها الأكبر، الآن أنا أنثى جوفاء مثل كوب جميل دون قعر، ما يسكب فيه، ينزلق خارجه دون مغزى لوجوده فيه؛ لن أكون بعد الآن أنثى كاملة، ولن أستطيع أن أنجب أطفالي من الضّحّاك كما أمّلتُ نفسي، وصبّرتها يوماً بعد يوم.

الآن أنا أنثى دون مغزى الأنوثة؛ لأنّني غير قادرة على الامتداد. لقد أصبحتْ أنوثتي مثل وجودي؛ لحظة عابرة لا أكثر.

*****

كتبت العاشقة: لأيام طويلة كان يراودني شعور واحد، وهو أنْ أثبتَ أنّني أنثى، وقد فكّرت لأكثر من مرّة في أن أخرج عارية في شوارع المدينة لأجتلب إليّ كلّ رجالها من أباطرة الجنس والفحولة لأثبتَ لنفسي شيئاً واحداً، وهو أنّني ما أزال أنثى كاملة الخصوبة والفتنة، وقادرة على أداء أنوثتها بكامل طقوسها دون عجز أو بتر أو نقص.

وعندما عجزتُ عن تنفيذ فكرتي المجنونة لأنّ جسدي يعجز عن حملي، ويعجز عن التّحرّك من مكانه لشدّة مرضي وإعيائي، فكّرتُ في أن أمارس الطّريقة الشّهيرة في إدارة الأزمات في السّياسة العالميّة، وهي سياسة الإزاحة، وتصدير الأزمة من مكان إلى آخر، وبما أنّني ضحيّة تاريخيّة لهذه السّياسة الشّهيرة التي ابتكرتها الدّولة الغول في العالم؛ فقد قرّرتُ أن أستجلب الإثبات المنشود إلى سريري، وقرّرتُ أن أدعو أيّ ممرّض أو طبيب أو زائر لممارسة الجنس معي في سريري هذا الملطّخ بالدّم والقيح ورائحة المخدّر والموت؛ لأثبت لنفسي شيئاً واحداً لا غير، وهو أنّني ما أزال امرأة قادرة على ممارسة أفعال الأنوثة جميعها.

كتبت العاشقة: آخر ما أتذكّره كان ذلك الوجه الأسمر الذي تراءى أمامي، وهو يفغر فاه دهشة عندما سألته باستجداء ملهوف: هل تضاجعني؟، ثم غاب هذا الوجه عنّي، وغبتُ عنه، وانزلقتُ في دوّامة عملاقة لذيذة الإحساس أشعرتني بدغدغة منعشة لروحي وجسدي، وفي آخر الدّوامة تكرّر ذلك الحلم الذي داهمني في الطّائرة، لقد رأيتُ ذلك الوجه الأسمر الجميل يلبس ملابس غريبة مزركشة ذات ياقة مقصّبة بالذّهب، وأردان طويلة من القماش الخليط الحرير والكتّان الفاخر، ويضع تاجاً ماسيّاً على رأسه، ويختّم أصابع يديه جميعها بخواتم الذّهب الكبيرة، ويلبس قرطاً لامعاً من الماس معلّقاً في أذن واحدة دون الأخرى.

لقد كان أميراً من زمن مجهول من الأزمان، وكنتُ أميرته في الحلم، وكنتُ ألبس مثله لباساً قشيباً جميلاً مصنوعاً من خيوط الذّهب، هو لباس طويل كاسٍ، لكنّه يكشف عن مفاتن الجسد من تلك الأجزاء الشّفّافة منه.

الحلم كان كلّه تفاصيل فرح وغنج ودلال وغناء وسعادة، لم أسمع الأمير يحدّثني بأيّ كلمة، إلّا أنّه كان يغنّي لي بصوت ملائكيّ أجهل معاني كلماته، لكنّ روحي تركن إلى وقعها الشّجيّ .

*****

كتبت العاشقة: عندما استيقظتُ مرة أخرى من أوهام المخدّر، وجدتُ ذلك الوجه الأسمر أمير الحلم أمامي، افترّت شفتيه عن ابتسامة مزيج من المزاح والحميميّة والإعجاب والدّهشة.

ودفعة واحدة تذكّرت الحلم الذي كان يراودني في شبابي الفتيّ بتأثير واضح من الأفلام الرّومانسيّة التي كنتُ أتابعها بشغف، ثم تذكّرتُ طلبي الجنسيّ الجريء، فشعرتُ بجمرة الخجل تندلق في جسدي، وتفور على

وجنتي، وأغمضتُ عيني كي لا أرى نظرات ذلك الأسمر تنهبني استغراباً وريبة وفضولاً.

*****

كتبت العاشقة: عندما رأيتُ تَيْم الله الجزيريّ يلبس لباسه التّراثيّ أدركتُ أنّ حلم صباي يتحقّق أمامي؛ فهذا هو الأمير الأسمر الذي رأيته في أحلامي مرّة تلو الأخرى، وهذا هو اللّباس الذي كان يتبختر به في الحلم، وشعرتُ برغبة جارفة في أن أطبع قبلة على شفتيه كي أتأكّد من أنّه الرّجل الحلم، وللحظة تداخلتْ في ذهني صورته مع صورة الضّحّاك، وشعرتُ أنّهما يملكان وجهاً واحداً، على الرّغم من سمرة تَيْم الله الجزيريّ، وقمحيّة بشرة الضّحّاك التي يمكن أن تميل إلى الألوان الخليط بين الشّقرة والسّمرة في درجة البرونز النّقيّ النّضر.

هل يمكن أن يكون تَيْم الله الجزيريّ هو الحياة الجديدة لروح الضّحّاك التي تلبّسته؟ يروق لي هذا التّفسير، وأراه أفضل مقاربة لما أشعر به من دوار ومشاعر مختلطة وعنيفة؛ فجأة أشعر بأنّني جزء من هذا الرّجل السّاحر ذي الرّداء التّراثيّ الذي يجعل منه أميراً آسراً، ومن لحظة انبثاق مهول في جدار الزّمن تنبثق روح الضّحّاك لتسقط في جسد تَيْم الله؛ إنّه تناسخ للأرواح بين الضّحّاك و هذا الأمير الوسيم.

أنا مؤمنة تماماً بأنّ ما يحدث هنا ليس بالصّدفة، وما الصّدفة إلّا لحظة تعمّد عبثيّة من القدر، ولعلّ السّرطان صديقي الخائن الخبيث قد ساهم في خلق هذه اللّحظة لأجل أن أصل إلى هذا المكان البعيد عنّي من الأرض لألتقي بأميري الأسمر الجميل.

كتبت العاشقة: أسئلتي جميعها تحتاج إلى قبلة من ذلك الأمير كي تتأكّد فرضياتي وتصوّراتي، قبلة واحدة أذوق فيها شفتي هذا الأمير الأسطوريّ، لأتأكّد من أنّ الضحّاك قد حلّ فيهما.

عندما أخبرتُ تَيْم الله الجزيريّ بحاجتي إلى قبلة منه تراءى شكّه على قسمات وجهه، وبدا على سحنته ظنّه أنّني ما أزال أعاني من صدمة المخدّر، ومن تشويشات اليقظة واضطراباتها بعد تجربة التّخدير والعمليّة والذّهول الذي يرافقها في كثير من الأحوال، لكن عندما شرحتُ له حاجتي إلى يقينيّات مرتبطة بهذه القبلة، بدأتْ ثقافته الفلسفيّة الجدليّة الضّاربة الجذور في أعماقه الزّهديّة تملي عليه أن يتوقّف أكثر عند امرأة حمراء تهذي دون توقّف منذ أن تمّ استئصال رحمها.

*****

كتبت العاشقة: عندما تخسر المرأة رحمها دون أن تنجب، فهي تخسر فرصتها الوحيدة كي تصبح ربّة خالدة مبهرة قادرة على الامتداد والتّفتّق عن أرواح أخرى ومن ثمّ الخلود عبر مَنْ تفرّع منها من أبناء، وهي تخسر كذلك فرصتها القدريّة في التألّه، ولا يعود أمامها إلّا السّعي البشريّ القاصر كي تمتدّ، وتخلد من خلال العمل الدّؤوب والإبداع الخلاق، وفي الغالب يقعد بها قصور الإنسانيّة، فتتلاشى، وتنتهي دون أن تذوق عظمة التّجلي والخلق الحقيقيّ.

وأبشع الأقدار عندما يقتلع الرّجل الحبيب رحم المرأة التي قُدّر لها أن تعشقه، فيحرمها من أن تكون أمّاً لطفل مزيج من وجودهما وفعلهما الجنسيّ المنبثق من دائرة الخلود الكونيّ.

عندما شرحتُ لـتَيْم الله الجزيريّ خسارتي الفادحـة بخسـارة رحمـي دون أن أحظى بأيّ طفـل كـان، صـمت طـويلاً بعـد أن أسـدل جفنيـه علـى عينيـه الموغلتين في الإلغاز، كأنّه كاهن في معبد يتلو صلاته المطّهرة له، ثم طبع قبلـة طويلة على شفتي، وقال لي: أحبّكِ. أخيراً وجدتكِ.

النّسيان الخامس والعشرون
الحياة السّابعة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"عقاب الأرواح الشّريرة أن لا تحبّ أبداً"
"خلق الله الحبّ ليصبّر الطّيبين حتى ينقلبوا إليه"
"عندما تحاول أن تتقمّص مَنْ تحبّ، يكون قد سبقكَ إلى تقمّصه لكَ"
"الخيانة للقلب هي طعنة للرّوح"
"الخيانة للحبيب هي خيانة مغلّظة للذّات"
"العشق الإمارة الأكيدة على أنّ قلبك طاهر ونظيف"
"احتياج المرأة لمساعدة الرّجل اعتراف لذيذ منها برجولته"

كتبت العاشقة: رفض تَيْم الله الجزيريّ فرضيتي حول أنّ تناسخاً ما قد وقع بينه وبين رجل ما أحبّني في زمن ما، وصمّم على أنّه يعيش حياة سابعة وأخيرة من حياته، وأنّ هذه الحياة السّابعة هي لوجوده الأول، وأنّني مثله أعيش حياة سابعة وأخيرة، وأنّنا التقينا أخيراً في هذه الحياة السّابعة الأخيرة لنستأنف حبّنا الأزليّ الذي عشناه عبر حيواتنا السّتة السّابقة، ولنتلاشى في هذا العشق المقدّس قبل أن ننتقل إلى حالة "النّيرفانا"، ونعيش الاندغام الكامل بالخلود.

راقت لي فكرة تَيْم الله الجزيريّ عن حياتنا السّابعة، وإن غصّت نفسي بحزن عملاق؛ لأنّها أسلمت الضّحّاك لفكرة الموت والانتهاء، وكي لا أسمح له بأن يموت في أعماقي عدّلتُ هذه الفرضيّة بأن أقنعتُ نفسي بأنّ حبّه قد انتقل من روحه إلى جسد تَيْم الله الجزيريّ، وستكون هذه فرصتي الأخيرة لأتمتّع بحبّ الضّحّاك وتَيْم الله في آن. وأنا لن أضيّع هذه الفرصة

النّادرة ليسعد قلبي بالحبّ الحقيقيّ قبل أن أرحل عن هذا العالم البغيض المتوحّش.

*****

كتبت العاشقة: تَيْم الله الجزيريّ لم يكن مجرّد طبيب حاذق ومشهور في علاج سرطان الثّدي والرّحم حسب، بل كان دائرة معارف إنسانيّة متنقّلة، ومجرّة شعوريّة مذهلة، فيسهل عليّ وعلى غيري أن يصدّق أنّه قد عاش ست حيوات سابقة كي يحصّل هذه المعارف كلّها، ويملك هذه الثّروة من المشاعر المتأجّجة المتراكمة، كأنّها طبقات من نور إحداها ينير فضاءات الأخرى.

هو شاعر وأديب من طراز فريد وسرّيّ، يكتب أدبه لذاته، ولا ينشره بأيّ لغة كانت، بل يحتفظ به لنفسه، على الرّغم من أنّه يجيد ست لغات عالميّة مع إتقانه للكثير من اللّهجات المتفرّعة عنها، وهو ضليع في الفلسفات القديمة والحديثة والإلهيّات والعقائد والملل والنّحل والميثيولوجيا وعلوم الباراسيكيولوجيّ والميتافيزيقيا، وله باع طويل في العلوم الطّبيعيّة والتّطبيقيّة، إلى جانب ولعه الشّديد بالموسيقى والغناء والتّمثيل والرّقص والفنون والسّرديّات الشّعبيّة.

له الكثير من المؤلّفات والأبحاث المنشورة في ضروب مختلفة من العلوم والآداب، فضلاً عن معاقرته النّقديّة لكثير من الأجناس الأدبيّة الرّفيعة، مثل الشّعر والسّرديّات القديمة والحديثة والمعاصرة، كما نال الكثير من الجوائز العالميّة عن مؤلفاته النّادرة حول القضايا الجدليّة في الفكر والسّلام والتّقارب الإنسانيّ والمجاورات الثّقافيّة والعرقيّة.

هو يقدّم نفسه على أنه إنسان متعدّد الدّيانات، وكلّما سأله أحد عن دينه تبسّم ابتسامته التي تشمل وجهه دون أن تصل إلى عينيه الغارقتين في حزن أزليّ، وأجاب عن السّؤال الموجّه إليه بأبيات شاعره المفضّل محيي الدّين بن عربيّ:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكنْ ديني إلى دينه داني

لقد صارَ قلبي قابلاً كلَّ صُورةٍ فمرعىً لغزلانٍ ودَيرٌ لرُهبَانِ

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن

أدينُ بدينِ الحبّ أنّى توجّهتْ ركائبهُ، فالحبُّ ديني وإيماني

أمّا عندما أسأله عن سبب ذلك الحزن الدّفين في أعماق روحه وفي نظرات عينيه، فهو يجيب بأبيات شعريّة للشّاعر ابن معصوم المدنيّ:

ولي كبدٌ مقروحةٌ، من يبيعني بها كبداً ليستْ بذاتِ قروح؟

أباها النّاس عليّ لا يشترونها، ومَنْ يشتري ذا علةٍ بصحيح؟

أئنُّ من الشّوق الذي في جوانحي أنينَ غَصيصٍ بالشّرابِ قَرِيح

فأترنّم بجمال ما يحفظ من الشّعر العربيّ، وأهرب من تخميناتي لأسباب حزنه، ويصمتُ وأصمتُ، إلى أن يسألني: هل تكتبين الشّعر أو النّثر؟ فأكاد أخبره أنّني قتيلة الحروف، لكنّني أتراجع عن إجابتي هذه، وأجيبه بالنّفي بإيماءة من رأسي، وأدعو لنفسي بأن أعيش الفرح، بدل أن أكتب عن الأوجاع.

كتبت العاشقة: تَيْم الله الجزيريّ كان معتنقاً لكلّ ملّة أو ديانة أو طريقة تصل إلى الله، وفي بعض الأحيان كان ملحداً من باب الجدال والمماحكة والحجاج لأجل الحجاج. لكنّه دائماً كان عاشقاً مرهفاً يرفض أيّ قسوة حتى ولو كانت على حيوان؛ لذلك كان في مذهب أكله لا يأكل من اللّحم سوى الأسماك، وفي مذهبه الحياتيّ العام ناسكاً متعبّداً كما رهبان الجبال؛ فلا يأكل إلّا القليل الذي يبعده عن الموت، ولا تروق له الرّفاهيّة المفرطة، ويجنح في ملبسه وحياته ومعاشه إلى الزّهد والتقشّف، ولا يعرف الشّره والجوع الموصول إلّا في العلم والسّياحة في أرض الله؛ إذ كان مولعاً بالتّصعلك في بلاد الله، وكان يجوب الدّنيا متفكّراً مكتشفاً مجرّباً، ويعاين السّفر بكلّ ما فيه من فرح وحزن ومعاناة وتجارب ودروس وألم ودموع وخسائر ومكاسب، ثم يؤوب من سفره إلى مدينته الصّغيرة البعيدة عن التّحضّر المدنيّ بمقدار ٢٠٠ سنة على الأقل، ويركن إلى قلب أمّه المتعبّدة التي ما عرفت من الحياة وأسرارها سوى بيتها وعبادتها لله.

وأغرب ملكاته وأجملها أنّه قادر على الغفران لنفسه ولغيره، وعنده ملكة اقتناص الفضيلة في قلب الرّذيلة، والاقتراب من الله بمفهومه الخاصّ؛ فهو خلاصة فلسفة البشر المتطلّعين إلى صيغة صلح دائم مع الإله في عليائه.

*****

كتبت العاشقة: تَيْم الله الجزيريّ أدرك أنّني لن أصمد أمام السّرطان؛ إذ كان يعرف بخبرة الطّبيب الحصيف، وحدس العاشق الحسيس، ونبوءة المتنسّك الصّالح أنّني سأموت لو فقدتُ سببي الأوّل والأخير للمقاومة والحياة، وهو الحبّ؛ لذلك فقد غمرني بحبّه، وأفاض عليّ بعشقه، حتى نسيتُ السّرطان والألم، وانحسر نشاطه الخبيث في ثديي، وسمح لجسدي بأن

يستعيد قوّته وتماسكه، لينجو الثّديان من مقصلة البتر التي كان الأطبّاء المعالجون -بمن فيهم تَـيْم الله- يتوّقعون أن يصلا إليها إنْ استمر انقسام الخلايا السّرطانيّة فيهما بنشاط قاتل.

لكن العشق وحده من أوقف نمو الخلايا السّرطانيّة في الثّديين، وأعطاني فرصة جديدة للحبّ لا الحياة فقط.

*****

كتبت العاشقة: تَيْم الله الجزيريّ كان يزعم تواضعاً أنّه ضحل في كلّ شيء، إلّا في الجنس والعشق، فقد كان يفتخر بصوته الخفيض الهادئ بأنّه امبراطور من أباطرته المجرّبين المقتدرين عليه، وكان يستثمر أسفاره وعلاقاته المتشعّبة لأجل أن يسجّل أعلى رقم كونيّ في المضاجعات وافتراع البكارى ومساجلة الخبيرات الحصيفات فيه، وكان التّنويع بين الأعراق أكثر ما يثيره، ويستجلب رغبته للجماع، فما ترك أنثى من أيّ عرق إلّا وضاجعها، حتى أنّه كان يجمع في سريره الاثنتين والثّلاثة من النّساء في اللّيلة؛ كي لا يدركه أزوف سفر أو عمل، فيمنعه من تجاربه الجنسيّة العابرة للقارّات والأزمان والأعراق، لكنّه كان يأبى أن يشتري أجساد المومسات لأنّه يراهنّ طاهرات مظلومات قد دنسهنّ البشر، فينحني لهنّ في مروره بهنّ، كأنّهنّ آلهات مقدّسات تعالتْ على كلّ دنس أو رجس.

*****

كتبت العاشقة: المرّة الوحيدة التي ضاجعني الضّحّاك فيها، هي كانت المرّة التي ضاجعني تَيْم الله الجزيريّ فيها هناك فوق ثلوج الجبل؛ في تلك المرّة الجريئة شعرتُ بأنّني في لذّة مضاجعتين في آن، وفي حضن رجلين في آن،

كان الشّعور عظيماً وجامحاً بقدر ما فيه من شذوذ وتشظٍ وضياع، لكنّني معتادة على ذلك الضّياع والشّذوذ.

إلّا أنّها المرّة الأولى التي أمارس الجنس فيها برغبة وسعادة، وأنتقل فيها وبها وعبرها إلى مرحلة حقيقيّة من مراحل "النّيرفانا" مع رجل متنسّك جامح يجيد أن يختصر الكون كلّه لأنثاه في مضاجعة واحدة لا غير.

لقد أنساني عندئذ أنّني دون رحم، وأنّني منقوصة الأنوثة، كما أخرس السّرطان داخلي، وطرده إلى مكان بعيد في العدم.

كلّ ما كنتُ أشعر فيه في تلك اللّحظة هو أنّ جسدي يغلي داخليّاً بجسد تَيْم الله الجزيريّ المنزلق في أحشائي، في حين تكاد تتجمّد فخذاي من برد الثّلج الذي يذوب تحتي بفعل حرارة جسدي المتعرّق بحمى الانصهار واللّذة.

لقد اختار أن يكون انصهارنا الأوّل فوق ثلوج ذلك الجبل السّامق، حيث مارسنا الحبّ عاريين فوق ثلج بارد ناعم، وصوت غناء المعبد في البعيد هو أنيسنا الوحيد في أعالي الجبال، حيث اكترينا كوخاً خشبيّاً صغيراً لنقيم فيه لمدّة شهرين حتى تذوب الثّلوج عن شوامخ الجبال، فيتحوّل إلى أنهار باردة تسقي زهور الرّبيع في جوف الوديان.

لقد أمضينا ليلتنا عاريين ملتصق أحدنا بالآخر على الرّغم من برد الثّلج الذي يصهل في المكان دون توقّف، وكلّما نظرتُ في عينيه أطلب الملابس طلباً للدّفء ابتسم لي، وشدّني أكثر إلى جسده، وكرّر على مسمعي جملته ذاتها: طالما نحن عاريان، فنحن طفلان، وذلك يعني أنّنا بريئان. دعينا نظلّ بريئين.

لم أكن حمراء إلى الحدّ الذي أكونه عادة بسبب تساقط شعري بسبب جلسات العلاج الكيميائيّ، لكنّني كنتُ في أقرب حالاتي إلى الشّعور بالتّخلّق الجديد في حياتي السّابعة والأخيرة في كوكب الأرض، وكم كانت سعادتي غامرة وأنا أستدفئ بجسد تَيْم الله الجزيريّ في كلّ مساء! وفي الصّباح أجده يغنّي أغنية عربيّة في أعلى شاهق الجبل، فتردّد الجبال والوديان والغدران صوت غنائه البديع بصوته الهادئ الحنون الذي يرقّق الحروف العربيّة جميعاً أكانت قابلة للترّقيق أم غير قابلة لذلك.

أمّا الضّحّاك فكان حاضراً في كلّ لحظة معنا هناك في الجبل، وكثيراً ما كان يشاركنا محفّتنا الصّغيرة في التّزحلق على جرف الجبل، وكان أكثر ثلاثتنا ضحكاً عندما أسقط في الثّلج، وأعجز عن الوقف مجدّداً بغير مساعدة تَيْم الله لي على الوقوف.

*****

كتبت العاشقة: لم يكن تَيْم الله الجزيريّ يجيد أدوار العشق الكلاسيكيّة، لكنّه كان يجيد طقوس الحبّ وفق طريقته الفلسفيّة، ويحفظ ترانيم العشق كما نقلها عن أجداده من العاشقين، ويؤثر الهوى متنقّلاً في الجغرافيا، كأنّه يريد أن يرسم عشقه على كلّ شبر من جغرافيا موطنه، تلك الجغرافيا المهولة التّاريخ والإنسان والتّفاصيل وتضادّ الأحوال والأفكار؛ فهي غابة غير متناهية من أشجار خرافيّة خالدة.

صمّم على أن يأخذني في جولة طويلة في وطنه المتّسع، وطرت معه فرحة متحدّية المرض والخوف، فطوّفنا في أقاليم بلاده، وتنسّكنا فيها، وزهدنا في كلّ شيء خلا العشق والجنس اللّذين كنا نمارسهما بنهم فخور نزق.

لأوّل مرّة في حياتي شعرتُ بأنّني حرّة وسعيدة وغير خائفة، ولم أعد ألقي بالاً للموت أو العوز أو الوحدة، وفجأة امتلأ عالمي كلّه بأميري السّاحر الأسمر.

كنتُ أعيش بين أرتال عملاقة من البشر، لكنّني لم أكن أرى سوى عيني تَيْم الله الجزيريّ، ولم أكن أفهم غير كلامه الذي يتكلّمه بعربيّة طليقة مرقّقة، في حين كانت غابة اللّغات واللّهجات حولي تمور بحشود البشر المزدحمين في كلّ مكان نذهب إليه، حتى أنّني في تلك اللّحظات كدتُ أضيّع الضّحّاك، ولا أراه في الزّحام الذي يمور حولي بصخب مدهش.

في إحدى رحلاتنا في الأقاصي النّائية من القرى الموغلة في الماضي والوحشة التي لا تعترف بشيء اسمه العملة، وتقيم تجارتها على المقايضة، قايض تَيْم الله الجزيريّ خاتمه الفضّي ذا الحجر الياقوت بمشط شعر ذهبيّ يدويّ الصّنع راق لي أن أحصل عليه لأمشّط شعري الأحمر به عندما يبزغ من جديد من فروة رأسي التي تعرّت من أيّ شعرة بعد الجلسة الثّالثة من جلسات العلاج الكيميائيّ.

حينها رفضتُ أن أقبل بهذه المقايضة الجائرة عليه لمعرفتي الأكيدة بمدى عشقه لخاتمه الإرث الوحيد له من والده المتوفّى، لكنّه صمّم على ذلك؛ ليحصل لي على ذلك المشط الجميل الذي يذكّرني بقصص الجنّيات الفاتنات اللّواتي يقتنين أدوات زينة باذخة النّدرة والجمال والرّقة، حتى ولو كان الثّمن هو التّضحية بخاتم والده الرّاحل.

*****

كتبت العاشقة: لقد كنتُ مدلّلته الصّغيرة التي لا يرفض لها طلباً مهما كان غريباً؛ لذلك وافق بتحمّس على أن يرقص معي تحت الأمطار الموسميّة في ساحة فناء ذلك الولي الذي يزوره العشّاق لتبريك عشقهم به، وأن يضاجعني فوق الزّهور في سهول زهرة الخردل الصّفراء، وأن يستحمّ معي تحت أمواه الشّلالات السّاخنة في بطون الصّخر، وأن يسبح معي عارياً في ليل صيفيّ في ذلك النّهر المقدّس، وطوّف بي على الأضرحة والمعابد وصوامع النّسّاك والمتعبّدين لنأخذ بركاتهم أجمعين، ونرقي حبّنا من غيلة القدر، وحسد الحاسدين.

لقد أصبحت الحياة فجأة حلوة حنونة عليّ بفضل وجود تَيْم الله الجزيريّ معي، ودون أن أشعر غادرني القلق الدّائم من أن تنزلق قبعتي عن رأسي، فتظهر فروته العارية من الشّعر، ولم أعد أتحسّس ثديي وبطني بحسرة كلّما وقعتْ عيني على امرأة ترضع صغيرها، أو رأيتُ بطناً متكوّراً ينبئ بزهو عن تكوّر جنين في أعماقه.

لم أعد الآن سوى امرأة سعيدة فرحة، تذوق السّعادة لأوّل مرّة في حياتها، وهي في نهاية العقد الرّابع من عمرها، وتعيش اللّحظة مقطوعة عن أيّ أزمان أخرى، وتكتشف لأوّل مرّة في حياتها جغرافيا الفرح التي لم تطأ أرضها من قبل، وهي ترى تَيْم الله الجزيريّ في رحلتهما الطّويلة ينفق آخر ما يحمل من مال معه لأجل أن يصنع لها وله قلادتين متشابهتين، ويعلّق إحدى القلادتين برقبتها، ويطلب منها أن تعلّق الأخرى في رقبته لتكون هاتان القلادتان تميمة حافظة لهما من الفراق والحرمان.

قلادته المصنوعة من الذّهب المزركش بالنّقوش الملوّنة هي أجمل ما حصلتُ عليه في حياتي بعد اسم بهاء الذي وهبه الضّحّاك لي.

كلّما تهتزّ القلادة على صدري، أشعر بأنّها تقرع قلبي لتقول لي: إنّه العشق. وكلّما داعبتها انتشيتُ بكرم صاحبها الذي يفوق أيّ وصف للكرم والعطاء، ويجعلني أنشد على مسمعيه بعضاً من الشّعر العربيّ الذي يحبّه، ويحفظ الكثير منه:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنّكَ تعطيه الذي أنتَ سائلُهُ

هو البحر من أيّ النّواحي أتيته فلجّته المعروف والجود ساحلُهُ

ولو لم يكنْ في كفّه غير روحه لجاد بها فليتّقِ اللهَ سائلُهُ

*****

كتبت العاشقة: عندما كان تَيْمُ الله الجزيريّ يوغل في تقليد اللّهجات العربيّة التي التقطها من أهلها عبر زياراته الكثيرة للدّول العربيّة ترفيهاً وتعليماً وتعلّماً واكتشافاً، كان يتعمّد أن يختار الكلمات النّابية أو الحوشيّة أو النّادرة ليضحكني من أعماق قلبي، ويستمتع بقهقهاتي وهي تسقط على أذنيه بصوتي المبحوح الذي يصمّم على أنّه يصلح للغناء، وأنّ عليّ أن أمتّعه به بغناء مقطع ما، وعندما أصمّم على رفض الغناء، يناكفني بغناء مقطع غناء عربيّ بطريقة هزليّة ساخرة، فأضحك من أعماق قلبي، ويضحك هو، ويضحك طيف الضّحّاك الذي لا ينفكّ يرافقنا في كلّ مكان على الرّغم من تجاهلي لوجوده في بعض الأحيان.

وفي المساء عندما أتكوّر في حضن تَيْم الله الجزيريّ لأنام فيه مثل قطّة متعبة مندسّة في حضن كاهن متنسّك، يهمس في أذني قائلاً: هل تحبّيني؟ أنا أعشقكَ. فأقتربُ من فمه، وأطبع قبلة كسولة على شفتيه، وأقول له: أعشقكَ أيّها المتنسّك المجنون. أنا لكَ أيّها العاشق.

النّسيان السّادس والعشرون

الحياة الأخيرة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"إنّني أراكَ"
"العشق هو مَنْ يجعل هذه الحياة محتملة أو ممكنة"
"كلّ الذين لم يعشقوا نجوا من السّعادة بأعجوبة"
"الإنسان المقهور بامتياز هو عاشق محروم"
"التّطرّف في الحبّ منتهى الصّدق فيه"
"ليس هناك وقت متأخر على السّير في درب الهوى"
"الحبّ العظيم كالصّداع الشّديد لا يهدأ بالمسكّنات"

كتبت العاشقة: كان الشّرق يحترق برمّته، وحواضره تهوي في النّار، والمدن ترحل عن نفسها وعن أهلها، والجميع في هرج ومرج، والقيامة قامتْ هناك منذ سنين طويلة، والحساب شنيع وطويل، ولا جنّة أو نار، لا شيء فيه سوى وقوف طويل على الأعراف، أو سقوط في سقر.

لكنّني لم أكن أبالي بذلك كلّه؛ فتلك المدن قد رحلت عنّي منذ زمن، ولا قلب لي فيها ولا أمل، وما لها محبّة في قلبي حتى أبكيها؛ فأنا نبات شيطانيّ لا علاقة له بأيّ شيء هناك؛ لستُ أكثر من لقيطة ربيبة ميتم سرعان ما أدركتْ أنّ أوطان الشّرق جميعها مياتم كبرى، لا كرامة فيها ولا حنان ولا أمل.

كان تَيْم الله الجزيريّ على خلافي مهتمّاً بما يحدث في الشّرق أسيراً لسحره، وحريصاً على أن يتتبّع آخر المستجدّات فيه، فرحاً بأنّه يجيد اللّغة العربيّة إلى حدّ أنّه يستطيع قراءة الصّحف وسماع الأخبار بكلّ يسر وسهولة، أمّا أنا

فكنتُ حريصة على نسيان تلك الأوطان التي لا وطن فيها يعترف بي، أو يعرفني، أو يأبه بأمري.

كلّ ما يعنيني الآن هو أن أعيش مع تَيْم الله الجزيريّ إلى الأبد دون فراق، وأن أغرف أكثر فأكثر من السّعادة التي لم أذقْ عسلها من قبل.

*****

كتبت العاشقة: كم رغبتُ في أن أحدّث تَيْم الله الجزيريّ عن حقائقي وحياتي، لكنّني عدتُ، وتراجعت القهقرى عن هذه الرّغبة عندما سمعته يتحدّث عن ذاته، فآثرتُ الكذب على الحقيقة كي يظلّ يصفني بلقب أميرة العرب، كما يروق له أن يصفني، بدل أن يعرف أنّني لستُ أكثر من لقيطة من لقائط العرب. وما أكثر ما التقطوا وضيّعوا!

زوّرت حياتي كاملة، وأوهمته بأنّني امرأة من أسرة نبيلة، وأنّني جئت إلى بلاده للعلاج هرباً من ضيق نفسي عليّ بسبب المرض، وأخفيتُ عنه حقائق يتمي وفقري وضياعي وقلّة حيلتي وتيهي في دروب الأرض. حتى أنّني زعمتُ أنّ أبي وأمي من نبلاء قومهما، وأنّني وُلدت في رأس عام مطير مبارك ممهورة بنبوءة أمّي التي رأت نفسها تلد ناراً مشتعلة في قلب تفّاحة حمراء، فأخبرها مفسرو الأحلام أنّها ستلد فتاة حمراء فتنة تكون السّعادة والشّهرة والعلياء نصيبها؛ لذلك قرّرتْ أمّي أن تسميني بهاء؛ ليليق اسمي بنبوءة أقداري.

فصدّق تَيْم الله الجزيريّ نبوءتي التي لا تقلّ فخامة عن نبوءة ذلك الكاهن الذي صدفه يوماً في درب من دروب قريته الصّغيرة النّائية، فنظر طويلاً في عينيه، وقال له متنبئّاً بمستقبله: قدركَ المعرفة والعلم. لقد وُلدت منذوراً لهما. سوف تطاول عنان السّماء بعلمكَ.

كتبت العاشقة: مضى نحو عام، وأنا أعيش لحظاتي جميعها مع تَـيْم الله الجزيريّ. لقد تحسنّتْ صحّتي، وانحسر السّرطان في ثديي حتى اختفى.

ربما كان عليّ أن أرجع إلى ميتمي الكبير من حيث أتيتُ، لكنّني أرغب في أن أبقى إلى جانب تَيْم الله الجزيريّ، وأن أعيش معه حتّى آخر لحظة من حياتي.

لكنّه صامت مثل صمت القبور، ولا يطلب منّي أن أبقى إلى جانبه عندما أحدّثه عن أزوف موعد رحيلي على الرّغم مّما يكدّر وجهه من غمّ وهمّ عندما أحدّثه بذلك الحديث.

هو قد حقّق لي كلّ أمنية منذ التقيتُ به، حتى أمنية الشّفاء من المرض قد حقّقها لي بحبّه وعنايته، واصطحبني بجبور إلى أكثر من مهرجان وحفل وصلاة في معبد وزاوية للتّنسّك ومدينة كي أفرح بما أرى من عجائب وغرائب، وسايرني في لعبة الزّواج التي لعبناها في ذلك المعبد في أعلى ذلك الجبل المقدّس، لكنّه لم يفكّر في أن يحقّق لي أمنيتي الأعزّ على نفسي بأن يسألني عدم الرّحيل عنه، والبقاء إلى جانبه.

*****

كتبت العاشقة: قرية تَيْم الله الجزيريّ قرية جميلة متخلّفة عن المدنيّة، وعن وقع خطاها اللاّهث، هي تعيش فوق الماء وتحت السّماء مباشرة، عندما يذهب تَيْم الله الجزيريّ إليها يشعر بأنّه مغسول من كلّ حزن أو ضغينة أو خوف، يخلع بذلته الإفرنجيّة على بابها، ويطوّح بحذائه الإيطاليّ الفاخر نحو البعيد، ويسير في أرضها الدّائمة الزّلق حافياً عارياً إلّا من مئزر قطنيّ أبيض اللّون، ويضع في رقبته قلادة حجاب أمّه، ويسير في الأراضي هناك واسم تَيْم الله الجزيريّ يصدح في الوادي، وأهل قريته يحيّونه بحرارة

الاشتياق والتّقدير الرّفيع؛ فهو قد استطاع أن يقفز عن مهنة الزّراعة، ليخطو نحو عوالم الطّبّ والشّهرة العالميّة التي جعلت اسم قريتهم المغمورة يتردّد في كثير من المحافل العالميّة عند ذكر اسم الطّبيب الشّهير تَيْم الله الجزيريّ.

الجميع في قريته يعدونّه الأكثر حظّاً فيهم؛ إذ هو منحدر من أسرة شريفة، وسيرته محمودة، وذكاؤه متوقّد، وملامحه ساحرة تصلح لأن تجعل منه ممثلاً شهيراً في عوالم السّينما العالميّة، إلى جانب أنّه يجيد اصطياد فرص النّجاح، ولا أحد منهم يعلم أنّه في حقيقة الحال فريسة سهلة لكلّ صيّاد خبيث، وهو الطّيب الذي يسهل خداعه والتّغرير بقلبه الكبير الصّادق؛ لذلك فقد سهل على الكثير من أصدقائه أن يصطادوا نزير ماله في صباه، وأن يختلسوه منه بأكثر من طريقة، وسهل على صديقه اللّدود أن يصطاد سذاجته، وأن يحرمه من منحة دراسيّة كاملة في أعرق جامعات بريطانيا عندما خدعه، وسرق شهاداته العليا، ولم يقدّم أوراقه للمنحة كما وعده بأن يفعل، حتى خسر تَيْم الله الجزيريّ المنحة كاملة، واضطرّ إلى أن يدرس في جامعات وطنه التي سرعان ما حظي فيها –مكرهاً– بالكثير من الأعداء والكارهين حسداً من عند أنفسهم لما وهبه الله من ذكاء وألمعيّة.

وأخيراً اصطادته تلك الطّالبة الطّامعة في شبابه وألقه ومستقبله الزّاهر، وتزوّجته ليكون بقرتها الحلوب، وسطت على معظم المال الذي جناه في حياته، وجرّدته من بيته وأجزاء كبيرة من فرحه وكرامته وسعادته وحرّيته، وقدّمت له لقاء ذلك ثلاثة من الأبناء والبنات الذين يجلدونه في كلّ لحظة بحقيقة أنّ تلك الطّالبة اللّصة قد سرقتْ حياته، وأصبحتْ زوجةً له، وأمّاً لأولاده في هذه الحياة البائسة التي يعيشها معها.

سرقات زوجته منه أنسته تلك السّرقة التّاريخيّة لأعمامه لإرث والده من أبيه، إذ تكاثروا عليه لأنّهم الأكبر سنّاً، والأكثر عدداً، والأشقّاء من أمّ واحدة، وهو ابن الوحيد المستضعف من الضّرة الجديدة لأمّهم، وعندما مات والدهم ألقوا بأخيهم غير الشّقيق وأمّه في قارعة الطّريق، وتنعّموا بحصتهما من الأرض، وجعلوهما يذوقان الويل والحاجة لسنين طويلة حتى كبر الصّغير، واستطاع أن يعيل نفسه وأمّه التي أطفأ الحزن فرح قلبها، وكسر ظهرها، وأقعدها في الدّار وحيدة محزونة.

*****

كتبت العاشقة: تَيْم الله الجزيريّ يكره الاصطياد لاعتياده على أن يكون الفريسة، لم يمارس الصّيد إلّا لثلاث مرّات في حياته؛ المرّة الأولى كانت صدفة كريهة عندما أجبره أصدقاؤه الأطفال على أن يشاركهم في اغتصاب طفلة صغيرة اصطادوها صباحاً في الحقول، وهي في دربها إلى قضاء حاجتها في البعيد عن بيتها حيث لا مكان لقضاء الحاجة فيه.

لم يطبْ له هذا الاصطياد، لكنّه شارك فيه مكرهاً كي يبرهن لأصدقائه على أنّه قادر على الافتراس والافتراع وهو في سن الحادية عشرة من عمره، وقد كان صاحب السّهم الأوّل في افتراعها قبل أن يتناوب أصدقاؤه العصبة عليها، ويمزّقون بكارتها ومهبلها، ويتركونها تنزف حتى الموت آمنين العقاب؛ لأنّهم متأكدين من أن لا عقوبة ستطالهم لاغتصابهم طفلة فقيرة من أسرة فقيرة معدمة، وهم أبناء أشراف القرية وأثريائها.

فيما بعد مارس شهوة الاصطياد الفرديّ لكلّ امرأة قابلها بشرط أن ترغب في أن تكون فريسته دون اغتصاب أو قهر أو إكراه؛ فضميره الذي نما

مع عدوّه السّريع في دروب العلم منعه من أن يقبل بأيّ اغتصاب أيّاً كان، لكنّه يرضى بكلّ طيب خاطر بالاصطياد وبشرائعه المتوحّشة.

لكن صيده الأجمل المقدّس كان عندما قابل بهاء، وعشقها، واقتنص لحظات جنوحها الكسير، وطبع قبلته السّر على شفتيها، وأطلق لنفسه العنان كي يحبّها دون شروط أو قيود أو خوف.

لقد اصطادها بشهوة المجرّب الذي أراد أن يذوق امرأة حمراء هجينة من أصول عربيّة؛ فهو لم يذق هذا العرق من قبل؛ لذلك أراد أن يركبها كي يفخر أمام أصدقائه الأطبّاء بأنّه نكح أميرة من أرض العرب حتى ثمل منها.

لكنّه سرعان ما عشقها بكلّ جوارحه، واستسلم معها لرقصة الحبّ التي تسميّها رقص الصّحراء العاشقة، ويسميّها قبلة أسلافه العاشقين جميعهم؛ هي تقول إنّها تقبّله باسم عاشقي العرب جميعهم، وهو يقول أنّه يسكب على شفتيها قبلة العشق باسم العاشقين الذي مرّوا في تاريخ حضارته.

*****

كتبت العاشقة: ظننتُ أنّ تَيْم الله الجزيريّ قد اصطحبني معه إلى قريته العتيقة كي يفتح لي بوابة حياته لأدخل إلى تاريخه، لكنّني سرعان ما اكتشفتُ أنّ اصطحابه لي إلى ذلك المكان لم يكن يتجاوز لذّة الاكتشاف التي متّعني بها عندما أخذني في جولة طويلة في أصقاع وطنه.

إنّ هذه الدّعوة لي لزيارة قريته تشبه عرضاً مسرحيّاً ترفيهيّاً لحشد من النّاس؛ فقد سلّى أسرته برؤية الحمراء الغريبة التي تلبس ملابسهم الوطنيّة بفرح فخور، وتسمح لصغيرات القرية بأن يتأمّلن في عميق عينيها بتعجّب من شدة خضرتهما، ومن امتدادهما اللّوزيّ الجميل.

أمّـا في لحظـات هدوئـه، فكنـتُ أرى ذلـك القهـر الـذي يمـور في صـمته الألوف الذي يكاد ينطق أنّه يتمنّى لو كان في إمكانه أن يسـحق شـيئاً اسمـه الماضي وخياراته وزوجته ونساءه، ويتوّجني أميرة على قلبه وروحه.

لكنّه ما كان يجرؤ على نطقّ هذه الأمنية، ويظلّ يحبسها في نفسه، ويطيّرهـا في الهواء، ويهرب منها بممارسته لرياضة المشي الصّباحيّ التي يهواها.

*****

كتبت العاشقة: في لحظة يأس من أن يتّخذ تَيْم الله الجزيريّ أيّ خطـوة جريئة لأجل بقائي بالقرب منه، طلبتُ منه أن يحرق جسدي عند موتي، وأن يشرب رمادي، عندها ضحك من طلبي حتى بكـى بطريقتـه العجيبـة عنـدما تتّسع عيناه مثل ينبوعين مكـدّرين بجمـرة اللّهيـب، وتنـدفع مـن عينيـه حمـم الدّموع التي تهطل على وجهه، مثل فيضان ينبثق مـن جـوف بركـان يغلـي، واقترح أن نغادر القرية إلى المدينة، وطوال طريق العودة الطّويل عـبر القطـار السّريع المكيّف ظلّ يحدّثني عن قضايا فلسـفيّة عميقـة حـول الحيـاة والمـوت واللّقاء والفراق، ثم انزوى بالقرب من نافـذة مقصـورتنا في القطـار، وأخـذ يحدّثني بصوت خفـيض كمـن يحـدّث نفسـه عـن كتـب الفلاسـفة فيمـا هـو مضنون به على غير أهله.

لم أفهم الكثير من العلاقات الخفيّة بين المواضيع الفلسفيّة التي يطرحهـا في كلامه، لكنّني تذكّرتُ فخره الدّائم بأنّه يجيد أهمّ لغـة في التّـاريخ، وهـي لغـة الحبّ، كما تذكّرت يوم نهرني عن سؤالي لأحـدهم حـول دينـه، وقـال لـي بحكمة عميقة: ليست الأديان هي المهمّة، بـل حسـن الأخـلاق هـو المطلـب المُلحّ من البشر.

كانت تلك الرّحلة طويلة جدّاً على نفسي، وبعد قليل من الوقت لم أعد أستمع إلى حديثه، وانصرفتُ أنصتُ لصوت ألم غريب يتحرّك في ثديي، في حين تعبث بذاكرتي صور الشّقاء التي أراها عبر رحلة القطر في السّهول حيث الفقراء والمشرّدون والمحرومون والمستضعفون في كلّ مكان.

وتزايد الألم في ثديي عندما قفزتْ إلى ذهني قصّة روتها لي شقيقة تَيْم الله الجزيريّ عن فتاة فقيرة قطع الأغنياء أصابع يديها بالسّاطور؛ لأنّها تجرّأتْ، ولمست ببراءة يد طفلة من أبنائهم.

عندما سمعتُ هذه القصّة المروّعة انتفضتُ مصدومة من بشاعتها، فاقتربتْ أختُ تَيْم الله الجزيريّ من جسدي، حتى التصق كتفها بكتفي، وهمستْ لي بصوت خفيض بإنجليزيتها الرّكيكة المضحكة: نحن جميعاً منبوذون هنا.

هذه الأرض القاسية أورثتني قشعريرة لا يمكن أن أطردها من جسدي كلّما تذكّرت ذلك الرّجل الفقير المدرّم البشرة المقطوع القدمين الذي كان يزحف على الأرض على وجهه، وقد تقطّع جلده، والأقدام تدوسه، أو تتخطّاه دون أن يشفق عليه مشفق بإحسان أو صدقة، وهو قطعة لحم تسلقها الأرض، وتآكل منها على مهل.

*****

كتبت العاشقة: وأنا أراقب قطعان الجاموس تسرح في السّهوب، تذكّرت الجياع في كلّ مكان في أصقاع هذه المعمورة، وحسدتُ الأبقار على اختلاف أنواعها وسلالاتها في هذا المكان وفي بلادي على وافر حظّها مقارنة بعذابات البشر في كلّ مكان، وقرع ذهني سؤال قلق يوجع مثل نخز مسلّة: ما تراه يحدث الآن في مدائن الشّرق التي فارقتها؟ وهي تستعر بالنّار

والفتن والابتلاءات والمصائب، ويجوبها اللّصوص والقتلة آمنين فرحين، ويموت فيها الأبرياء والأبطال والصّالحين والعلماء والمبدعون، في حين تسمن الكلاب والأبقار والخنازير والفئران الآدميّة حتى تختنق بسمنتها.

*****

كتبت العاشقة: بدأ الألم يتحرّك أكثر في ثديي، وشعرتُ بخانوق يستلّ روحي، وأنا أقف قلقة وحيدة تحت حرارة الشّمس الخريفيّة السّاطعة أمام هذا المبنى التّاريخيّ القديم حيث اتّفقتُ وتَيْم الله الجزيريّ على الالتقاء كي نتزوّج في هذا المكان في حضن أنوار العيد.

في مثل هذا اليوم من العام الماضي ذبح تَيْم الله الجزيريّ أنوثتي عندما قلع رحمي من أحشائي، وفي هذه الذّكرى المضيئة قرّرنا أن نتزوّج.

أنوار العيد منتشرة في كلّ مكان، أمّا عيدي فلن يكون إلّا عندما يواتي تَيْم الله الجزيريّ على موعده معي، فأرى ابتسامته الخجولة تنير وجهه الذّهبيّ المعتّق، وهو يكبّر خطواته كي يصل إليّ سريعاً ملوّحاً لي بطوق زهور برتقاليّة اشتراها لي من البعيد، وضمّها إلى قلبه طوال الطّريق، ليعلّق زهورها على صدري العاشق له.

سيصل تَيْم الله الجزيريّ في القريب، فهو لا يمكن أن يخذلني، أو أن يكذب عليّ. عندما يطلّ وجهه عليّ سأعرف أنّه قد اختار أن يعيش معي الباقي من حياته وحياتي، وأنّه سيأخذني من يدي لندرك أوّل قطار يتّجه إلى قريته النّائية ليقدّم لأمّه زوجته المشرقيّة التي حملتها الأقدار إليه.

لساعات طويلة ووحيدة في ليلة عيد انتظرتُ أن يوافي على موعده، وهو من لا يخلف مواعيده أو وعوده. لكنّه لم يأتِ.

عندما تعبتُ، وأيقنتُ أنّه لن يأتي أبداً، توجّهت إلى أقرب نُزل في المكان كي أبيت ليلتي لأعود غداً في أوّل طائرة إلى مدائن الخراب حيث أعيش، وفي نفسي من الانكسار والإفلاس وخيبة الأمل ما يكفي لأن أبوح لتَيْم الله الجزيريّ بحقائقي وسيرتي وأوجاعي ومغامراتي مع رجالي الأقزام وجناياتهم عليّ مرّة تلو الأخرى.

*****

كتبت العاشقة: على غير عادتي في عراكي مع الحزن انتصرتُ على الأرق، ونمتُ بعمق في سريري الصّغير في حجرتي المكتراه في النّزل التّاريخيّ القريب من المبنى التّاريخيّ القديم.

في الحلم تراءى لي تَيْم الله الجزيريّ، وهو يتيه بثوبه التّراثيّ الجميل، وسار معي في تلك الحدائق المزهرة. لقد كنّا في حلم جميل، وهو يجأر في جنبات الحدائق باكياً: تمنّيتُ لو أنّنا نستطيع أن نحتفل بهذا العيد سويّاً في هذا المكان الجميل. أحتفل في سويداء قلبي بأعياد الإنسانيّة. لا تأسفي على ما فات، ولا تقلقي ممّا هو آتٍ. الحياة أكبر من فيلم أو مسرحيّة أو قصيدة أو ديانة أو أسطورة أو بهاء أو تَيْم الله، الحقيقة أكبر من هياكل الإدراك النّفسيّ أو الفيزيائيّ. نحن أقزام أمام الحقّ. نتعالى عندما يكون من الأجدر أن ننحني، وننحني في مكان التّعالي. هل لي أن أستأذنكِ للابتعاد عنكِ؟ عليّ أن أعود إلى عالمي وزوجتي وأطفالي؛ فهم في حاجة إليّ. نستطيع أن نلتقي في حياة أخرى مقبلة، وإن عزّ علينا اللّقاء فيها، فيمكننا أن نتّحد في روح واحدة في زمن ما.

استيقظت مفزوعة من هذا الحلم، وأنا أردّد جملة واحدة لا ثاني لها: لن نلتقي مرّة أخرى يا تَيْم الله الجزيريّ؛ فهذه هي حياتنا السّابعة والأخيرة. هذا ما أخبرتني به من قبل. هل نسيتَ كلامكَ عن حياتنا الأخيرة؟

*****

كتبت العاشقة: طريق الذّهاب إلى المطار الدّوليّ في سيارة أجرة مكتراه من النّزل كان طويلاً بقدر إنهاك روحي وحزنها عندما خلعتُ قلادة تَيْم الله الجزيريّ، وعلّقتها في عنق تمثال منصوب في ساحة الاستقبال في أرض المطار، لتكون آخر عهدي بهذه الأرض القاسية على قلبي وعلى أهلها وعلى كلّ مستضعف مقهور.

*****

كتبت العاشقة: في الطّائرة لم أكن في حاجة إلّا إلى نوم مريح ينسيني الرّحلة والألم والانتظار وصورة تَيْم الله الجزيريّ، وهو يعتلي كرسي عربة يجرّها إنسان حافٍ شبه عارٍ في دروب مدينة قديمة، وهو يتقافز من تحرّق قدميه اللّتين تلحسهما الأرض بحرارتها الكاوية، في حين يتبرّد تَيْم الله بهوّاية قشّيّة يدويّة يحملها في يمناه، ويهشّ بها على وجهه المتعرّق عرقاً مطيراً، ويستحثّ الرّجل التّعس الذي يجرّ العربّة التي تحمله كي يسرع أكثر ليصل إلى محاضرته حول حقوق الإنسان في أسرع وقت ممكن!

*****

كتبت العاشقة: لم يكن في انتظاري في شقتي الصّغيرة الموحشة سوى صديقي السّرطان فاغراً فاه متشفّياً بحزني وهزيمتي، وشامتاً بي بعد أن خذلني

تَيْم الله الجزيريّ الذي هربتُ إليه ظنّاً منّي أنّه سيكون مينائي بعد رحيل أسطوريّ منكود.

تكوّمتُ في سريري دون أن أقدر على خلع ملابسي أو حذائي، وتمنّيتُ من أعماقي أن أجد الضّحّاك في انتظاري في دنيا النّوم والأحلام والأمنيات المؤجّلة.

*****

كتبت العاشقة: حبيبي تَيْم الله الجزيريّ، لعلّ الله يحبّ الكلمة؛ لذلك يهديها لمن يصطفي من البشر؛ لذلك وضعها الله في قلبي وقلبكَ؛ لذلك أهديها إليكَ مرّة تلو الأخرى، لأنّها أقدس ما نفث الله في روحي.

قرّرتُ أن أهديكَ في بداية هذا العام بعضاً من نفسي المتمرّدة علي عبر إهداء كلماتي لكَ. هذا العام سأترك أزماني جميعها في العام الماضي، وسوف آخذكَ معي فقط إلى الزّمن الجديد.

هديتي لكَ لهذا العام تشبهني؛ فهي ظاهرة وخفيّة في آن، صامتة، لكن في داخلها الكلام كلّه، لا أتحدّث الآن عن الكتب المرفقة برسالتي هذه، بعد أن حرصتُ على أن أهديها لكَ لعلمي بمدى محبّتك للكتب، لكنّني أتحدّث بكلّ تأكيد عن هديتي الواضحة الخفيّة، فما أمامكَ الآن ليس صندوقاً ملوّناً من صناديق عطري الذي أعشقه، وليس ما فيه مجرّد نجوم ملوّنة، بل هديتي لكَ جزء من أزماني، أعني أزمان قلبي وحبّي لكَ وحبّكَ لي؛ هذه النّجوم مصنوعة خصيصاً لكَ بطريقة الطّي اليابانيّة الشّهيرة (Origami)، عددها ٣٦٥ نجمة، أيّ بعدد أيّام السّنة، كلّ يوم افتحْ واحدة منها فقط، واقرأ ما كتبتُ لكَ فيها داخلها. هكذا ستكون كلماتي لكَ هي مفكرتك الزّمنيّة لمدّة عام لتؤرّخ أزمانكَ بكلماتي.

كلماتي هذه كتبتها لكَ لتخبركَ بعشقي لكَ، أمّا النّجوم فقد اخترتها لكَ من أسطورة وثنيّة من أساطيركم تعتقد أنّ النّجوم هي أرواح من رحلوا عن الحياة ممّن نحبّهم، فهم يروننا من أماكنهم العلويّة، وينيرون دروبنا، ويضيئون سماواتنا. وعندما أموت أريد أن تتذكّر أنّني قد أصبحتُ نجمة في السّماء، وأنّني أرعاكَ ليل نهار.

ملاحظة مهمة: تستطيع أن تفتح النّجمة بالطّريقة التّالية: اضغطها نحو الدّاخل، فتعود مسطحة لا منتفخة، فيظهر الشّريط من جانبها، افتحه دون أنْ تمزّقه، عندها تعود النّجمة شريطاً مستطيلاً تستطيع أن تقرأ ما كتبتُ لكَ فيه.

النّسيان السّابع والعشرون

المخطوطة

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"العظيم لا يعرف الرّضا عن نفسه"
"القلق والحزن سمتا القلب الطّيب"
"الذين يفخرون بالنّسيان هم مَنْ لم يذوقوا طعم اليقين"
"الحبّ كالإيمان؛ يطمئن القلب"
"لا أعرف منّي إلّا عيني، والباقي منّي لا أعرفه"
"الأمّهات لم تلدنا؛ الحبّ هو من يلدنا بحقّ"
"سعادة الحبّ هي من تجعلنا نثق بوجود فردوس في الحياة الآخرة"

كتبت العاشقة: لقد عدتُ من أرض العجائب والغرائب بعجيبة واحدة لا غير، وهي أنّني قادرة على التّنفسّ على الرّغم من اختناقي بخيبة أمل ساحقة تكفي لأن أتبخّر، وأتلاشى في العدم.

لم يعد عندي من رغبة الحياة إلّا ما هو بمقدار الاستجابة لصوت الجسد في تلبية حاجاته الطّبيعيّة الأساسيّة من أكل وشرب وقضاء حاجة، وبخلاف ذلك لم يعد عندي أيّ رغبة في حلم أو انتظار، حتى أنّ حلمي باللّقاء بالضّحّاك قد رحل عن روحي دون رجعة، فماذا ستقدّم امرأة كسيرة مهزومة لرجل متحقّق قد أخذ طريقه ودربه في الحياة؟ ولعلّه قد نسف أيّ ذكرى لماضي عتيق عبر فيه منذ عقود طويلة.

بعد خيبة أملي هذه لن أفكّر أبداً في الهروب إلى أيّ رجل؛ فجميعهم خاذلون في زمن خاذل وأماكن خاذلة وتاريخ خاذل. بعد الآن لن أهرب إلّا إلى نفسي، وسوف أركن إليها حتى أتلاشى، وأذوب في العدم. لن أحلم بعد الآن بيد الضّحّاك تشدّني إليه، وتبعدني عنّي وعن ضعفي وانهصاري،

وعندما يهجم الوجع عليّ سوف أغنّي أغنية "النّدبة"، وأرقص رقصة "المذبوح "حتى تتمزّع حنجرتي، ويتهدّم جسدي، واتّخذ سرباً في أمواه حزني المقيم في روحي.

*****

كتبت العاشقة: سنين طويلة قد مرّت، وأنا في خلوتي وحيدة في هذه الشّقة الصّغيرة التي تزدحم بذكريات أليمة تضيّق المكان على روحي وأنفاسي، لقد انقطعتُ عن العالم حتى نسيني ونسيته، وما عاد لي منه إلّا القليل من الأصفياء والأصدقاء، وصديقتي التّاريخيّة هدى هي رفيقتي الدّائمة في رحلتي مع العلاج مع السّرطان الذي عاد إليذ باستئذان كامل؛ لقد طرق بابي مرّة أخرى بهدوء وترو وخبث شديد، وسألني الحلول في جسدي، فوافقته على ذلك متحمّسة للموت الذي يحملني إليه ليخلّصني من عذابي الدّنيويّ الطّويل.

لقد وعدني السّرطان بالموت السّريع؛ لذلك وسّعتُ له في دماغي كي يسكن فيه على راحته، وإكراماً لحسن استضافتي له، فقد بات يفيض عليّ من نعمائه، فابتكر من أجلي عارض النّسيان المستمرّ والمتنامي كي يحرّرني من أغلال الماضي، ويمتّعني بالانعتاق من قيود التّاريخ، وجرائر الأعمال، وسوء المصائر، وضيق الحظوظ.

السّرطان تحوّل من عدوّ خبيث إلى صديق رؤوم حنون، يقضم من ذاكرتي باستمرار بمقدار ألم التّذكّر، ويصادر أحزاني، ويلقي بها نحو العدم، وأنا أراقب أفعاله التّخريبيّة بذاكرتي برضا كامل، واستعداد موفور للرّحيل دون استمهال، أو رغبة في المزيد من الحياة؛ فستّون عاماً من المعاناة هي

مهزلة ملحميّة لا يمكن التّعاظم عليها إلّا بطوفان من النّسيان يغسل كلّ ما فيها من وجع ليلدني من جديد بموت مخلّص مطهّر.

أحتاج فقط إلى أن أستدعي أيّ ذكرى موجعة كي يطفق السّرطان يمزّقها، ثم يأكلها لتختفي من ذاكرتي إلى الأبد.

الآن بات صديقي السّرطان هو حفّار القبور لآلامي، يئدها بصمت في مكان مجهول من روحي، ويلوّح لي بعلامة الانتصار عليها، فأبتسم له شاكرة له على فضيلة النّسيان، ويظلّ الأطبّاء يبحثون عن لغز النّسيان الذي رافق هذا المرض، وأظلّ أتوسّل في سرّي لصديقي السّرطان كي يأكل ذاكرتي دون أن يوسعني ألماً وتعذيباً وتنكيلاً؛ فما هكذا يكون عون الصّديق للصّديقة، فيعتذر السّرطان لي؛ لأنّه لا يستطيع أن ينسى خبثه مهما بلغتْ صداقته لي من مبالغ العون والمحبّة والمؤازرة.

*****

جلس الضّحّاك إلى جانب بهاء التي غدت كومة صغيرة لأنثى حمراء تتكوّم في سريرها منذ أكثر من عام ونصف، إنّه يشعر أنّه مهدّم مثلها، أو أكثر، لقد بقيت بضعة صفحات فقط من مخطوطتها الرّواية ليقرأها عليها، وبعدها لا يدري ماذا يكون؟ هو يخشى أن ينتهي من قراءة مخطوطتها عليها دون أن تستيقظ، يتطيّر من هذا الهاجس المخيف، ويرى روحها تهرب من جسدها مع آخر كلمة سيقرؤها لها من مخطوطتها، لكنّه يجبر نفسه على التّفاؤل، ويجتلب له مشهداً متخيّلاً مفرحاً، وهو يرى بهاء تفتح عينيها، وتقرأ له الكلمات الأخيرة ممّا كتبتْ في مخطوطتها.

كتبت العاشقة: صديقي السّرطان يبـدو متحمّسـاً جـدّاً لاقـتلاع رجـالي الخيبات من ذاكرتي؛ لقد سحق الكثير منهم بمطرقة النّسيان، وبالكـاد أتـذكّر القليل منهم، لقد بقي منهم القليل المتلاشي في ذاكرتي، أمّا المعظم فقد بـاتوا عابرين في كلام عابر كما كـان يحلـو لـثابت السّـرديّ أن يصـف الاحـتلال وأعوانه وأزلامه من الخونة والشّراذم وشذّاذ الآفاق وحطام البشر. وهـا هـم رجـالي خيبـات الأمـل يسـقطون في النّسـيان، ويسـيرون مجبرين في العبـور القسريّ نحو العدم.

لما يبـقَ في ذاكرتـي إلّـا وجـه ذكـوريّ واحـد، لم يجـرؤ السّـرطان علـى الاقتراب منه، وهو وجه الضّحّاك ذلك الرّجل الذي ظـلّ لسـتين عامـاً فتـىً يافعاً يعيش في أعماقي، ولم يصبح رجلاً ناضجاً إلّا عندما رأيت صورته منـذ سنوات على غلاف كتابه عند صديقي المترجم.

ما انفكّ وجهه الطّيب المفعم بالحبور يسيطر على الصّـور في ذاكرتـي، ومـا خلاه من صور يتساقط تباعاً، ويهوي في نيران السّرطان ذليلاً مدحوراً؛ فمـا عاد هناك مكان لغيره في قلبي وذاكرتي.

ما اسم أولئك الذين مرّوا في ذاكرتي؟ لا أكاد أتذكّر أسماءهم، لكنّهم كثـر كثر، إلّا أنّهم الآن قلّة قلّة، وهذا يخفّف عن روحي، ويسمح لقلبي بأن يتّسـع في جسدي على حساب ذاكرتي التي كانتْ تزحم عليّ روحي ونفسي.

*****

كتبت العاشـقة: البارحـة حلمـتُ بـأنّني قـد هربـتُ إلى الضّـحّاك حيـث مسكنه في الجبال كثيفة الغابات، لقد كان الفتى ذاته الذي عشقته منذ نصـف قرن، كان بذات العينين والبشرة والأنـف المـدبّب النّبيـل، لكنّـه كـان بشـعر أشيب ولحية بيضاء مثل سحابة صيفيّة نقيّة اللّون والرّائحة، لقد أصبح فتـىً

بشـعر فضّـي مقـدّس يرفعـه إلى مراتـب القدّيسـين والأوليـاء والصّـالحين والأبرار، إلّا أنّه رفض أن ينظر في وجهي، وقال لـي زاجـراً، وهـو ينظـر إلى أفق في اتّجاه معاكس لوجهي: اذهـبي مـن هنـا. أنـتِ لسـتِ بهـائي، بهـائي الحمراء الفاتنة قد ماتتْ منذ زمن طويل، وما تزال روحها حبيسة ذلك الميتم اللّعين المعتم.

لقد رفضني الضّحّاك كما توقّعتُ منذ زمن. إذن لا جدوى من أن أحلـم بعد الآن بأنّني أخلع الحيـاة كلّهـا، وأهـرع إليـه كـي يعصـمني مـن أحزانـي ووحدتي وقلّة حيلتي. عليّ أن أذهب مع صديقي السّرطان إلى العدم.

*****

إنّها الصّفحة الأخـيرة مـن الرّوايـة المخطوطـة، يقرؤهـا الضّـحّاك بقهـر ودموعه سواكب تتسابق للانتحار على خدّه، أو الانـزلاق في تجويـف فمـه، أو اتّخاذ دربها نحو ياقة قميصه لتهوي عليها عاجزة متعبة ممّا تحمل من غـيظ وحزن وفجيعة وحرقة أنفاس.

لقد كانت آخر كلمات كتبتها بهاء في مخطوطتها قرارها الحاسم بـأن تمـوت، وأن لا تلجأ إليه خوفاً من شبح صدّه لها.

يشعر الضّحّاك بأنّ نياط قلبه قد تقطّعت على أعتاب هذه الصّـفحات مـن المخطوطة، ينظر إلى وجه بهاء المخلص للصّـمت والابتعـاد، ويسـألها بقهـر: لماذا فعلتِ هذا بنا يا بهاء؟ لقد كنـتُ في انتظـاركِ طـوال عمـري. فلمـاذا لم تثقي في حبّي لكِ؟ وأمعنتِ في الابتعاد؟ انظـري إلينـا الآن، لسـنا أكثـر مـن اثنين تعيسين معـذبين، أحـدهما محبـوس داخـل النّسـيان، والآخـر محبـوس خارجه. فما العمل الآن؟ أرجوكِ استيقظي رحمة بقلبينا.

وقف الضّحّاك وحيداً عاري الصّدر والقدمين أمام مدفئة غرفة مكتبه التي أشعلها بصعوبة بسبب شدّة ارتباكه وتشوّش رؤيته من غمامة الدّموع التي تجتاح عينيه وقلبه وروحه.

عندما تبخّرت بعض دموعه من أوار النّار المتعالي في المدفأة، أطعمها دفعة واحدة الرّواية المخطوطة الخاصّة بجميلته الحمراء النّائمة، ووقف يستمتع بتشفٍ وهو يرقب ألسنة النّار تأكل المخطوطة بشهوة ملتهبة، لتحوّلها إلى جمرة ثم إلى رماد في دقائق.

الآن هو لا يخشى أن تموت بهاء بموت كلماتها؛ فهو قد صنع لها كلمات جديدة خالدة في روايتهما المشتركة "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وكتب اسمه واسمها على غلاف الرّواية بوصفهما مؤلفي الرّواية، ودفعها إلى النّاشر الأشهر في الدّول الاسكندنافيّة بعد أن تحمّس لنشر الرّواية باسمها الذي اختاره الضّحّاك لها، وأستأذنه في أن يكتب بخطّ صغير تحت العنوان الرّئيسيّ للرّواية: "حكاية امرأة أنقذها النّسيان من التّذكّر".

فوافق الضّحّاك على هذا الاقتراح مشترطاً على النّاشر أن يصدر روايته في طبعتها الأولى في بحر شهر لا أكثر؛ لأنّ حبيبته النّائمة سوف تستيقظ خصيصاً من أجل حفل إشهار هذه الرّواية، وقد وعدها بأن تحظى بحفل إشهار كبير لروايتها الأولى المشتركة، وهو لا يمكن أن يخذلها فيما وعدها بتنفيذه.

النّسيان الثّامن والعشرون

الرّحيل

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":

"خدعونا عندما جعلونا نعتقد أنّ الحياة هي أنفاس لا غير"

"إنّه يستحقّ النّضال لأجله؛ إنّه القلب العاشق"

"إنّني أؤمن بعظمة الأحلام"

"هو مجرّة وزمن وقيامة"

"كان يمكن أن يكون نبيّاً، لو كان للتّمرّد نبيّ"

"أرى وجهكَ في كلّ مكان، فهل هذا يعني أنّ الأماكن جميعها أوهام مثلكَ؟"

"الحبّ مثل الإيمان يتفلّت من القلب إنْ لم نجدّده"

عامان قد انقضيا، وحمراؤه العنيدة لم تستيقظ من تيهها الطّويل، لقد هجر الحياة منذ أشهر طويلة، وانقطع يجلس أرضاً إلى جانب سريرها، يخدمها، ويبدّل محاليل الغذاء لها، ويتأكّد من أن أجهزة التّنفّس والإنعاش والتّغذية وتشغيل القلب صناعيّاً تعمل على خير وجه، ويمشّط شعرها، ويتأمّل في وجهها منتظراً ولو رمشة منها تؤمّله ببادرة حياة فيها، لكنّها صامتة كما هي صمت القبور، ومنكمشة مثل عدّة قضمات من اللّحم المهترئ.

لقد قرأ عليها مرّة تلو أخرى روايتهما "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" التي كتبها لأجلها، لكنّها لم تستيقظ كما تأمّل، لم تبعثها كلماته من العدم كما توقّع، وظلّتْ حبيبته الحمراء تلهو في البعيد المجهول مع صديقها السّرطان، وما عادتْ قادرة على أن تسمع صوته، أو أن تلبّي نداءاته.

لقد طالت لحيته كما طال شعر رأسه، وبدا بشحوبه المتفشّي في وجهه وروحه وعينيه أكثر منها تيهاً وابتعاداً عن الحياة، وانصرافاً إلى الموت.

صديقاه الاثنان كانا يقفان إلى يمناه يتأملان وجهه الحزين الكسيف الموزّع النّظرات بين وجه بهاء وأكوام نسخ رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" التي نشرها في كلّ مكان في حجرتها في انتظار أن تستيقظ، وتحتفل معه بصدور طبعتها الأولى.

أحد صديقيه تجرّأ بعد تردّد، وقال له بحزن ويأس: يا ضحّاك، لقد آن الوقت كي ترحل بهاء عن هذا العالم؛ يكفيها عذاباً وانتظاراً للرّاحة الأبديّة؛ لقد تعبتْ كثيراً، وتعذّبتْ طويلاً، وهي معلّقة بين عالمي الحياة والموت.

تشجّع صديقه الآخر، وقال له بالنّبرة ذاتها من الشّجاعة والحزم والرّثاء لحاله: عليكَ أن تسمح لها بالرّحيل. إنّها هنا فقط بسبب إصراركِ على هذا.

وجد الطّبيب الفرصة مواتية ليقول ما كان يخشى أن يقوله صراحة للضّحّاك: علينا أن ننزع عنها أجهزة التّنفّس والتّغذية وتشغيل القلب صناعيّاً كي ترحل من هنا؛ لقد قضى السّرطان عليها بشكل كامل، ولن تستيقظ أبداً بعد الآن. إنّها تحتضر منذ أن سقطتْ في هذه الغيبوبة. عليكَ أن ترحمها، وأن تسمح لها بالرّحيل.

ظلّ الضّحّاك صامتاً لا يرفع نظره عن وجه بهاء الذي ضمر حتى برزتْ عظام وجنتيها، وغارتْ عيناها في محجريهما، وظهر أنفها أصغر حجماً، وأكثر دقّة وحدّة، في حين تقلّصت شفتاها إلى حدّ التّبرّم الموحش.

اقتربت باربرا من الضّحّاك، وحضنته من جهة ظهره، وهو يشيح برأسه عنها، وأسندتْ رأسها على عظام ظهره البارزة من شدّة النّحافة، وقالتْ له وهي تنوح بوجع: دعها ترحل يا ضحّاك. أنا سأكون إلى جانبكَ، ولن أتخلّى عنكَ أبداً. دعها تذهب. هي تريد ذلك.

لكنّ الضّحّاك ظلّ صامتاً دون أن ينطق بكلمة، وابتعد عن حضن باربرا، واتّجه إلى سرير بهاء، وضمّها إلى صدره بشدّة وانفعال، وظلّ يتأمّل وجهها، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، كأنّه عابد مجذوب إلى إلهه يناجيه بصمت وانكسار وتضرّع، وينخلع عن أيّ شيء سوى هذه المناجاة المقدّسة في محراب العشق.

*****

منذ ليلة البارحة لم يخرج الضّحّاك من غرفة بهاء، لقد اختلى بها، ومنع أيّ بشر من الدّخول عليهما، خمّن الجميع أنّه في حاجة إلى خلوة بها كي يودّعها بطريقته الخاصّة.

هي كانت في ذلك المساء في شحوب تامّ، وهي مسجّاة في سريرها بسكينة من أتقن ضجعة الموت، أمّا الضّحّاك فقد وضع الباقي القليل من نجوم "الأوريغامي" في حضنه، وشرع يقرأ لها ما كتبته فيها منذ زمن طويل:

"الله هو الحبّ الأكبر"

"الجحيم والفردوس هما في شيء واحد لا غير، وهو الحبّ"

"بعض البشر حمقى إلى حدّ أنّهم ينحرون ما يملكون من عشق كي ينتظروا غيره"

"الحبّ ليس شبحاً نذهل أمامه، بل درب رياحين نسير فيه باشتهاء"

"الحلم هو الحقيقة الممكنة"

"الحبّ هو مَنْ نحبّ"

"إنّه عظيم؛ لأنّه يرى بقلبه"

"ما أطيب قلبه الذّكي!"

"إنّه يوم جديد وأمل جديد بحبّه"

"عندما يصدق القلب تفتح اليدان"

"ما قيمة الفكرة العظيمة دون تنفيذ؟"

"من يُعلّم القسوة يتحمّل الألم"

"العدالة ليست فكرة، بل حركة أو كلمة أو حتى نفس غاضب"

"لماذا عندما نعشق نصبح أنظف؟"

"لا وجود لفكرة مهما عظمتْ إلّا بواقعها الملموس"

"الصّمت هزيمة دائمة"

"التّضحية غباء اختياريّ"

"ليس هناك أيّ دليل على وجود الجنّة إلّا بوجود المحبّة على الأرض"

"المجانين في كلّ مكان حتى في مستشفى المجانين"

"مكتوب على باب الجنّة: لا"

"كلّما ازدادت إنسانيّة الإنسان زادت غربته"

"هذا العالم للأوغاد الملاعين"

"الميقات الوحيد الأمين هو وجيب القلب"

"المشاعر المضبوطة وفق برامج ومواقيت هي محض هراء"

"الدّم كذبة، الرّوابط الاجتماعيّة كذبة، وحدهما الأنس والألفة ضدّا الكذب"

"أنْ لا تستطيع التّوقّف عن الثّرثرة مع من تحبّه يعني أنّكَ تحبّه بقدر عظمة اللّغة"

"كم أعشق السّؤال!"

"كيف تمّ حبسي في جسدي؟"

"أتوق للانعتاق بكَ"

"أحبّ الثّائرين وعشّاق الشّمس ومحترفي التّمرّد"

"هو يحتاج ألف حياة كي تتسع لروحه الفضفاضة"

"ما أشدّ سخافة قصص الحياة! إنّها جميعاً لا تفرح القلب"

"عندما تصبح لحظات الحياة غالية يكون القلب قد عشق"

"كيف مضى العمر هكذا دون فرح؟"

"هي رأته في العدم قبل أن تراه في الحقيقة"

"لا أصدق إلّا ما يستطيع أن ينير روحي"

"الحبّ يطهّر الأرواح مهما كانت خاطئة وملعونة"

"أخيراً هناك سبب لأستيقظ لأجله"

"القيامة غداً؛ فلا تحزنْ"

"إن كان هناك فردوس، فهو الآن في قلبي"

"عندما أغلق عيني أراه متجليّاً أمامي"

"كلما مررتَ في خاطري سجدتْ روحي"

"بكَ أصبحتُ أجمل"

"لا بدّ أنّ الله يحبّ العاشقين"

"العاشقون أنصاف أنبياء"

"لقد كتب البشر تاريخهم بالحروب، ليتهم كتبوه بالمحبّة"

"إنّهم يعترفون بتميزكَ؛ لذلك يعذبونكَ"

"الحبّ هو مَنْ يرد إنسانيتنا إلينا"

"الحبّ يحرّرنا حتى من أنفسنا"

"يا له من عالم بغيض يفخر البشر فيه بالكره، ويخجلون من الحبّ!"

"لا تكتمل إنسانيتنا إلّا بالعشق"

"لنا أن نرتدّ عن القبح لنصبح عاشقين"

"اقرأ على روحي بعض آيات سورة الحبّ"

"ما مغزى الحياة دون حبّ؟"

"أتنفسُ بقصص العاشقين"

"في طفولتي لم أصدّق أيّ قصّة من قصص الرّواة سوى قصّة الأمير العاشق المنتظر".

"أحبّ القلوب عندما تكون معابد، والأنفس عندما تكون أشجاراً شامخة"

"اسمه –في نظري- يختصر عالم الرّجال"

"كلّما شعرتُ بالخوف رتّلت اسمه على روحي؛ لتتقوّى به"

"كيف اجتمع فيكَ هذا النّبل كلّه؟"

"يقول إنّه لا يجيد الرّقص، فكيف إذن تهتزّ الدّنيا فرحاً عندما يُقبل عليها؟"

"هو سليل النّبلاء، لكن روحه الطّيبة سليلة المعذّبين"

"لا تستطيع ابتسامته البحريّة أن تغرق دموع عينيه"

"أمّه تحبّه لأنّها ولدته، لكنّني أحبّه أكثر؛ لأنّه ولدني"

"أرى الحزن في أعلى شموخه"

"هو منطقة التقاء السّماء بالأرض"

"عندما يصمت، فهذا يعني أنّه قد هرب إلى أحزانه"

"حتى شعره له موقفه الخاصّ من الحياة"

"الله يحبّه؛ لأنّه طاهر القلب"

"لا يبكي إلّا على أمر طاهر؛ لذلك لا يبكيه إلّا الحبّ"

"هل التقينا ذات حياة أخرى؟"

"الله خلق القلوب على أنواعها، وترك لنا أن نختار منها ما نشاء"

"الحياة كلّها لا تكفي لنخبر من نحبّه بمقدار حبّنا له"

"معظم قلوب البشر تعيش في ظلامها الخاصّ"

"هناك طريقة واحدة لقتل الحبّ، وهي الإهمال"

"عندما نكتب لمنّ نحبّ لنشتكي لهم من إهمالهم لنا، فنحن نتحوّل إلى كتّاب استدعاءات لا عشّاق".

"أكره أن أصبح مؤرّخة للحبّ، أفضّل أن أعيش عصراً من عصوره الذّهبيّة"

"العاشق الوحيد الذي أجزم بوجوده هو ذاتي"

"لماذا كلّما سألوني عن اسمي هممتُ بنطق اسمكَ؟"

"لماذا ضمير التّأنيث عارٍ في الحبّ؟"

"من قتل الحبّ لُعن به"

"لماذا يحبّني من لا يسعدني؟ ولا يسعدني من أحبّ؟"

"أحياناً يغدو الشّيطان هو المسؤول الأوحد عن مصائر القلوب العاشقة؟"

"إن كان العشق هو ربيع القلوب، فما هو شتاؤها؟"

"يقال إنّ العشق قاتل، لكنّه -دون شكّ- قتل له لذّة"

"إن كنتُ سأموت في الأحوال جميعها، فأنا أريد أن أموت بالحبّ"

"لا أخاف الموت؛ فهو بالتّأكيد أرحم من الحياة"

"كم هي لذيذة الفاكهة المحرّمة!"

"الإنسان الذي طُرد من الجنّة لأجل معدته، ليته طُرد منها لأجل قلبه"

"وحده الله من يثمّن الحبّ عندما يحشر في الآخرة كلّ امرئ مع من أحبّ"

"أؤمن بأنّ الله سيعاقبنا على زلاتنا جميعها إلّا زلات العشق"

"كلّما تأجّجت نيران قلبي أدركتُ حجم الصّقيع الذي كان يسكنه"

"هناك نوعان من القلوب: قلب عاشق، وقلب لا يستحقّ العشق"

"كم هو مخزٍ تاريخ البشريّة الذي يعدم العشّاق، ويغضّ الطّرف عن المجرمين الكبار"

"أتمنّى أن يُحصى نجاحي بعدد حسّادي"

"يقولون إنّ من يموت يذهب إلى الله، إذن نحن الآن في جوار من؟"

"يقولون لو عشق الشّيطان لأصبح ملاكاً"

"عجيب أمر النّاس يخافون من الحبّ، ولا يخافون من الكره!"

"الحبّ العظيم كالزّجاج الصّافي بسهولة ينشرخ بشكل كامل"

"فكرة الحبّ لا قيمة لها ما لم تصبح سلوكاً معاشاً"

"القلوب العاشقة بصدق هي دائماً ذكية لا تُخدع "

"القلوب تجيد تميز القلوب التي تحبّها"

"مخذول قال: اعشقْ من تشاء، سوف تندم في الأحوال جميعها"

"يقولون: لا تزعلْ من حبيبك، ازعلْ من نصيبك".

"قال لها يوماً: إنّ الحبيب يجب أن يكون غريباً، فهل كان يعني أنّه سيستمرّ غريباً؟"

"كيف كان يبدو قبل أن يصبح إنساناً، ويغادر ملائكيته الصّافيّة؟"

*****

في صبيحة اليوم التّالي كان وجه الضّحّاك المزرقّ مثل مومياء مبعوثة من الجحيم على حين غرّة هو أوّل ما رافق اندلاق الشّمس في حجرة المعيشة حيث قضى صديقاه والطّبيب وباربرا ليلتهم قلقين في انتظار أن يخرج إليهم من خلوته مع بهاء، ويسمح لهم بفصل أجهزة التّنفّس والإنعاش عنها كي ترحل إلى العالم الآخر بسلام.

تفرّسوا جميعهم في وجهه دون أن ينبس أحدهم ببنت شفه، في حين بادرهم الضّحّاك بفتح كفّ يمينه، وقال لهم، ودموعه تتشبّث بعينيه، وترفض أن تغادرهما: ما تزال هناك الكثير من نجوم "الأوريغامي" التي لم أقرأها لها بعد.

*****

كان أربعتهم يتابعون جسد الضّحّاك بعيونهم المندهشة وهو يقف تماماً تحت الثّريّا الكريستاليّة، ويشرئب بنظره نحوها، كأنّه يلتمس من نورها بعضاً

من الإنارة لروحه المعتمة بالحزن، ثم يبدأ يتمايل راقصاً في المكان على وقع صمت رهيب يلفّهم جميعاً بالخوف، وهو ينتقل من زاوية إلى أخرى باستدارات راقصة، من الأرض إلى سطح طاولة غرفة المعيشة إلى سطح الأرائك الموجودة فيها، ومن ثم نزولاً راقصاً إلى الأرض من جديد حيث يقرع سجّادة الغرفة قرعاً بأطراف أصابعه كعصفور مذبوح يضرب بجسده الجدران والأسقف حتى يدكّ جناحيه، وروحه تغادره لحظة تلو الأخرى.

*****

عندما أدرك التّعب جسد الضّحّاك من رقصه المذبوح الموجع، سقط أرضاً، ثم زحف بانكسار إلى كرسي البيانو القديم العريق المركون منذ سنين بالقرب من الباب الزّجاجيّ الكبير الذي يفصل غرفة المعيشة عن الحديقة الخلفيّة للبيت، واعتلاه بصعوبة، وأطلق أصابعه تعزف على مفاتيحه مقطوعة لم يسمعها، أو يعزفها من قبل، لكن أصابعه المرتجفة النّبيلة الطّول والاتّساق قادته إليها كيفما اتّفق، في حين يلمع خاتم الزّواج الذّهبيّ في بنصره بتوهّج غريب.

*****

ظلّ الضّحّاك يعزف محزوناً على البيانو لساعات حتى غلبه الإعياء والنّعاس، وغفا على لوحة مفاتيحه، ودموعه الحرّى تهرب من عينيه، لتجد مستقرّاً لها على المفاتيح الأبنوسيّة والعاجيّة .

أمّا الجميع فظلّوا ينتظرون بقلق أن يستيقظ من غفوته المداهمة له بعد رقصه المنفعل وعزفه الطّويل كي يعلن لهم موافقته المأساويّة على فصل أجهزة تشغيل القلب صناعيّاً والتّنفّس والإنعاش عن بهاء لتتخلّص من أسرها المعذّب في أرض التّخوم بين الموت والحياة .

النّسيان التّاسع والعشرون

المُعتقل

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"في الظّلام أستطيع تمييز الأنفاس العاشقة"
"القلب المتدفّق ينتقم لنفسه بالصّمت الجارح"
"العشّاق آخر النّاجين من سكّان مملكة الحبّ"
"هل النّور مادة طهارة أم كشف؟"
"ماذا لو كُنّا خُلقنا شفّافين، هل كان الآخرون سيرون جداول الألم تجري في دواخلنا؟"
"إنّه قادر على الابتسام على الرّغم من أحزانه"
"الأرواح هي وحدها الحرّة في هذا الكون؛ لذلك تهب ذاتها لمن تشاء"

عندما استيقظ الضّحّاك في منتصف اللّيل، وجد عدداً من مفاتيح البيانو قد انغرست في أديم خدّه الأيمن، في حين جفّت دموعه في أخاديد وجهه، وتيبّست روحه ورعشات قلبه كما تيبّست رقبته المتشنجّة، وخفت النّور في عينه المصابة. تحسّس نجوم "الأوريغامي" في جيبه، فوجدها قابعة في مكانها حيث دلقها فيه.

كان الجميع حوله نياماً على الأرائك في الغرفة، لم يتنبّه أحدهم إلى صوت أنفاسه المخنوقة، وهو يسير بانكسار خارجاً من الغرفة، ارتقى درجات السّلم الدّاخليّ للبيت، ووصل إلى جناح غرف النّوم، كان الممرّ مظلماً إلّا من حزمة نور منداحة من تحت باب غرفة بهاء.

توقّف قليلاً أمام باب غرفتها، وفكّر في أن يدخل إلى غرفتها كي يقرأ لها الباقي من نجوم "الأوريغامي" قبل أن يأتي الصّبّاح بما يحمل من قراراته المؤلمة المنتظرة، خطا خطوتين نحو باب غرفتها، وهو يتحسّس النّجوم في جيبه، وقبل أن يلمس رتاج الباب، ارعوى عن قراره، وأدار ظهره، وأكمل دربه

المحزون نحو باب غرفته، ما كاد يدلف إلى داخل الغرفة حيث يجثم الظّلام على تفاصيل المكان، حتى سمع لهاث باربرا يمزّق صمت الظّلام في غرفته، وهي تدلف خلفه إلى الغرفة.

اقتربتْ منه مداهمة لسكونه الجنائزيّ، والتصقتْ بجسده المكلوم، كان جسدها حارّاً، وأنفاسها أكثر حرارة من جسدها. بدتْ له أضخم جثّة ممّا هي في الواقع، وشعر باستسلام ذليل لها، وهي تغرز أصابعها في خصال شعره الفضّي المنسدل على ظهره، وتمرّغ وجهها في شعر لحيته البيضاء الموات مثله، ثمّ تفكّ أزرار قميصه، وتعرّي صدره، وتمطر رقبته بقبلها المتتابعة، ثم تشدّه من يده نحو السّرير، لم يستطع أن يقاومها، وشعر لأوّل مرّة بحمى شبقة تنتقل من جسدها إلى جسده، وهي ترتمي عليه، كما شعر بخوف عملاق من جسدها الجائع الذي له خوار مثل خوار ثور يغرز قرنيه في قلب مصارع نبيل عاري الصّدر.

لقد كان مسلوب الرّوح والأمل، والخيبة تقرش روحه، وهي تعرّي جسده من الباقي عليه من ملابس، وتندسّ إلى جانبه في السّرير، ثم تلقي سريعاً بآخر قطعة من ملابسها بعيداً عنها، لقد كان لهاثها محموماً، ورائحة جسدها خليط من رائحة الفودكا والتّعرّق والاشتهاء والعفن، أمّا ريقها، فكان غزيراً حارّاً، وهو ينسكب من شفتيها على شفتيه ورقبته وسائر أعضاء جسده، فيدبّق جلده، ويزيد احتراق جسده، ويؤجّج شبق رغبتها التي تجعلها تجأر، كأنّ بها لوثة جنس تتملّكها بشكل كامل.

حاول أن يكبت صراخها بيديه، لكنّها تأبّت على رغبته، وظلّت تتلوّى وتصيح، كأنّها تعلن أنّها قد ملكته أخيراً، وهو ينوح في حضنها موتوراً عارياً من كلّ شيء كان يعمر روحه أو جسده، ويستسلم لها كما يستسلم

ظبي كسير القدمين لوحش ينهش جسده بتلذّذ؛ فبعد أن يئس من عودة بهاء إلى الحياة لا يستطيعُ أن ينأى بجسده عن أيّ امرأة تريد أن تقتات به، حتى ولو كانت باربرا التي جفاها منذ أن حطّت حمراؤه في حياته.

النّساء جميعهنّ عنده سواء في هذه العتمة في روحه وفي غرفته ما دامت بهاء قد خذلته، وانحازتْ للسّرطان والموت، تستطيع باربرا الآن أن تأكل منه بقدر ما تشتهي حتى تشبع؛ فلا معنى عنده الآن لجسده أو روحه أو أزمانه المقبلة.

مرّة تلو أخرى تخور باربرا شهوة، وهي تقطف ذروتها، ثم تهاجمه من جديد دون شبع منه؛ كأنّها تريد أن تمتصّه حتى النّخاع، وتعاقبه على هجره الطّويل لها، وهو لا يعطيها منه إلّا ما هو حيوانيّ متمرّد عليه، ومتحفّز لأيّ جسد أنثويّ كان، أمّا الباقي القليل منه، فيغطّيه بجفنيه، ويغلق عليه بإحكام، ويهرب منها ومن نفسه نحو البعيد الذي لا يكاد يدرك منه إلّا تخوم بوابة روح بهاء التي يناجيها متضرّعاً لها كي تستيقظ من سباتها الملعون كي تنفض باربرا عنه، وتغسله بدموعها لتطهّره من رائحة امرأة سواها.

يكاد يشمّ رائحتها الصّندل تهبّ عليه، ينتظرها طويلاً، لكنّها لا تأتي، ولا تدرك استغاثات روحه ومياتم جسده الذي تنسّك وترهبن منذ أن وجدها بعد فقد طويل، في حين تلتصق باربرا به أكثر فأكثر، وتثبّت وجهه في مواجهة وجهها بأصابعها التي تجوب شعر رأسه بحريّة، فيشدّ يده اليسرى إلى صدره كي لا تلمس باربرا خاتم الزّواج الذّهبيّ الذي حصل عليه من بهاء.

يشعر الآن بأنّ باربرا تستغلّ ضعفه وحزنه في هذه اللّيلة كي تفتك به، وتمزّق عذريته التي صنعها من جديد بعد أن نزلت بهاء ضيفة على روحه

بعد طول هجرها له؛ لطالما أطعم جسده للنّساء كيفما اتّفق، لاسيما للنّساء الحمراوات، ولطالما ضاجع باربرا في الماضي في نوبات سكره وعربداته وجوعه، وما شعر في يوم بما يشعر به الآن من امتهان له، وإغارة بشعة على روحه وجسده.

يحدّث روحه برغبته في الانتفاض على باربرا التي تشرب من جسده وروحه دون ارتواء، ويحرّض نفسه على دفع جسدها بعيداً عنه، لكنّه لا يفعل ذلك؛ لأنّه لا يقوى على الشّعور بالبرد من جديد، وجسدها يغمره بدفء حارق، فيستسلم لها أكثر مغمض العينين، مرهف السّمع للممرّ المؤدّي إلى غرفته لعلّ الغيرة تشعل الحياة في جسد بهاء، وتسوقها إلى غرفته، لتنهي هذه المهزلة الجنسيّة التي تحرقه بأوارها، وتقدّمه أضحية عاجزة على مذبح الجسد.

*****

ظلّت رائحة بهاء تسري إلى أنفه، لكنّها لم تدركه كما أمّل نفسه، وخذلته من جديد، وتركته في حضن باربرا التي خمد خوارها بعد أن ارتوت ممّا اشتهتْ، وأسلمتْ جسدها العاري لسريره، والتصقتْ به، وأرسلتْ شعرها الأشقر النّاعم الدّبق على صدره العاري المختنق بأنفاسه ووجيبه، واستسلمت للنّوم، وتركته يغرق في دموعه ونحيبه متحسّراً على جسده المغتصب، وعشقه المسلول من روحه.

جسده الخائن تجاوب مع جسد باربرا، لقد استفحل معها، كأنّه ينتظرها، وأدّى ما عليه أن يؤدّيه بكلّ ما تملك الذّكورة من إشباع للأنوثة، لكنّه على الرّغم من ذلك يعدّ هذا اللّقاء الجنسيّ اغتصاباً له؛ فهو لم يرغب به، ولم يسعَ إليه، وحتى عندما تجاوب جسده معه، فقد فعل ذلك بذاكرته الخاصّة

وبأدواته المستنفرة التي تنتصر الحيوانيّة عليها، ولم يفعل ذلك بإيعاز منه، أو برضا مرهون بإرادته.

ها قد أصبح الآن مغتصباً كما أُغتصبتْ بهاء، بل هذه حلقة جديدة في سلسلة الاستباحات لجسده، لقد فقد جسده جبراً لأكثر من مرّة، كما فقدته بهاء مراراً وتكراراً، وإن كانت هي قد هربت إلى نسيان ذلك بالاستسلام للمرض والموت والغيبوبة، فهو قد لجأ إلى دفن الماضي في أعماقه، كي يعكف نفسه على الحاضر المقطوع عن أيّ حدث ماضٍ.

لقد ظنّ أنّه نسي ذلك بشكل كامل كما أمر ذاكرته أن تفعل، لكنّه اللّيلة يتذكّر تماماً وجع الاغتصاب وذلّه وحرقته وذلك العسكريّ الوغد يملص بنطاله وملابسه الدّاخليّة، ويغتصبه مقنّعاً على مرأى من المعتقلين المعذّبين والجنود وقائدهم الضّابط؛ كانوا يريدون أن ينتزعوا منه أسماء لا يعرفها، وتفاصيل أحداث لم يشارك بها، وأفكاراً لم يزرعها ثائر أو مصلح في رأسه؛ لم يكن أكثر من صبيّ بريء اتهّمته مديرة الميتم العانس بسرقة أموال من الخزنة كي تتخلّص منه، وسرعان ما وجد نفسه في السّجن مع زمرة من المعتقلين السّياسيين الذين لم يفهم من كلامهم يومها سوى أنّ الحريّة أغلى من الحياة.

لقد أصبح فجأة معتقلاً سياسيّاً خطيراً؛ لأنّ سجلاّت الزّبانية تقول إنّ والده كان -في زمن غابر لم يدركه- فدائيّاً مدافعاً عن بعض أرض الأمّة؛ لذلك عليه أن يدفع ثمن تهمة الفدائيّة العار التي وسم والده نفسه بها، وأورثه جرائرها السّوداء في زمن المتخاذلين والجبناء والخونة.

عندما دخل إلى المعتقل ذاق طرائق تعذيب لا تخطر في بال الشّيطان كي يعترف بما لم يقم به، لكنّه ظلّ مخلصاً للصّمت والإنكار عملاً بنصيحة أحد

المعتقلين القدامى الذي أخبره بأنّه سيُقتل في اليوم الذي ينتزعون منه الاعتراف الذي يريدونه منه؛ لذلك أخلص للصّمت والإنكار على أمل أن يكون له نصيب في النّجاة في يوم ما.

تماماً كما أخلص في الماضي للصّمت أمام كذبة مديرة الميتم العانس التي كانت تبدي ضجرها الدّائم منه أمام الجميع؛ لأنّها ضاقت ذرعاً -بما تسميه زوراً وتلفيقاً- تمرّده على أوامرها، وتحريض الطّلبة على عصيانها، في حين هي في حقيقة الأمر حانقة عليه؛ لأنّه لم يتجاوب مع محاولاتها للتحرّش الجنسيّ به، وهو الصّبي الذي يملك جسداً فتيّاً مثيراً ممتدّاً رشيقاً، وكان يمكن أن يهبها بعض البهجة والمتعة بأنوثتها المتأبّدة لولا أنّه دفعها بعيداً عنه، وبصق في وجهها، وركلها برجله، حتى كاد يكسر فخذها الرّفيع مثل جسدها القصبة.

عندها لطمته، وألقت به خارج الميتم في منتصف اللّيل كي لا يروي لأحد ما جرى بينهما في اللّيل، ثم زعمتْ في الصّباح أنّه قد هرب من الميتم ليلاً بعد أن سرق المال من خزنته، وقدّمت شكوى ضدّه عند شرطة المدينة، وشهدت مساعدتها الشّمطاء العاقر على ما زعمته من افتراءات ضدّه.

حداثة سنّه، وصمته الملغز أغريا السّجانين بتعذيبه أكثر فأكثر بعد أن أذلّوه اغتصاباً، ثم شبحوه عارياً على دكّة التّعذيب لأيّام طويلة، وعندما انطفأ ظلام إحدى عينيه من كثرة ما ضربوه على عينيه، قرّر أن يخرج عن صمته، وأن يعترف لهم بما أرادوا أن يسمعوه منه، ووقّع لهم على ما أرادوا من محاضر الاعتراف غير آبه بمصير أولئك الذين اعترف عليهم تلفيقاً، ولا يعرف منهم سوى أسمائهم المكتوبة في محاضر الاعتراف التي وقع عليها .

بعد اعترافه بأيّام ورد الكثير من المعتقلين على سرداب التّعذيب، وخال أنّ الكثير منهم هم ممّن اعترف عليهم زوراً وبهتاناً، لكنّه لم يبالِ بصراخهم واستغاثاتهم، وما رقّ قلبه لعذاباتهم، وما قرصه ضميره وهو يسلمهم للجحيم بشهاداته الزّور واعترافاته الملفّقة؛ فكلّ ما كان يعنيه هو أن يخرج من هذا المكان بنور في إحدى عينيه على الأقل.

سرعان ما لفظه المعتقل خارجه بوساطة ابن عمّ أبيه الذي توصّل إلى مكانه بفضل ماله الذي بذله بسخاء حتى وجده، وأخرجه من المعتقل بمقدار وزنه من المال الذي قدّمه رشوات لزبانية الجحيم كي يخرجه منه، بعد أن سمع عن قصّته من أقاربه الذين كان يزورهم نادراً في زياراته القليلة السّريعة إلى وطنه المخلوع منه وعنه، عندها تعاطف مع الضّحّاك؛ لأنّ والده كان صديق شبابه ورفيقه في النّضال وهما يقاتلان في جبهة تحرير في إحدى القرى المداهمة من العصابات المتنمّرة على المسالمين العزّل، يومها كانا يملكان الكثير من العزّة والإباء والدّفاع .

لقد بقي والده عالقاً في مصيدة الخراب والذّل حتى مات مختنقاً بغاز المدفأة النّفطيّة مع زوجته بعد أن مات ألف مرّة قبلها بذل الهزيمة والخذلان والخسارة، في حين هاجر ابن عمّ والده إلى بلاد الثّلج؛ لعلّه يجد فيها ما أضاعه في صحارى الحيرة والذّل.

عندما خرج الضّحّاك من سرداب التّعذيب، ورُكل خارج المعتقل، أدرك وهو يرى النّور لأوّل مرّة من أشهر أنّ هناك بقايا إبصار في عينه المعطوبة، وعندما ارتمى في حضن ابن عمّ والده الذي التقى به لأوّل مرّة في حياته همس في أذنه بتضرّع قائلاً: خذني بعيداً عن هذا المكان.

لم يصدّق الضّحّاك أنّه قد نجا من المعتقل وزبانيته إلّا عندما تشبّث بيد ابن عمّ أبيه الذي طلب منه أن يناديه بـأبي، ودفن رأسه في صدره، وهـو يجلس إلى جانبه في الطّائرة التي تناطح السّحاب، وتشقّه بانسيابيّة خلاّبة؛ لتنقذه من أرض الوجع والحرمان، يومها همس ابن عمّ أبيه في أذنه قائلاً: عليكَ أن تنسى كلّ ما حدث معكَ هنا، بل عليكَ أن تنسى أنّكَ مررتَ في يوم ما بهذه البلاد الملعونة، انساها تماماً، وتذكّر فقط المقبل من حياتكَ السّعيدة الآمنة هناك حيث أنتمي الآن.

الضّحّاك لم يستطع أن ينسى يوماً ما كابده من عذابات خرافيّة، لكنّه مثّل النّسيان على ابن عمّ أبيه وعلى نفسه حتى صدّق أنّه نسي درب توّجعاته، وانهمك في رعاية عينه المصابة وفي تلقّي العلاجات الطّويلة لها حتى عاد إليها الكثير من نورها، لكن ظلاماً ما ظلّ يغشاها من وقت إلى آخر، ويقضّب جفنها، ويوتّر ترميشها، حتى اعتاد على ذلك، وما عاد يتذكّر أنّ بعض الظّلام يسكنها إلّا عندما يطالعها في المرآة، فيراها أصغر حجماً من نظيرتها العين الأخرى، أو عندما تدمع قهراً عنه، وتصاب بحرقة شديدة.

ظلّت عينه تذكّره بوجعه، لكنّها لم تستطع أن تذكّره يوماً باغتصابه بوحشيّة؛ لأنّها لم ترَ ذلك وهي مصلوبة إلى الحائط لا ترى غير الإسمنت البارد المخدّش الخشن، فيما جسده ملك حرام لمغتصبه المتوحّش، فقط أعماقه المحترقة هي من رأت ذلك الاغتصاب الذي طواه في أعماق ذاكرته، ونسي أنّه كان، وحاول أن يمضي فرحاً في حياته التي بدت جميلة في بيت ابن عمّ أبيه حيث زوجته الإغريقيّة الحنون.

لقد نال كلّ فرح وسعادة بعد طول ألم، وعاش حياة الرّفاهيّة، وتفرّغ للعلم والأدب اللّذين يحبّهما، ومارس الهوايات التي يعشقها جميعاً؛ لقد غنّى

ورقص وسبح وتزلّج وكتب وعزف ومثّل في مسرحيّات وسافر وتجوّل وذهب في رحلات صيد واستكشاف، ونال كلّ ما اشتهت نفسه من نساء وإبداع ونجاح وثراء وشهرة وتحقّق ورفاهيّة وسعادة، وعاش الفرح في حياته لما يكفيه كي يردّد مقولته الشّهيرة "أشهد أنّني قد عشتُ".

لقد انتزع من الحياة كلّ شيء أراد انتزاعه منها خلا بهاء التي ضنّت الحياة عليه بها، وحبستها بين الموت والحياة.

الآن وهو متربّع في سقف الدّنيا كما يسمّى وطنه الثّلجيّ، ويربض تحت هذا الجسد الآري الأنثويّ الذي اسمه باربرا، يشعر أنّه ما يزال في سرداب المعتقل، وأنّ حياته الماضية كلّها ليست إلّا حلماً لذيذاً من أحلام غيبوباته عندما ينجيه الإغماء من العذاب حتى يستيقظ، والآن يدرك أنّه ما يزال يُغتصب مرّة تلو الأخرى.

جلد باربرا ناصع البياض مثل الثّلج، لقد ذكّره بتلك الدّببة القطبيّة التي كان يذهب إلى عوالم شعب "لابلاند" وما وراءها كي يراها من بعيد، في حين تجري غزلان الرّنة قطعاناً مثيرة تحرث الثّلج والبرد، وتغازل ذلك الوهج الأبيض الذي يعمي العيون.

جلدها ليس أحمر مثل جلد حبيبته بهاء، كما هي ليست فاتنة مثلها، لكنّها –دون شكّ– مدنّسة أكثر منها؛ فحبيبته الحمراء كانت تبيع جسدها كي تأكل وتعيش، في حين أنّ باربرا كانتْ تتبرّع بجسدها لمن يطرقه استسلاماً لغواية الرّخص والافتتان والعبّ من ارتواءات الجسد بعد أن كفرت بالزّواج الذي كانت تصفه بأنّه دعارة شرعيّة في بلاد لا تجرّم الدّعارة.

أمّا هو، فكان موزّع الجسد بين أجساد النّساء العابرات في روحه وبين ذكريات السّجّان المغتصب له الذي ما يزال يحفظ صوت فحيحه، وهو ينقضّ عليه يفرغ سمّه في جسده اليافع البريء.

اللّيلة يرثي أكثر لحال حبيبته بهاء التي نهشتها الأقدار دون رحمة، وألقت بها مستضعفة في مياتم الدّنيا ميتماً تلو الآخر، وتركتها تمارس البغاء بأشكاله كلّها في عالم يدين للبغايا والقوّادين، ويهزأ من سذاجة الطّهارة، وثقل ظلّها.

لقد قرأ كلّ ما كتبته بهاء من ذكريات عن حياتها البائسة في روايتها، ثم مزّق كلّ ما كتبتْ، واختطّ لها ذكريات جديدة ذات بهاء يشبه بهاء جمالها الأحمر في روايتهما "أَدْرَكَهَا النّسيان"، لكنّها لم تعبأ بأقدارها الجديدة التي حاكها لها في روايتهما الأسطورة، وهجرتْ هذا العالم دون عودة.

ليتها مَنْ كانت الآن عارية في حضنه؛ ليبكي على صدرها، ويهمس لها بأسراره، وينعى لها طفولته التي احترقت كاملة في الميتم والشّوارع والمعتقل، وما أدرك منها سوى القليل الذي عاشه في بلاد الثّلج.

كم يحتاجها الآن كي يفشي أسراره لها، ويتقيأ أحزانه عند قدميها، ويخبرها بأكاذيبه التي كذبها حتى صدّقها؛ فصدّق أنّ الضّحّاك الصّبي اليافع البريء لم يدخل المعتقل في يوم ما، وأنّ عمّه أدركه في الشّوارع قبل أن يضيع فيها، وحلّ مشكلته مع شرطة الأحداث التي تبحث عنه، وتعهّد بكفالته بدل سجنه على أن يتحمّل المسؤوليّة القانونيّة إن عاد إلى السّرقة من جديد، ودفع الغرامات المترتّبة على اتّهامه بالسّرقة، ودفع للميتم الأموال القليلة التي زعمت مديرته بهتاناً أنّ الصّغير اليتيم قد سرقها منه، ثم طار به بعيداً نحو فرح الثّلج ورحمته وعدالته.

لقد أتقن كذباته التي زوّرها كما يشتهي؛ فأخبر الجميع في عوالم الثّلج والصّقيع أنّه سليل أمراء الشّرق، وأنّ جدّه الأكبر كان يملك آبار نفطيّة قبل أن يخسرها على طاولة القمار، وأنّ والده كان من أعاجيب دهره؛ لأنّه وُلد بأسنان بعد أن حملت أمّه به لعامين كاملين، وأنّه طار نحو نجم في السّماء في ليلة قدر، واختفى هناك إلى الأبد.

لقد ظلّ يكذب على الجميع حتى تحوّل إلى الكذب على الورق لينسى أوجاعه جميعها، فنجح في ذلك، وأصبح روائيّاً شهيراً؛ لأنّه يجيد أن ينقل الألم من الصّدر إلى الورق.

اللّيلة لا يريد أن يتلوَ على نفسه سوى أحزانه التي اسمها ذكرياته والاغتصابات المكرورة لإنسانيته في الميتم والشّارع والمعتقل، ولا يريد أن يحلم بأيّ امرأة سوى حمرائه الفاتنة النّائمة حتى ولو كان عارياً في حضن هذه العاشقة الشّقراء الضّخمة التي قضمته، وقرقشتْ عظامه، ونامتْ في جلده، وزكمتْ أنفه برائحتها الخانقة لروحه وفرحه.

النّور في عينه المصابة يخفت حتى لا يكاد يرى بها، فيغمض عينه الأخرى، ويستسلم للضّحكات المبحوحة المترعة بأنوثة حمراء اسمها بهاء، ويتذكّر ذلك اليوم الذي حملها فيه في بيته هذا، وأخذها إلى غرفتها، وعرّاها من ملابسها، وحمّمها، وألبسها ملابس النّوم الدّافئة، ووضعها في سريرها، ومسّد عليها حتى نامت، يومها كان دفء جسدها الغضّ الصّغير يخترق جلد يديه، ويحرّق جموح رجولته، ويؤلّب ذكورته عليه، لكنّه تعاظم على نداءات رجولته، وأغمض عينيه وهو يحمّمها كي لا يحرّق جسدها احتماله المعذّب الهشّ، وداس على عشقه وانتظاره واشتهائه لها، كي يقوم بواجبه

المقدّس برعايتها وصون جسدها من أيّ اعتداء، ولو كان اعتداء مـن جسـده العاشق لها.

*****

بين اليقظـة والحلـم في هـذه اللّيلـة الموحشـة رأى الضـّحّاك حبيبتـه بهـاء تتعرّى، وتضاجعه طويلاً، ثم تثبّت زهرة لافنذر خلـف أذنـه، وتهمـس لـه: أريد أن أذهب. أرجوكَ اسمح لي بالذّهاب. لقد تعبتُ من الحياة والألم.

استيقظ الضّحّاك مفزوعاً من حلمه، وترك سريره المقيت بما احتـوى مـن شهوة مغتصبة لألمه ووحدته وجزعه، وجلس عارياً على كرسي بالقرب مـن السّرير، ومدّ يده إلى جيب بنطاله الذي التقطه من الأرض بعـد أن تعثّـر بـه، وأخرج ما فيه من نجوم "الأوريغامي"، وشدّ عليها بكلّ ما يملك من قوّة، كأنّـه يخشى أن يدركها جسد باربرا، فيهصرها، وهمـس لنفسـه بجسـرة: مـا تـزال هناك الكثير من نجوم "الأوريغامي" التي لم أقرأها لها بعد.

النّسيان الثّلاثون

الماضي

مكتوب في نجوم "الأوريغامي":
"القبلة تصبح عظيمة عندما تهبط على شفاه عطشى للحبّ"
"العقل ليس الأسمى؛ إنّه فقط الأكثر دربة على تصدير الألم إلى غيره"
"الحبّ ليس أكبر منّي، إنّني أعظم منه"
"الحبّ يصبح كائناً حيّاً له سيرة ما عندما يخفق في قلب عاشق"
"الكلمة لا تصبح كائناً حيّاً إلّا عندما تمارس تمرّدها وتسكّعها وتصعلكها"
"كلّما ضاقت الدّنيا عليّ فكرتْ بكَ؛ عندها يصبح العالم رحباً من جديد"
"هل العشق بين القلوب حدث سماويّ أم أرضيّ؟"

ابتسامة الضّحّاك هي من كانت تغمر بهاء بالاطمئنان والفرح في حفل إشهار روايتهما المشتركة "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"؛ فهي قد حصلت على ذاكرة جديدة كذاكرة طفل وليد، ليس فيها إلّا اسم الضّحّاك ووجهه مقطوعين عن أيّ ذكريات أخرى ماضية؛ فالسّرطان قد قضم ذاكرتها كاملة، ولفظها في البعيد المجهول، ولم يبقِ لها منها سوى وجه الضّحّاك واسمه.

حالتها المرضيّة مع النّسيان والسّرطان قد أدهشتْ الأطبّاء، وحيّرتهم؛ فهي حالة فريدة لم يروا مثيلاً لها من قبل؛ لقد استيقظت أخيراً من غيبوبتها في صباح اليوم الذي كان ينوي الضّحّاك فيه أن يرفع عنها أجهزة التّنفّس والإنعاش والتّغذية، بعد أن أكل السّرطان ذاكرتها بشكل كامل، وأذاب جسدها حتى كاد يبخّره.

لقد عادت بهاء إلى الحياة بخلاف ما كان يتوقّعه الأطبّاء من بقائها في الغيبوبة حتى الموت، بعد أن عادت أعضاؤها إلى العمل الطّبيعيّ دون أيّ معونة طبيّة خارجيّة، كأنّها لم تتوقّف لعامين عن العمل بشكل ذاتيّ، ثم

توقّفت هجمة السّرطان على أعضائها، وانحسرت حتى ما عادت تحتاج علاجاً منه إلّا للدّواء الهرمونيّ المضّاد لانقسامات الخلايا السّرطانيّة، وبضعة جلسات من العلاج الكيميائيّ التي خضعت لها سريعاً وبنشاط وتحمّس، ثم بدأت تتعافى بشكل مثير للدّراسة بحثاً عن تفسير علميّ مقنع لهذه الحالة المرضيّة الاستثنائيّة.

لقد عادت بهاء طفلة من جديد بذاكرة نقيّة لا مكان فيها لأيّ ذكرى أو وجع، إنّها الآن طفلة في السّتين من عمرها، تلبس ثوبها الورديّ بفرح وفخر، وتفرح بشعرها الأحمر القصير الذي نبت منذ مدّة قصيرة بعد أن سقط كلّه في رحلة العلاج الكيميائيّ التي قطعتها سريعاً لتتشافى من آخر بقايا السّرطان.

تتعلّق بهاء بذراع الضّحّاك فخورة به، وتغذّ الخُطى بحماس كي تصل إلى قاعة الاحتفال بإشهار روايتهما كي يوقعاها معاً في حفل إشهار كبير في أشهر محفل ثقافيّ في المدينة، وتزهو بفخر طفوليّ كلّما ضمّها الضّحّاك إلى صدره، وطبع قبلة مشتهاة على شفتيها، والتصق بها بشرهٍ طفوليّ ليشمّ رائحتها المزيج الغريب بين رائحة البنفسج ورائحة خشب الصّندل.

وكلّما حاصرتها أسئلة الإعلاميين، وأعيتها الإجابة عنها خبأت رأسها في صدر الضّحّاك، وقالتْ له بخوف: لا أعرف عمّا يتكلّمون. أريدُ أن أعود إلى البيت.

عندئذ يضحك الضّحّاك ملء فيه وروحه من خوفها الطّفوليّ البريء، ويضحك معه أخوه بالتّبني جورج سليم الذي جاء من بريطانيا حيث يقيم كي يشاركه فرحه، ويضحك كلّ من حوله متأثرين بحبوره السّامق الذي يصبغه على الجميع، ويشملهم به، وهو ما يزال في سورة فرح تلك اللّحظة

الخالـدة عنـدما استيقظتْ بهـاء مـن غيبوبتهـا قبـل فصـل أجهـزة التّـنفّس والإنعاش والتّغذية عنها بأقلّ من سـاعة، ونظـرتْ في عينيـه، وابتسـمتْ لـه بفرح طفل بريء فتح عينيه على وجه أمّه، وقالـتْ لـه: أنـتَ الضّـحّاك. أنـا أعرفكَ.

في حين غرقتْ باربرا وصديقاه والطّبيـب في دهشـة بكمـاء لا حيـاة فيهـا سوى في جريان دموع باربرا على خدّيها، وهي تـرى الضّـحّاك يتـنفّس حيّـاً من جديد بأنفاس بهاء، وهـو مـن كـان البارحـة ميّتـاً في حضـنها، وحبيبتـه الحمراء تسير في درب الفناء.

*****

رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ" طبّقت الآفـاق شـهرة وحضـوراً، وحقّقـت مبيعـات هائلة أغرت النّاشر في ترجمتها إلى أكثر مـن لغـة، وأكثـر مـن جهـة إعلاميّـة وأكاديميّة وثقافيّة لعقد جلسات حواريّة ونقاشـيّة حولهـا، وتلقّـت أكثـر مـن عرضٍ مغرٍ لتحويلها إلى أفلام سينمائيّة.

لقد بات العالم كلّه يعرف قصّة العاشقين: الضّحاك وبهاء اللّـذين انتصـرا على الموت والنّسيان والفراق بقوّة حبّهما الخالد.

*****

بهاء لا تفهم ما معنى ما يدور حولها، ولا تستطيع أن تستوعب العلاقـات التي تشكّل عالمها الجديد، لكنّها تطير سعادة كلما جلس الضّحّاك إلى جانبهـا في السّرير، وضمّها إلى صدره، وشرع يقرأ لها قصّـة حبّهمـا الـتي خلّـدها في رواية "أَدْرَكَهَا النّسيانُ"، وتشهق فرحاً ودهشة وخجلاً كلّما قرأ لها مشـهداً فيـه قبلة أو مضاجعة أو مخاصرة أو عناق، وتضحك حتى تقرقر محمرّة أكثـر مـن

شدّة الاستثارة، وتطالبه –على استحياء– بأن يعيد عليها قراءة تلك المشاهد من الرّواية، ويغيب عنها ذلك الرّكام العظيم من الأحزان الذي يتوارى خلف هذه الأحداث السّعيدة، بعد أن حذفه الضّحّاك من الرّواية، ودفنه في مكان كئيب في ذاكرته حيث لا يصل إليه بشر سواه.

وعندما يعيد عليها قراءة ما تطلب من صفحات ومشاهد حميميّة دافئة أو حارّة، تلتصق بجسده أكثر، ابتداء من التصاق قدميها بقدميه إلى التصاق كتفيها بكتفيه، انتهاء بإلقاء رأسها على صدره، وعندما تشعر بدفء جسده ينتقل إلى جسدها، تسأله بخجل طفوليّ متوتّر: متى سوف نتزوّج؟

فيبتسم الضّحّاك لها ابتسامة تشمّر عن ناجذيه، ويجيبها: سنتزوّج عندما تتعلّمين القراءة والكتابة.

- ومتى سوف أتعلّم القراءة والكتابة؟

- في القريب جدّاً يا حمرائي الفاتنة الشّهيّة إن بقيتِ تتعلّمين بهمّة ونشاط.

*****

أمّا المرّة التي ضحك بها الضّحّاك حتى تشنّجت خاصرتاه كانت عندما رأى بهاء تتقافز فرحاً بثوبها الأصفر القصير؛ لأنّ باربرا غادرتْ البيت بعد أن حزمتْ ملابسها وأغراضها في حقيبتها، وفارقت المكان لا تلوي على شيء فيه.

لم تسأله بهاء عن سبب مغادرة باربرا للمكان، لكنّها رقصتْ في بهو البيت رقصة انتصار مؤزّر. عندها بدتْ ملكة المكان دون منازع، كما هي ملكة قلب الضّحّاك دون منازع.

في تلك اللّحظات لم تكن بهاء طفلة صغيرة كما هـو حالها حقيقـة منـذ أن استيقظتْ من غيبوبتها، بل كانت امرأة بكامل غيرتها، وفرحها لتخلّصها من منافستها على قلب من تحبّ، وقد انتفشت تيهـاً كطـاووس عنـدما غـادرت غريمتها حلبة الصّراع، فبدت حينها مثل طفلة صغيرة تتراقص بحذاء نسـائي بكعب مرتفع، وتكاد تقع على الأرض.

يومها لم ترمقه بنظرات طفلة تأنس بحنان أمّها التي تتمثّل عنـدها في حبيبهـا الضّحّاك، بل كانت ترمقه بنظـرات امـرأة صـغيرة انتصـرتْ بصـعوبة علـى غريمتها التي تنازعها على قلب الرّجل الذي تعشقه.

*****

الضّحّاك هجر التّدريس في الجامعة بشكل نهـائيّ، وقـدّم اسـتقالته منهـا بعد إجازته الطّويلة، وغادرها دون رجعة، وقدّم "مكتبة الضّحّاك سليم" هديـة لدائرة المكتبات القوميّة كي تـديرها، وتقـوم علـى شـؤونها، وتفـرّغ للكتابـة الرّوائيّة وعيش تفاصيل السّعادة لحظة تلـو لحظـة مـع بهـاء طفلتـه الصّـغيرة العاشقة لـه بشـكل جنـونيّ؛ فهـي تـرفض أن تفارقـه ولـو للحظـة واحـدة، وتشاركه تفاصيل حياته جميعها حتى تفاصيل استحمامه وقصّه لشـعر رأسـه، وتهذيبه لأطراف لحيته وشاربه تشاركه بها، وعنـدما ينـام تنـدسّ في حضـنه، وتتعلّق برقبته.

يسعد بها، وهي تكبر لحظة تلو الأخرى، وتسير في مدارج الطّفولـة بهنـاء وسعادة وتدليل وراحـة بـال وأمـن لم تعرفهـا في طفولتهـا الأولى البائسـة في الميتم؛ فيمشّط شعرها في كلّ صباح، ويشتري لها الملابس الطّفوليّـة الحريريّـة الجميلة ذات الألوان الزّاهية، والأحذية الجلديّة الملوّنة، ويحمّمهـا باسـتخدام ماء الورد الدّافئ والصّابون السّائل برائحة اللافنذر الجبليّ؛ فيحقق لها حلمـاً

من أحلام طفولتهما عندما كان غاية ما يحلمان به من الرّفاهيّة المحرّمة عليهما هو أن يحظيا بحمام جميل هانئ دافئ كلّما احتاجا إلى الاستحمام.

هو يعيش معها بجسد رجل على أبواب السّبعينيّات من عمره، وبروح طفله الصّغير المتواري في أعماقه الذي استطاع بعد عقود طويلة أن يبرّ بوعده لحبيبته الصّغيرة، وأن يهرّبها من سجنها من الميتم الكبير، وأن يهرب بها نحو البعيد؛ ليعيش معها أجمل تفاصيل السّعادة والفرح والحرّية والبحبوحة؛ فيسير معها تحت المطر، ويجري معها في الطّرقات الصّغيرة بين البيوت القديمة، ويقرعان أجراس البيوت، ويوليان هاربين وهما مغرقان في الضّحك، ويشربان المرّطبات الباردة في زيارتهما لمدينة الألعاب، ويحضنها إلى صدره وهي تخشى الأشباح في مدينة الخوف، وينفقان النّقود بسخاء على شراء الألعاب المسلّية والحلويّات والسّكاكر والمرطّبات والمثلّجات، ويتشاركان في أخذ دروس في التّمثيل المسرحيّ والعزف على البيانو والرّقص الذي كان محرّماً عليهما حرمة كاملة في الميتم، كما كانت محرّمة عليهما المباهج والأفراح والأمل المهرّب إليهما من أيّ مكان كان.

وفي كلّ ليلة كان يهدهدها على قصّة يسردها لها عن عاشقين اسمهما الضّحّاك وبهاء يعيشان عشقاً منعّماً عمره آلاف السّنين، لم يمرّا طوال حياتهما المديدة بشيء اسمه الميتم أو اليتم.

وعندما تغفو في حضنه مثل ملاك أحمر سعيد القلب قرير العين، كان يطبع قبلة على جبينها، ويغطّيها بغطائه الكشميريّ الوثير، ويضمّها إليه بذات حنان الأم الذي لطالما غمرها به في الماضي عندما كان يحنو عليها بحنان أمّ عظيمة الحنان، فيعصمها بقلبه من قسوة الميتم عليها، ويطعمها طعامه،

ويهدّئ روعها بقصص عن المستقبل الجميل الذي ينتظرهما عندما يهربان نحو البعيد الرّحيم، ويكونان أسرة سعيدة، ويسكنان في بيت جميل دافئ.

*****

في الشّتاء البارد عندما ترغب حبيبته بهاء بالحصول على قمر خاصّ بهما بعيداً عن القمر الصّيفيّ الذي يحظيان به في سماء الصّيف الصّافية، فهي تستلقي معه على السّجادة الوثيرة في غرفة البيانو، ليكونا تماماً تحت الثّريّا الكريستاليّة الجميلة ذات المئات من قطع الكريستال اللاّمعة التي تتلألأ بنور يخطف الأبصار، ويسعد الرّوح، ويعكس ألواناً بهيجة في فضاء الغرفة.

عندها يضمّها الضّحّاك إلى صدره، ويشبك أصابعه بأصابعها، ويأخذ يحدّثها عن الأزمان الجميلة التي تنتظرهما في القادم من حياتهما، وبهاء تسمع تلك الأماني بحماس طفوليّ مشدوه مرتبك.

*****

ليست بهاء فقط من استردّت أزمانها القديمة وطفولتها المسروقة، بل الضّحّاك أيضاً قد عاد طفلاً كذلك، بعد أن نسي أحزان الميتم، وقرّر أن يعيش الفرح الذي لم يعشه من قبل، واستسلم لخفق قلبه لحبيبته الحمراء المثيرة التي تغنّي معه أغنيتهما الطّفوليّة المفضّلة "بهاء البهاء سيّدة النّساء"، ولا ترى أبداً عينه المصابة التي أصابها كسوف تعذيب المعتقل.

*****

استطاعتْ بهاء أن تتعلّم القراءة والكتابة بسرعة فائقة بفضل مساعدة الضّحّاك لها، وظلّ خطّها رديئاً صعب القراءة كما كان دائماً، لكنّها لم تستطع أبداً أن تفهم لماذا يبدو وجهها أكبر كثيراً من سنّها؛ فهي طفلة

صغيرة، لكنّ وجهها يدلّ على أنّها في مثل سنّ الضّحّاك، كذلك شعرها فيه الكثير من الشّيب الذي لا ترى مثله في شعور أترابها من الأطفال، إلّا أنّه يغزو شعر حبيبها بشكل كامل.

كما أنّها لم تستطع أن تفسّر نظرات الاستغراب في عيون الغرباء كلّما راقبوا حركاتها الطّفوليّة، أو سمعوا أسئلتها السّاذجة البريئة. إلّا أنّها كفّت عن سؤال الضّحّاك عن سبب مخاطبتها بالسّيدة في كلّ مكان تذهب إليه على الرّغم من أنّها ما تزال طفلة، واقتنعت بإجابته عندما أخبرها أنّهم يخاطبونها بلقب سيّدة؛ لأنّها طفلة جميلة وأنيقة، وستكبر في القريب لتكون سيّدة فاتنة.

*****

مع الوقت نسيت بهاء أسئلتها القليلة حول الفارق الظّاهر بين سنّها ووجهها، وبدأت تعيش تفاصيل الفرح والسّعادة مع زوجها الضّحّاك الذي لا يشاركها جسدها، أو يلمسه بشهوة جنس أو برغبة إشباع لغرائزه؛ لأنّه يريد لها أن تعيش طفولتها الجديدة ببراءة كاملة دون استغلال لجسدها، أو اعتداء عليه، ويكتفي بسعادته العذريّة، وهو ينعم بشمّ رائحتها الطّبيعيّة المزيج من البنفسج والصّندل، وهي تشاركه حياته وفرحه ونجاحه وشهرته بعد أن تزوّجها في حفل بهيج كبير دعا إليه حشداً غفيراً من أصدقائه ومعارفه وزملائه في الجامعة وطلبته والإعلاميين والكتّاب وأصحاب دور النّشر والصّحف والمجلات الورقيّة والالكترونيّة ولفيفاً كبيراً من جيرانه، وكان أخوه بالتّبنيّ جورج سليم هو وصيفه، في حين كانت باربرا هي وصيفة بهاء.

لقد لبستْ بهاء فستان زفاف ورديّ اللّون اختارته بنفسها من أجمل دور الأزياء في المدينة، وتبخترتْ به أمام المدعوين في حفل الزّفاف بفرح كبير، ولم تتذكّر أبداً أنّها قد تمنّتْ طوال نصف قرن أن تلبس ثوب زفاف أبيض في حفل زفافها، وأن تنتفش به بخيلاء، وهي تسلم راحة يدها لراحة يد رجل تزوّجته؛ لأنّها تعشقه بجنون، وتريد أن تعيش معه القادم السّعيد من عمرها المتبقّي بعد أن نسيت حلمها بأن تنجب منه طفلاً يشبهه، ويفرح قلبها، ويناديها دون توقّف بالكلمة المقدّسة "ماما".

في حين صمّم الضّحّاك على أن تضع على رأسها أكليلاً ورديّاً يظهر شعرها الأحمر القصير الغارق في الزّهور الورديّة لتشبه بذلك صورة الرّبة الأسطورة التي أثبتها النّاشر على غلاف كتابه الملحميّ الشّهير "مزامير العشّاق في دنيا الأشواق".

كما صمّم على أن لا يشتريا خاتمي زواج، وأن يحتفظا بخاتمي الزّواج الذّهبيين اللّذين أحضرتهما بهاء معها عندما قدمتْ إلى عالمه الثّلجيّ البارد دون دفء عشقها له.

*****

الضّحّاك عرض على بهاء أن تختار لها اسماً جديداً إن كانت ترغب في ذلك؛ كي يقطعها من الماضي بشكل كامل، بعد أن حظيتْ بحياة جديدة ومولد جديد، لكنّها صمّمتْ على أن يظلّ اسمها بهاء، وأن يظلّ اسمه الضّحّاك؛ فهما لا يملكان فرحاً من الماضي سوى هذين الاسمين.

*****

الضّحّاك خلع نظارته، ولم يعد يخفي عينه المصابة خلفها، وبات يرى بعينين معمورتين بنور الحبّ والفرح والبراءة.

وبهاء كانت تقبّل عينه المصابة على حين غفلة منه، وتطبع حنانها عليها، دون أن تسأله ماذا حدث لها؟ ومن عطبها؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟

*****

بهاء والضّحّاك يكتبان الآن روايتهما الجديدة المشتركة التي ستتحدّث عن رجل عاشق اسمه الضّحّاك لم يستطع أن يخرج حبيبته بهاء من غيبوبتها الأزليّة بسبب إصابتها بسرطان الدّماغ، فدخل في غيبوبة مماثلة لغيبوبتها ليلقاها هناك في عوالم العدم والمجهول حيث هي مسجونة هناك قهر إرادتها.

وطال التّيه بهما، وغاصا في عوالم بعيدة لم يدركها بشر غيرهما وحفنة قليلة من العشّاق العظام الذين تساموا إلى عوالم العشق العليا.

وحتى الآن لا يعرف أيّ أحد إلى أين ذهب الضّحّاك وحبيبته الحمراء الفاتنة بهاء، كلّ ما يعرفه الجميع، ويرونه في قصصهم أنّهما استطاعا أن يلتقيا في عالم ما بعيد عن هذا العالم الشّرير، وأنّهما يعيشان هناك حلمهما بالحبّ الأبديّ.

هذا ما كتبته باربرا في روايتها الشّهيرة الأكثر مبيعاً في بلاد الثّلج والصّقيع التي تحمل عنوان "أَدْرَكَهُمَا النّسيانُ".

*****

في رواية أخرى اسمها "أَدْرَكَهُ النّسيانُ" ظلّت بهاء تنتظر أن يستيقظ الضّحّاك من غيبوبته التي طالت لسنوات، لكنّه لم يستيقظ أبداً على الرّغم من أنّها ظلّت تقرأ عليه أحداث روايتهما التي كتبتها بنفسها لتكون قدره

الجديد السّعيد الذي سيكونه عندما يستيقظ لينسى بها حياته البائسة التي أباد النّسيان ذكرياتها، إلّا أنّه لم يستيقظ من غيبوبته، على الرّغم من أنّها ظلّت مصمّمة على أنّه سوف يلبّي نداءها الموصول له في يوم ما، وسوف يستيقظ على حين غرّة لينظر في عينيها مليّاً، ثم يقول لها: أنا أعرفكِ. أنتِ بهاء.

*****

في الرّواية المخطوطة -الملعونة التي لم تفنَ في حادثة إحراق الضّحّاك لها- كتبت العاشقة في النّهاية: لم تجد بهاء الدّرب إلى الضّحّاك؛ لذلك اخترعتْ ضحّاكاً جديداً من بناء خيالها الحالم، وظلّتْ تهذي باسمه وبقصصها الكثيرة معه حتى غدتْ مجرّد اسماً مكتوباً في لائحة الموتى في مشرحة كليّة الطّبّ في جامعة العاصمة؛ لأنّ لا أحد أبدى أيّ رغبة في استلام جثّتها من المستشفى، ودفنها على حسابه الخاصّ في أيّ بقعة من بقاع الأرض جميعها.

*****

في رواية مخيفة يتناقلها أطفال الميتم عن الشّبحين اللّذين يعيشان في القبو يذكرون أنّ طفلة حمراء ملعونة وطفلاً عاشقاً لها مدفونان في تراب القبو بعد أن حبستهما مديرة الميتم في القبو إلى أن ماتا جوعاً.

*****

في الرّواية الأكثر أهميّة والأقل ذيوعاً وشهرة: لم تكن هناك تفاصيل محدّدة وأكيدة لأي حدث كان أو لم يكن، ولم تكن هناك آلام وذكريات وانتظار وغيبوبة وغائبون فيها أو خارجها، كان هناك فقط فتى صغير شجاع القلب والعشق اسمه الضّحّاك، وكان هناك فتاة صغيرة حمراء الشّعر

والجمال والأنوثة اسمها بهاء، وكان أحدهما عاشق للآخر من لحظة البداية حتى لحظة النّهاية دون أهميّة للتّفاصيل التي وقعت بين اللّحظتين الممتدتين لعقود طويلة.

*****

ما بعد النّهاية

في أفق بحريّ ما كان هناك ظلاّن يركضان نحو الرّحب فرحين بالعشق الذي لا يموت، ولا أحد كان يعرف لهما اسماً أو ذكريات أو تاريخاً، والشّمس التي تغرق في أفق البحر الدّامي بها تحوّلهما إلى خيالين أسودين يلتحمان طويلاً في جسد قبلة عميقة.

*****

البداية

إنّني أراكِ

د. سناء شعلان (بنت نعيمة)

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، وكاتبة سيناريو، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلميّ والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٦٥ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحيّ مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تُنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربيّ والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة والفكريّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعيّ حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربيّ والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١- أعشقني.

٢- السّقوط في الشّمس.

٣ - أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١- أصدقاء ديمة.

٣- المجموعات القصصيّة:

١- قافلة العطش.

٢- تراتيل الماء.

٣- الجدار الزّجاجيّ.

٤- حدث ذات جدار.

٥- الذي سرق نجمة.

٦- تقاسيم الفلسطينيّ.

٧- عام النّمل.

٨- رسالة إلى الإله.

٩- أرض الحكايا.

١٠- مقامات الاحتراق.

١١- ناسك الصومعة.

١٢- قافلة العطش.

١٣- الكابوس.

١٤- الهروب إلى آخر الدّنيا.

١٥- مذكّرات رضيعة.

١٦- أكاذيب النّساء.

١٧- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:

١- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "القصّة في الأردن: نصوص ودراسات".

٢- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "الضّياع في عيني رجل الجبل".

٣- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "في العشق".
٤- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "مختارات من القصّة الأردنيّة".
٥- مجموعة قصصية مشتركة مع قاصّين مصريين بعنوان "مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع".

٥- مسرحيّات للكبار:

١- إعداد وسنيوغرافيا لمسرحيّة "البيت النّظيف" المقتبسة عن مسرحيّة (البيت النّظيف) للأمريكيّة سارة رول.
٢- عوة على شرف اللّون الأحمر.
٣- "سيلفي" مع البحر.
٤- وجه واحد لاثنين ماطرين.
٥- محاكمة الاسم (×).
٦- السّلطان لا ينام.
٧- خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١- اليوم يأتي العيد.
٢- رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١- قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم الناس والمروءة".
٢- قصّة للأطفال بعنوان "هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد".
٣- قصّة للأطفال بعنوان "الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربيّ".
٤- قصّة للأطفال بعنوان "ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة".
٥- قصّة للأطفال بعنوان "اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق".
٦- قصّة للأطفال بعنوان "العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك".
٧- قصّة للأطفال بعنوان "عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس".
٨- قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم النّاس والمروءة".

٩- قصّة للأطفال بعنوان "صاحب القلب الذّهبي".
١٠- مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلّات الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١- أبي سيّد الكلمات.
٢- الذين لا ينامون.
٣- قالت النّساء.
٤- غصون وتخوم.
٥- الدّرب إليهم.
٦- الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ – لقاءات حواريّة:

١- الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)
٢- العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)
٣- لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ – كتب نقديّة متخصّصة:

١- الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.
٢- السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠- ٢٠٠٢م
٣- دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.
٤- الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.
٥- السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في الأدب المعاصر.
٦- ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات نقديّة في إبداعات معاصرة.
٧- So Close, Much Farther: Studies in Criticism

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١- المشاركة بفصل بعنوان "السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح" في كتاب بعنوان "حنون مجيد في منجزه القصصيّ"، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.

٢- مشاركة بفصل بعنوان "لقاء مع العلامة علي القاسميّ: أبو المعاجم العربية الحديثة" في كتاب "الدّكتور علي القاسميّ سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين"، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣- المشاركة بفصل بعنوان "عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع" في كتاب "عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً".

٤- المشاركة بفصل بعنوان "مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقيّ فرج ياسين في مجموعته القصصيّة "واجهات برّاقة" في كتاب" في آفاق النّص القصصيّ: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين".

٥- المشاركة بفصل بعنوان "البطل في قصص زياد أبو لبن" في كتاب "القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن".

٦- المشاركة بفصل بعنوان "الذين لا يموتون" في كتاب "المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه".

٧- المشاركة بفصل بعنوان "الفنتازيا رداء للتّثوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة" في كتاب نقديّ بعنوان "نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعيّ".

٨- المشاركة بفصل بعنوان "شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان" في كتاب "دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ".

١٢- الكتب المنهجيّة:

١- كتاب بعنوان "تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس"، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

عنوان المؤلّفة: د. سناء شعلان

الأردن – عمان– الرّمز البريدي١١٩٤٢

ص. ب ١٣١٨٦

خلوي وواتس وفايبر: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩

البريد الالكتروني

Selenapollo@hotmail.com

العنوان على الفيس بوك

Facebook: Sanaa Shalan

9789957545505

Sanaa Kamel Shalan

ALTNOOR
التنور للثقافة والفنون
Culture and Art